رضوى أمين

سُترة

الحب على حافة المـوت

رواية





للنشر والتوزيع

سترة

رضوى أمين



تَشكِيل للنَشر والتَوزِيع

Email publish@tashkeel- publishing.com

Website www.tashkeel-publishing.com

Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

رقـم الإيـــداع: 26668/ 2019

الترقيم الدولـــي: 978-977-6737-08-2

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

التدقيق اللغـوي: سندس عسل

الإخراج الفنـــي : ضياء فريد

المـديـــر العــام : سيد شعبان

سترة

الحب على حافة الموت)

رواية

رضوى أمين

الإهداء

إلى كل من إغترب عن ذاته كي يحارب طواحين الهواء على أمل أن يعود منتصرًا، ولم يعد.

أهديكم روايتي تلك..



«وما أنا إلا رسالة تصل لأمر ربها،
ثم تُمزَّق أوراقها ويبقى أثرها....»

الفصل الأول

- تحبي نبدأ منين؟
- من الأول، أنا عايزة أعرف كل تفصيلة زي ما عيشتيها وحستيها
- تحبي أكتبلك؟
- لأ، سجلي صوت، افتحي شنطة الذكريات، وخرجي كل اللي فيها، أنا سمعاكي، هنقل كل إحساس وكل موقف زي ما عشتيه وحستيه، بريحة الهواء اللي اتنفستيه
- أنا حسة إني متلخبطة جدًا
- ليه بتقولي كده؟
- بتخيل إني هبقى حروف وكلمات على ورق، والناس هتقراني، إحساس غريب جدًا!
- لو متوترة ممكن نغير الأسامي مثلا!
- لأ، اكتبيني زي ما أنا «دينا»، دينا أم عمرو.
- بس إنتي معندكيش غير بنتين.
- وعمرو، ابني البكري اللي مخلفتهوش.



”وبعض الصدف تبقى لقاءًا جميلًا يربطك
بأحدهم إلى العمر أبديًا“

جامعة الاسكندرية
كلية الهندسة 2005

الأقدار التي حملت مجموعي بمرحلة الثانوية لألتحق بالهندسة قسم كيمياء بعدما كنت أرغب بالالتحاق بكلية الألسن، نظرًا لتفوقي في اللغات، أو بالفنون الجميلة لعشقي وولعي بالرسم، لكنها كانت رغبة أبي، وحلمه الذي كان يراوده أن يراني (باشمهندسة)، أخذت هندسة كثيرًا من جهدي، وأغرقتني في معادلات معقدة، حاولت أن أتخذ من الكيمياء رفيقة لي، وقررت ألا أكون جزءًا من معادلة صعبة، قررت أن أحمل على عاتقي ميزانًا للحياة، النجاح والاجتهاد في الكفة الاولى، مقابل الانطلاق والاستمتاع بالحياة الجامعية في الكفة الثانية.

تداولت أخبار عن إحدى الرحلات التي ستقام للذهاب إلى القاهرة، بالشهر الأول من العام الدراسي، والتي حجزت بها مقعدا على الفور.

كانت للرحلة حافلتين، وكنت أنا المسؤولة عن تجميع أصدقائي في الجزء الخلفي من الحافلة، كنت من يلقي النكات، ويغني، من يشعل الصخب والأجواء الجنونية بالرحلة.

وفي الحافلة الأخرى –في نفس التوقيت ـ كان هناك من يجتمع بأصدقائه في الجزء الخلفي أيضًا، يرتجل عليهم حكايات الملك (سترة في بلاد الإغريق –عمرو عبد الستار لاعب كرة السلة بالاتحاد السكندري)

ليدوي الضحكات والتصفيق بين النوافذ المغلقة طيلة الطريق.

لا أعرف كيف هيأ القدر ذلك، شخصين لا يعرفان بعضهما بعضًا، يفعلان نفس الشيء بالوقت ذاته، يجمعها لاحقا نفس الطريق!

لم يحدث وأن تقابلنا طوال الرحلة، زرنا العديد من الأماكن بالقاهرة، لكن تحديدًا وفي النزهة النيلية كانت عينان ترتقباني، تبحث ورائي، تسجل ملامحي، تفتش عني إن غبت، كانت عيناه قد حفظتني في ذاكرته، دون أن يشعر أو يأمرها أن تفعل ذلك، كل شيء حدث لا إراديا منه!

ربما تحدثنا! لا أتذكر، فقط كنت الوحيدة التي أحمل كاميرا فيديو وألتقط ما يحدث بالرحلة لأني مولعة بالتصوير وتخليد الذكريات واللحظات، كنت أشعر أن تلك الرحلة ستؤثر بحياتي، كنت أسجلها وأنا اشعر بارتواء السعادة تسري بقلبي، وبالفعل قد أثرت بعمري كله!

بعد عودتنا إلى الاسكندرية والجامعة، طلب مني أحد أصدقائي تسجيل الفيديو و تفريغه على قرص (سي دي)، بعد أيام وجدت مظروفا مع صديقتي، مدت يدها لي وهي تقول:

- دينا في حد سابلك ده.

أمسكت بمظروف قرص (السي دي) لأجد مكتوبًا عليه

(إهداء الى دينا أولى كيمياء ـ من صاحب الجلالة والعظمة الأديب العالمي الحاصل على جوائز الدولة التقديرية في الغناء والتأليف، والتلحين والتوزيع، صاحب أعظم قصيدة في التاريخ التي هي بعنوان «السترة وصراعه مع الأسد الافريقي» عمرو عبد الستار).

ـ مين الأخ سُترة الغريب دا؟ شكله لطيف!

قلتها وأنا أشعر بالغرابة والفضول، ظللت مبتسمة طوال اليوم، وانا أتساءل من يكون عمرو عبد الستار؟ ومن ذا الذي لا يعرف "سُترة" عمرو عبد الستار؟ يبدو أنني الوحيدة التي تجهله ولا تعرفه.

ـ طيب عاوزة أشوف مين عمرو دا؟

وتقابلنا سريعًا، وأنا يشتتني الفضول ويبعثرني الاستغراب.

تقدم أمامي خطوات، كنت خلالهم أدقق النظر إليه أحاول استرجاع أي مشهد جمعنا بالرحلة، فلم أجد!

أفاقني فارق الطول بيننا، رفعت رأسي لأقول له بصوت يتراقص من السعادة:

ـ إنت بقى عمرو ملك الإغريق؟

ـ أيوة هوا أنا، وإنتي بقى دينا؟

ـ وكمان عارف اسمي

ـ أكيد، كان لازم أشكرك، لأنك الوحيدة اللي صورتي الرحلة.

ـ مافيش شكر ولا أي حاجة، التصوير ده هوايتي.

ـ أنا شوفتك في الرحلة على فكرة، كنت واقف جنبك في النايل كروز.

- مخدتش بالي منك وقتها!
- معقولة؟ إنتي كنتي في الباص التاني أكيد.
- أيوة، وكل الحجات اللى كنت بتعملها في الباص أنا كمان كنت بعملها، شوفت الفيديوز وعجبوني، ودمك خفيف جدًا، فكر تكتبهم.
- مش للدرجادي يعني!

لا أعلم يومها ما حدث لي، كلسعة هواء بارد من ليالي ديسمبر أصابتني، رغم أننا لم نكن بالشتاء يومها، شيء جديدٌ قد أضيف إلى حياتي، وأصبح يومي لا يكتمل سوى به

كنا نختلس الاوقات بين المحاضرات، نقف أمام المباني نلقي التحية والصباحات، إن غاب عن حرم الجامعة، يعلو صدري ويهبط إعلانًا عن التيه والاضطراب، وتعلن عيناي عن إقلاع رحلة البحث عنه بجميع الوجوه والأماكن والزوايا، شعرت أن شيئا ما يحدث بداخلي، ضوضاء اشتعلت بي، شيئًا ما يثرثر في خباياي، ويندلع بين أضلعي، ليست مجرد صداقة كبيرة، أو زمالة كما كانت تبدو لي.

تبادلنا أرقام الهواتف، ساعات ونحن نتحدث، نتوارى خلف الصداقة، لم يحدث ومللنا يومًا، لم نغلق الهاتف لانتهاء الحديث بيننا، فقط نغلقه لأخذ بعض الوقت للدراسة، لا أعلم كيف كان هذا التطابق بيننا، كيف كنا نسير على نفس الخطى؟ كيف كنا متشابهين إلى درجة انشطار الروح؟ كيف كانت تقفز نفس الأفكار لنا بنفس اللحظة؟ كيف كنت أتحدث ليكمل هو كلماتي؟

كان أيضا خفيف الدم، يداعب روحي لأضحك من أعماقي فتدمع عيناي، وأشاطره النكات، وأعقب كلماته بكلمات أخرى أكثر فكاهة، فنتنافس من مننا سيضحك الآخر من قلبه أكثر؟ لا شيء يأخذه عمرو على محمل الجد، كل الأشياء سيغزل منها سعادة مطلقة، ضحكات مجنونة، كنت أراه دائما، الأخف روحا ودما.

كنت أرى الذكاء والحدس به، وكان يخبرني أيضا أنه يرى الذكاء يقفز من عيني، حينما يريد يخبرني أمرًا، لا يخبرني به بمنتهى السهولة، يترك لي دلالات كي أكتشفها، يريد أن أفكر وأصل للأمر وحدي، وكنت أفعل.

بعدما التقيته بوقت قليل جدا، قررت حسم أمر (شوبارت) صديقي منذ الإعدادية الذي كان يدرس معي بنفس القسم، والذي كان يبدي إعجابه وحبه لي منذ وقت ليس بقصير، وكنت دائمة التجاهل له ولمشاعره نحوي، يومها قررت التحدث معه، أن أطوي آخر صفحات القصة وأغلقها تمامًا، ذهبت إليه وتحدثت بمنتهى الجد والجمود:

- إحنا منِنفعش لبعض، ولا ينفع أكمل معاك، ولا في أي مشاعر من ناحيتي تجاهك، ولا في ١٪ أمل إننا نبقى مع بعض.

قلت له الكلمات تباعًا، دون تردد، دون خجل، بعد أن قابلت عمرو، شعرت أنني لا أنتمى سوى له، رغم أننا لا زلنا ندَّعي الصداقة لا أكثر، لكن ما أشعره تجاهه لم أشعره تجاه أحد من قبله، لم يكن الحب يومًا شفقة أو عرفانًا أو رد جميل، أحببته بلا أسباب، وهُديت إلى مرساي منذ التقيت عيناه.

أتذكر ذات يوم كنت أبحث عنه بطرقات الجامعة التي نعتاد أن نلتقي بها، فلم أجده، انتظرت طويلا، لم يظهر، كانت صديقتي (عطاء) ترافقني، قلت لها:

- هطلع أدور عليه فى قسم كهرباء في المحاضرة بتاعته، أشوفه جه ولا لأ.
- إنتي مجنونة؟ هتطلعي تدوري عليه، هتقوليلهم إيه عمرو فين؟
- أيوة هدور عليه، واسألهم.
- اعقلي يا دينا، ميصحش.
- أنا هتجنن يا عطاء، ده مش موجود، وأنا هتجنن واشوفه.

أمسكت بيديّ وأنا أهم بالذهاب نحو باب قسم كهرباء لتقول لي:

- دينا بلاش هبل كده، يخربيت الحب وسنينه، إنتي حبتيه ولا ايه؟ الله! يخربيت الجنان.

حينما أتذكر تلك اللحظات أشعر و كأنني كنت في نوبة إدمان، كنت أبحث عنه لتنفذ رائحته بأنفي فتستكين جوارحي، أبحث عن مخدر لقلبي لتتفتح شرايين قلبي صوب الحياة، حينما كانت تجتاحني الرغبة في رؤيته، لا شيء يمنعني عن ذلك، وإن لزم الأمر أن أذهب على أعتاب بيته لأنتظره، سأفعلها بلا شك.



«أحب الأعوام الجديدة،
وهذا العام يبشرني بحدث جديد يطرق باب
قلبي»

جاءني اتصاله، ببداية العام الجديد ٢٠٠٦ في الأول من يناير، كنت أقف بشرفة غرفتي الصغيرة، أضع الهاتف بجواري، وأغلق أذني اليمنى بيدي، لأستطع سماعه جيدا، كان يتلعثم وتخرج الكلمات من بين شفتيه بطيئة على عكس طبيعته التي يتحدث بها:

ـ كل سنة وانتي طيبة يا دينا.

ـ وانت طيب ياعمرو.

ـ النهارده ١ يناير، و ده يوم مميز جدًا، عشان سنة جديدة تعدي علينا مع بعض، وعشان النهارده عيد ميلادك.

شعرت بنبض قلبي يتسارع، يستجديه أن يقول ما يريده، قلت بصوت خافت يرتجف:

ـ وانت طيب.

ـ دينا، أنا، أنا، أنا، أ....

ـ مالك ياعمرو عاوز تقول ايه؟

ـ أنا بحبك يا دينا.

سمعتها وقلبي يقفز إلى أسفل قدمي، لأقول له:

ـ إيه؟

ـ مسمعتنيش؟ بحبك يادينا.

لم أتردد أبدًا أن أخبره أنني أشعر تماما كما يشعر هو تجاهي:

ـ وأنا كمان بحبك.

لم أشعر بسعادة مررت بها في حياتي مثل ذلك اليوم، لم يدق قلبي كما دق، لم يعزف نبضي الألحان أو تغنّى كما فعل، كنت أرتجف، كنت أقفز ذهابا وإيابا في طرقات بيتي كالمجانين، كانت وجنتاي تتوردان خجلا، وجميع الأشياء في غرفتي تنصع بالألوان التي لم أرها من قبل، جميع الأشياء تتضخم وتزداد جمالا ونورًا، وددتُ لو أغني وأعزف، وأراقص الأشياء التي تقابلني في طريقي، تمنيت لو تدب الروح في أوراقي وأقلامي لتشاركني أولى لحظاتي التي سجلتها بمدونتي، كما حفرتها على جدار قلبي.

أن يحبني عمرو!

أن أشعر أنني امتلكت الحياة، أن يحبني عمرو ذو العينان البنتيان الفاتحتان، عمرو ذو الطول الفارع، والبنية القوية، عمرو ذو الذكاء والحدس، الذي يضع عنوانا غريبا لكل شيء في حياته، عمرو ذو النظرة الثاقبة للأشياء، أن يحبني عمرو! قمة الفخر والتجلي أن أحظى بحب مختلف الأطوار كحب عمرو لي، ألا أستمع لنفس تعبيرات الأحبة لبعضهما، أن يعطي كل الأشياء وقتها وقدرها، لا أتذكر أن فعل لي شيئا أو قال لي كلمة يوما، كانت قد ذُكرت في القواميس، أو رددها العشاق من قبل.

أتذكر ذات يوم أهداني ”عيدية“ كانت عبارة عن جنيه واحد فقط!

ومن يعرف أن عمرو عبد الستار ذو الملابس الفخمة والماركات العالمية، بسيط لا يحمل من المال سوى أقل القليل! مد يده بالجنيه الذي كان قد كتب عليه من الخلف:

- (وحياة الأربعة الفراعنة دول بحبك وبموت فيكي)

كل الأشياء التي كان يفعلها تجعلني مشدوهة لحبه ومشاعره معي، دائما أشعر أنني في حالة انبهار لا متناهية.

كان يسكن في محرم بك بالاسكندرية، جميع الملابس الرائعة التي كان يرتديها كان يتسلمها من النادي الذي يلعب به مباريات كرة السلة، كان بسيطًا عفويًا من عائلة بسيطة لا تمت للثراء بصلة، حينما تراه لا تصدق مدى بساطة الحياة التي يعيشها، كنت أراه بعيناي كلاعبي المنتخب أو ربما لاعبي المباريات العالمية، كان في عينيّ رجلًا ناضجًا مختلفًا، ذلك الاختلاف الذي سحرني إلى عالمه وأنا مسيرة مشدوهة خلف خطواته.

كان بالفرقة الأولى من هندسة الكهرباء، كان يتقاضى راتبًا رمزيًا من المباريات التي يفوزها بالنادي، كان يحاول أن يكفي احتياجاته كي لا يعبأ والداه بمتطلباته ومتطلبات أخيه الأصغر سنا.

ذهبنا يومًا إلى كارفور الداون تاون، وتمشينا قليلا بطرقات المول، كان الجو باردًا وكنت أرتدي تيشيرتًا خفيفًا، وضع لي الجاكيت الذي كان يرتديه فوق جسدي الصغير، عدت يومها إلى منزلي وأنا أحتضنه طوال ليلة وأشم رائحته، ويتسلل النوم من جفوني الى الهواء.

أنار هاتفي برسالة نصية قصيرة لأجد:

- (ومالو لو ليلة تهنا بعيد ورحنا على كارفور!)

بدأنا رحلة النوت بوك، بالأسبوع التالي أهداني المفكرة وقال لي:

ـ إقري اللي كتبتهولك، واكتبيلي بعده.

ثم ذهب للمحاضرة وأخذت أقلب أولى أوراقها لأجده كتب لي:

ـ أنا قاعد بفكر فيكي، فاكرة لما روحنا يوم التلات اللي فات المول، وأكلنا تشاينز فوود، انا بحس ان أسعد أوقاتي بقضيها معاكي، أنا فعلا بحبك.

تبسمت لكلماته، ورددت عليه:

ـ أنا من ساعة ما روحت المول ده معاك بقيت بحبه أكتر من الاول، لأن كل حاجة معاك ليها طعم تاني.

أغلقتها وأنا تعجبني فكرة النوت بوك التي ظلت معنا لعشرة سنوات قادمة، يكتب لي ثم يتركها لي فأقرأها، وأدون ردا عليها.

ذات يوم، ذهبنا للإبراهيمية، لنتناول الغداء بعد الجامعة بمطعم جاد بشارع لاجيتيه، بعد انتهائنا تمشينا سويا نتجاذب أطراف الحديث متشابكي الأيدي، ولقصر قامتي كنت أسير فوق الرصيف، ويسير هو أسفله، تفاجئت بوجود حفرة عميقة أمامه لم ينتبه لوجودها، جذبته بكل ما أوتيت من قوة تجاهي، قبل أن يتعثر بها بهفوة، الفارق بين قدمه وحافتها كانت لا تتعدى الفيمتو ثانية توقيتا، الربع سنتي مسافة.

جذبته نحوي وأنا أشعر بالخوف والفزع تجاهه، شعرت أني كنت سأفقده للتو، شعرت أن قلبي سقط بآخر الحفرة التي لا أعرف مدى عمقها وظلامها واتساعها، وسمع الجميع صدى ارتطامه بالداخل.

نظر لي نظرة ـ لن أنساها ـ لازالت عالقة بذاكرتي، قال لي بعدها، أنه شعر بالأمان معي، شعر أن بإمكانه الاستناد علي يوما، أنني سأكون عكازا بحياته، رغم اختلاف المواقف بيننا، رغم طيلة السنوات التي قضيناها سويا، لم ننسى ذلك اليوم، الذي كان أحد إشارات القدر لنا،

لم يحدث شيء في حياتنا عبثا.

كنت دوما كالطفلة برفقته، التي يخشى عليها من تصرفاتها الطائشة، كان يلقبني بـ»مجنونة“

لم تخل نزهة لنا بشوارع الاسكندرية إلا وقال لي:

- ”دينا خلي بالك من الطريق“
- ”دينا مترجعيش بظهرك لورا“
- ”بس متعمليش كده ياحببتي“

كنت دائما بجواره بنت السبع سنوات التي تمشي برفقة والدها.

لكن في ذلك اليوم وأمام تلك الحفرة، شعرت أننا تبادلنا الأدوار، وأنا المسؤولة عن طفلي.

زادتنا الأيام تعلقا، وكأن الأشياء التي تحدث بيننا، تنسج رباطا وثيقا بين أرواحنا.أال

جلسنا ذات يوم بكافتيريا الجامعة، نظر لي بعينيه، شعرت بالكلمات تقف على شفتيه ليقول دون مقدمات: ”دينا أنا عاوز أخطبك.»

تبعثرت، ثم لملمت شتات نفسي سريعًا كي لا أصرخ أمامه من شدة الفرحة، ثم قلت بنبرة يعلوها صوت العقل:

- تخطبني! ازاي ياعمرو؟ انت لسه في سنة أولى، مافيش أي حاجه في إيدك تعملها أو تقدمها، مافيش خطة في حياتك لسه.
- أنا هكلم باباكي، لأني عاوز أخطبك، إزاي معرفش! بس عاوز أخطبك.
- أكيد أنا بتمنى جدًا أكون لابسة دبلتك، إنت مش متخيل إني بحلم باليوم ده إزاي، بس مش عاوزاك تترفض من بابا.
- سيبيني أقابله بس، ممكن؟

ذهبت يومها إلى عمتي لأخبرها عن قصتي مع عمرو، فأخبرت هي والدي بالقصة، والذي وافق على أن يحدد موعد له ليقابله ويسمع منه، مُقررًا أن يرفضه ويخبره أنه لا يزال طالبًا صغيرًا، و أن يصرف نظرًا عن تلك الأمور حتى ينضج، وينتهي من سنوات الجامعة.

كنا نجهز لتلك المقابلة أنا وهو، كما لو كان يتجهز لمهمة عسكرية، أو ربما مقابلة بأحد الشركات العالمية، كانت فرصة غير قابله للضياع، احتمال الرفض فيها كان عاليا كواقع لا مفر منه، وأيضًا احتمال الرفض فيها غير مقبول، وفقا لأمنياتنا وأحلامنا الصغيرة.

تسوقنا لننتقي ملابس تناسب الموعد، كان جينزا من اللون الأزرق الداكن، وقميصًا أبيض اللون يعلوه بلوفر شتوي من اللون البني الداكن الذي كان يعكس لون عينيه البنيتين، كان يسألني إن كان يبدو لائقا! كان يسألني عن ردود افعال أبي، عن مفاتيحه ومداخله، كان يرى أن أبشع الكوابيس في الحياة، أن يقول له والدي «لأ».

قبل أن يذهب أبي للقائه، قاطعت طريقه نحو باب الشقة لأقول له:

- بابا، عشان خطري ماترفضهوش، عمرو كويس بجد، والله يابابا ده حتى هو حلو وجذاب، صدقني هنحسن النسل.

يومها نظر لي أبي بحب، وعيناه تلمعان وتضحكان، وطبع على رأسي قبلة ثم ذهب.

كنت أقف في شرفتي أنتظر، لا شيء يمكنني فعله سوى الدعاء، لا حجاب بيني وبين السماء، كاد قلبي يقفز من صدري، وأتخيل جميع الأشياء التي تحدث الآن، ثم أعود وأنفض من رأسي الأفكار، وأضع يدي فوق قلبي لأنتظر، رغم توقعي للرفض.

وافق والدي، وحدد موعدا للقاء عمرو وأهله ببيتنا!

لا أعلم كيف حدث ذلك وقتها، لكنني عرفت لاحقًا أن والدي رأى فيه الرجل، الذكي، ذو المستقبل المشرق، حديثه لم يكن هابطًا، أو محدودا كباقي الشباب من عمره -هكذا أخبرني- رأى به رجلًا صغيرًا مسؤولا، يمكنه أن يسلمه ابنته وهو مطمئن قلبه، شعرت بأقصى درجات السعادة تقرع قلبي، وأنا انتظر يوم قدومهم.

كنت أشعر بغصة تسكن قلبي من الفارق الطبقي الواضح بين عائلتي وعائلته، التي شاهدتها في نظرات والدته لي ولحوائط وأسقف بيتنا، لم نكن بالثراء الفاحش الذي يظهر بالمسلسلات، لكننا كنا بحالة مادية ميسورة، ولم يكن يهمني ووالدي تلك الفوارق أبدًا، وأخبره أبي أنه يشتري (رجلًا)، هاتفتني والدته بعد تلك الزيارة لتطلب مني أن نؤجل مشروع الخطبة إلى أن يتخرج عمرو حتى يتسنى لهم دخول بيتنا

وهو ذو شأن عالٍ، تقصد وهو (باشمهندس قد الدنيا)، وليس طالبا مازال يدرس بالجامعة.

لم يعجبني حديثها قط، ورفضت قطعًا أن أخبره بما قالته لي، أخبرتها إن أرادت أن تمنعه عن خطبتي فلتخبره هي بذلك.

لم يستطع أحد أن يمنع عمرو عن قرار خطبته، جاءني وأهله في الموعد المحدد، وهو يمتلئ بالطاقة والحب والحماس، كان أبي يعلم أنه من اللامنطقي أن يُملي عليه طلباته وشروطه، لكنني أتذكر، يومها أخبره أبي أنه يتوسم به خيرا، وأن أمور الزواج والشقة وما إلى ذلك ستتضح لاحقًا حينما يقترب وقت الزواج، وأن كل شيء سيأتي برزقه.

أحب عمرو والدي، وأحب فيه عيناه التي رأته من الداخل، لا بالمظهر والماديات، كان ممتنا له كثيرا، وكان يريد أن يثبت له أنه جدير بي، كانت تعجبني تلك العلاقة التي ربطتهما، ويعجبني علاقتي بعمرو التي تُوِّجت بالخطبة وبالخاتم الذي التف حول إصبعي.

بالكاد استطعنا أن نشتري خاتمين لنرتديهما بعد قراءة الفاتحة، لم تكن ظروف عمرو تسمح بأكثر من دفع قيمة تصوير أوراق المحاضرات بالجامعة والملازم الهامة، حتى أنه يستغنى عن أخذ مواصلة إلى محرم بك حيث يسكن هناك، ويفضل أن يأخذها سيرا على أقدامه، فيخبرني: «أنا بحب أمشي يادينا، المشي رياضة كويسة أوي»

كنت أبتسم وأنا أعلم أنه لايحمل ثمن المواصلة.

كنت آخذ محفظته وأتفحصها وأبعثر الصور والأوراق والكارنيهات التي تحويها وأخبره أنني أعبث بها لا أكثر، لأجد بها بضع جنيهات، فأدس بها بهدوء ورقة مالية ومن ثم أغلقها، ولا أحاول الالتفات لردة فعله بعدها، لكنني أعلم ما يفعله حينما يراها، وهو يعلم أنني من وضعتها، فيأخذني إلى أقرب كافيتيريا ليسألني:

- ها تفطري ايه؟
- ساندوتش فول وباكيت بطاطس
- انتي مش ناوية تغيريهم؟ أنا على فكرة قربت أبطل أسألك تاكلي ايه.

أربع سنوات بالجامعة، وهو لم يمتنع عن سؤالي عن الإفطار من نفس الكافيتيريا، وأنا لم أغير طلبي المعتاد من الفول والبطاطس، ليس حبا بهم، لكني لم أجد شيئا أقل من ثمنهم، لا أريد أن أُحمله ما لا طاقة له به، لم أشعِرهُ يوما أنني أشتهي سواهما، كان أجمل فطور يدخل جوفي، يكفي أنه معه، يكفي أننا نتقاسم الفطور سويا، يكفي أن يومي يبدأ بعينيه، ويدي تحمل خاتما محفورا عليه حروف اسمه، أشعر وكأنه يأتي لي بما في الدنيا جميعا، لم يمل من سؤالي، ولم أمل من أكل الفول والبطاطس!

يحبني كما أحبه، يتنافس كلّ منا على الارتقاء بمكانته بقلب الآخر، عمرو يعطي ببذخ حتى لو كان ينفق آخر مليم بجيبه، أتذكر الراتب الذي كان يتقاضاه نظير (الماتشات) التي كانً يلعبها بنادي الترام لكرة السلة كان يبلغ حوالي الثلاثمائة وثمانون جنيها، اشترى لي جاكيت من "adidas" ثمنه ثلاثمائة وستون جنيهًا!

أنفق كل ما يملك في سبيل شراء أول هدية لي من حُر ماله..

كل التعب والمجهود الذي أداه خلال الشهر، وضعهم لشراء قطعة واحدة من أجل اسعادي..

سعادة عيناه التي انعكست من سعادتي بالهدية كان يُشعرني بأن قلبي يقفز من موضعه، علمت وقتها قيمة أن يحبك من تحبه وأن يسعى لإسعادك بكل ما يملكه.



"ما أجمل أن تكون منارة يهتدي بها
التائهون بطريقهم، وما أصعب أن يكتشفوا
أنك الطريق الصحيح بعد فوات الأوان "

لم تكن علاقة عمرو وطيدة بوالده عبد الستار، وكان عمرو يسافر إلى الدورات والتدريبات لكرة السلة دون أن يعلم بها والده، ولا أعلم الأسباب التي أدت إلى طلاق والديه بعد خطوبتنا، فأصبح والده يقيم بنفس البيت بالطابق الأول، ويقيم معه عمرو في أوقات النوم فقط.

سافر عمرو يومًا إلي إحدى مباريات كرة السلة، وكان يبحث عنه "عمي عبد الستار" ويُحاول التوصل إليه بعد مشادة حدثت بينهما، فهاتفني ليسألني عنه، لم أستطع الكذب، فاضطررت لإخباره أن عمرو في دورة بمدينة قنا، شعرت أن الغصة تعتصر قلبه، لعدم علمه بمكانه، أخبرته أنني سأتحدث معه وأحاول تصليح الوضع بينهما، وعدته أن يذهب له عمرو في ذلك اليوم ويصالحه، أخبرني أنه يريد أن يفتح معه صفحة جديدة بيضاء كأب وابنه، وأن يعطيه مبلغ المشروع الذي يحتاجه عمرو، حيث كان حينذاك بالفرقة الرابعة.

هاتفت عمرو، وأخبرته أن يذهب إلى والده، وأن يطلب سماحه، كنت أشعر في نبرة أبيه شيئا من الشوق لحب الابن، تحدثت معه عن فضل البر الأب، وكسب رضائه، أخبرني أنه سيذهب له في اليوم التالي بعدما يستريح من السفر، لكنني كنت مصرة أن يذهب له بنفس اليوم باستمالته بكلماتي: «عشان خطري ياعمرو، وحياتي عندك تروحله النهارده، إنت متعرفش كان زعلان قد إيه ونفسه يشوفك، لو ليا خاطر عندك تروح النهارده قبل بكرة.»

- خلاص يادينا هروحله حاضر، مكنتش فرقت النهارده من بكرة يعني!

وكان خاطري عند عمرو كبير، علمت ذلك يومها حينما ذهب له وتصالحا، كان والده مجروحا في يده، فضمَّد عمرو الجرح له، ودعا له والده بالخير وقال له:

- ربنا يباركلك يا ابني أنا راضي عنك

نام عمرو ونام عبد الستار وهو يشعر بالسلام النفسي، واستقيظ صباحًا ليجهز الفطور بالمطبخ، ففرغت انبوبة الغاز، ليخرج ويستبدلها من الشارع المجاور، فيسقط بالارض.

جاء رنين الهاتف صباحا ليرد عمرو ويتلقى المكالمة:

- الحاج عبد الستار تعيش انت، لقيناه واقع على الأرض وأمر الله نفذ!

فاجعة موت الأب أكثر الأشياء ألمًا، كنت أشعر بالصدمة مما حدث، وكان عمرو يبكي وهي يخبرني:

- تخيلي يادينا إنه كلمك عشان اروحله، تخيلي لو مكنتش سمعت كلامك واستنيت للصبح؟ بابا مات يادينا وهو راضي عني ودعالي، ربنا يرحمك ياحج عبد الستار.

كانت تشع بداخلي طمأنينة، إنني منارة الإهتداء لعمرو، من يومها أصبحتُ عينيه التي يرى بها أشياء كثيرة أكثر من ذي قبل، شعرت أنني سكنت بطابق أعلى بمدينة قلبه، والتحمت به، وكنت أيضا أهتدي به، كما كنت أشعر دوما أنني ابنته المدللة المسؤولة منه.

***

ورث عمرو عن والده رحمه الله مبلغ عشرون ألف جنيهًا بعد أن صرفت له الشركة التي كان يعمل بها مستحقاته، فقرر عمرو أن يدفعهم مقدمًا لإحدى الشقق السكنية الصغيرة، بعد أن بحث والدي عن شقة تناسب إمكانياته، وجد لنا شقة بالكيلو الواحد والعشرين بالقرب من شاطىء النخيل، كانت بعيدة جدا بالنسبة للأسكندرية التي أسكن بها، وكان المبلغ الذي يمتلكه عمرو هو تقريبا نصف ثمنها، لم يعجبني موقعها، لكنني وافقت بلا تردد، أن يكون لنا شقة، هي حلم من أحلامنا، أن تجمعنا غرفة وحوائط وسقف نمتلكهما، هو الأمل بعينه، أينما تكن موقعه.

لم أكن أتخيل يوما أن أزور تلك المنطقة، لكن مع عمرو لا شيء غير مقرر أو غير مقبول، يكفي أنه يسعى بكل جهده، ويبذل كل السبل لنكون سويا تحت سقف واحد، وأصبحنا نتملك عقدًا لشقة تمليك، وكعادتي مع عمرو كنت أشعر بسعادة تغمرني بكل خطوة نمشيها سويًا.

كان علينا أن نسدد بقية أقساط الشقة، كنت أجمع من مصروفي الخاص مبلغا وأضعه جانبا ويعطيني هو بعض الأموال وكان ذلك القليل هو كل ما يملكه ويتقاضاه بعد شقاء وتعب، فنسدد الأقساط سويا، ونشتري ما يلزم الشقة، نختار ألوان الحوائط، إلى أن انتهينا من الأقساط، وبدأنا في رحلة تجهيز بيتنا وإعداده، كنت أشتري من مالي الخاص أشياء وأخبر والدي أن عمرو هو من اشتراها، أخبره بذلك لأصدق بالفعل أنه هو من اشتراها!

يستحق أن أفعل ذلك من أجله ولم أندم يومًا واحدًا فيما كنت أفعله، عمرو يكافح من أجل أن يقترب اليوم الذي نسكن فيه بيتنا سويًا، نحلم بالدفء والسكن معًا.

كنا وقت امتحانات آخر العام بالعام الثالث لي والرابع له، يومها جاءني بباقة من الورد أثناء مراجعتي لمادة لا أحبها، انشرح قلبي وانفرجت أساريري وشعرت بسعادة يومها، قلت له:

- ليه كده ياعمرو كلفت على نفسك؟ ده شكله غالي أوي، وبعدين بيتنا كان أولى بالفلوس دي!
- مفيش حاجة تغلى عليكِ يا أغلى الغاليين، ذاكري كويس عشان نجاحك من نجاحي
- سايب مذاكرتك ليه ياعمرو، إنت في آخر سنة كمان، الساعة دي إنت أولى بيها.
- ماتقلقيش عليا أنا عارف كويس بقسم وقتي ازاي، المهم حبيبي يروَّق كده ويقعد يذاكر كويس

استقام ثم قال:

- دينا أنا بحبك

انتهى عمرو من عامه الرابع، ونجح ليحصل على بكالريوس هندسة قسم الكهرباء، أتذكر يومها كنت أصفق له وأناديه بحفلة تخرجه وتبكي عيناي وقلبي من الفرحة به، من الفخر بنجاحه، وكأن طفلي الصغير كبر وأصبح مهندسًا، لا أتذكر أنني فرحت يوم تخرجي كما فرحت برؤيته يتخرج ويتسلم شهادته.

والتحق عمرو بعمل بشرم الشيخ، كان يذهب كل أسبوع إلى هناك، وكنت قد بدأت أشعر باغترابه عني، ويشتعل في قلبي الشوق، وأحصى عدد الأيام والساعات التي تبعده عني، ربما كان عمرو عمليًا في حياته أكثر مني، لكنني كنت أحبه أكثر من أي شيء أحبه في تلك الحياة.

عدنا لنكتب في النوت بوك التي اعتدنا على الكتابة بها منذ أيامنا الأولى بالجامعة، كانت تظل معه أسبوعا يكتب لي بها، ومن ثم يتركها لي لأقرأ ما كتبه، ومن ثم أكتب له بها ليأخذها ويقرأ ما كتبته، كنت أشم بها رائحة قلمه وأنفاسه وأسمع صوت كلماته المكتوبة، تلك المفكرة التي ظلت معنا في سنواتنا، إلى أن مزقتها إلى نصفين، يوما احتد النقاش فيه بيننا، لا أتذكر أنني ندمت أو سأندم يوما على شيء فعلته، مثلما ندمت على فعلتي تلك.

كنت أشغل أيامي أيضا بترتيب بيتنا (بالمهجر) كما كنت أسميه، يستاء عمرو حينما اقول له ذلك، فأضحك وأقول له:

- يعني انا كدبت ياحبيبي مش دي الحقيقة؟ بس والله والعظيم أي مكان معاك هيبقى جنة بس تبقى معايا فيه عشان محسش بالمشوار الطويل وأنا لوحدي.

تعرفت إلى جارتي التي كانت عروسًا صغيرة، تجهز بيتها أيضا، وقد كان موعد زفافهما قبل موعدنا الذي لم يحدد بعد، شعرت أن الله أرسلني لها لأساعدها وخصوصا لصغر سنها، أصبحت أنظف معها البيت، ونرتب الملابس بالخزانات، ونرتب الأواني بالمطبخ، قررت أن أخوض تجربة معها تنظيم البيت قبل أن أنظم بيتي، أحببتها وأحبتني وأهلها، كان زوجها يعمل بشركة مقاولات في ليبيا، ولرد الجميل الذي

فعلته معها، وعدتني أن يوفر زوجها عقدا لعمرو للعمل في ليبيا بالشركة نفسها.

بعد أن تزوجا، وسافر زوجها إلى عمله، هاتفها ليخبرها أنه تم قبول عمرو بالشركة وأن عليه أن يجهز أوراقه للسفر، كان وقتذاك عمرو قد وصل شرم الشيخ منذ ساعتين، هاتفته لأقول له بنبرة يغمرها الفرحة:

- عمرو، لازم ترجع دلوقتي
- في إيه ياحبيبتي خير
- إنت اتقبلت في الشركة بتاعة أستاذ حسين جارنا، لازم تجهز ورقك وفي خلال أسبوع هتكون هناك
- بجد؟ الحمد لله، أنا مفتحتش الشنط، هرجع الموقف تاني واركب الباص واجي علطول.

في خلال أيام، استخرج أوراقه، وجواز سفره، وتم عقد القران تحسبًا للظروف القادمة، وسافر عمرو وقد أخذ قطعة من روحي معه.



"الأحلام التي أراها بمنامي تهمس لي
بأشياء تحدث أو ربما ستحدث»

كنت أمزق من أوراق النتيجة السنوية ورقة تلو ورقة، أنتظر الأيام التي تفصلني عنه، وهو يعمل ليل نهار بليبيا ويرسل لي الأموال شهريا لتجهيز بيتنا بأقل الإمكانيات الممكنة، كلما وضعت قطعة جديدة تخيلت وقع عيناه عليها ومدى إعجابه بها!

شهور وهو بعيد وأنا التي لم تعتد غيابه، شهور وانا لم أعد ألتقيه كما قبل، شهور وأنا أفتقد كتابتنا بالمفكرة التي تشهد بصماتنا وأنفاسنا وصدق مشاعرنا، شهور وهو منهك في عمله وإرسال المال لي، وأنا منكهة بتجهيز البيت وحدي، وأهون على نفسي الأيام، مقابل اليوم الذي سيأتي ونكون فيه سويا.

في يوم كنت عائدة من بيتي بعدما كنت أرتب به بعض الأشياء، كنت أشعر بالتعب، أخذت حمامًا وخلدت للنوم، رأيت حلما لم أنسه بتفاصيله، شاهدت بمنامي أن عمرو غائب عني منذ فترة طويلة جدًا وأنني أشتاقه جدا، أخبروني أن عمرو توفي، وأراه محمولاً في نعشه، وحشد كبير جدًا من الناس يمشون بجنازته، وأنا أختبىء خلف أحد خزانات مياه كبيرة تشبه القبة، اختلس النظرات، وأنا أشعر أن قلبي قد سلب مني، أشعر أن روحي قد تكسرت وتناثرت تحت قدماي إلى آلاف القطع، لم أودعه، لم أره.

صحوت من حلمي فزعة أبكي، ويخفق قلبي فزعًا، وأنا أشعر أن عمرو قد مات فعلا، كل الآلام التي كانت تضرب صدري لا توحي لي بأنه مجرد حلم، هاتفته بسرعه، هدأت نسبيا حينما سمعت صوته يأتيني على الطرف الآخر.

ـ عمرو! الحمد لله انك كويس.

ـ حبيبي إزيك! مالك فيكِ إيه؟

بكيت بانهيار كأنه أخذني بين ذراعيه، وبكلماته يحاول أن يربت على كتفي، لم أكف عن البكاء حتى خرج من صدري تدريجيا الشعور بالخوف والاضطراب.

- حلمتي بيا؟ صح.

جاء صوتي بصعوبة لأقول:

- آه!
- حلمتي أني هموت؟
- آه ياعمرو! بعد الشر عليك.

قلتها وأنا أعود لنوبات البكاء من جديد، وكعادته لم يأخذني على محمل الجد وضحك ليقول لي:

- ياعبيطة إنتي متعيطيش، متخافيش يا حبيبي مش هموت دلوقتي، لسة في العمر باقي.

كنت أشعر أن هذا الحلم مختلف عن جميع الأحلام التي حلمتها من قبل، كان واقعيًا لدرجة اأنني لم انسه يومًا حتى يومي هذا.

- عشان خطري تعالى بقى، الشقة خلصت ومستنياك، متتأخرش أكتر من كده.
- من غير ماتقولي، أنا حاولت أعمل عقد عائلي عشان تيجيلي هنا، بس للأسف منفعش، هقدم على أجازة ويارب يقبلوها، إنتي عارفة إن معداش غير تسع شهور بس على وجودي هنا.
- ياريت تيجي بقى.
- بإذن الله هاجي خلي بالك من نفسك وهقولك خبر حلو قريب، وابقي اتغطي يالولو.



"ها قد اقترب اليوم الذي حلمت به..
يبدو كذلك!
سأصبح عروسًا لك.. خائفة بعض الشىء
لكنني اشتاقك جدًا»

ديسمبر 2009

حاولت جاهدة أن يوافق يوم زفافنا يوم ميلادي برأس السنة، لكنني لم أستطع إيجاد قاعة بذلك اليوم، فانتهى بي المطاف إلى حجز يوم الثامن والعشرون من ديسمبر، لأهاتفه وأخبره:

ـ فاضي يوم ٢٨ يا بشمهندس ولا وراك حاجة؟

ـ ورانا ايه؟

ـ طيب ده معاد فرحك، هتيجي ولا هتتأخر؟

ـ حجزتي من غير ما تقوليلي؟

ـ أيوة حجزت خلاص، اتصرف لازم تيجي، أنا هكون في القاعة وهبقى عروسة شوف بقى عاوز تيجي ولا لأ.

ـ أكيد بتهزري! إنتي إزاي عملتي كدا من غير ما تقوليلي.

ـ افتكرتك هتفرح أنا مش مصدقة ازاي زعلان!

قبل موعد الزفاف بثلاثة أيام وصلت طائرته بمطار القاهرة، ثم استقل حافلة نقل إلى موقف الإسكندرية، كنا ننتظره مع والدته وأبي وأخي الذي كان لديه اختبار باليوم التالي.

حدث ما كان يشعر به قلبي، وتأخر موعد وصوله قرابة الأربع ساعات، ونحن جالسين بانتظاره، وأنا أدعو أن يصل قبل أن يهم أبي بالرحيل، وأحايله أن نبقى القليل من الوقت لعله يصل.

قفزت كما قفز قلبي حينما رأيت الحافلة التي تحمل لوحة القاهرة، توقفت العربة ثم انفتح الباب، لأرى عمرو يظهر منها.

جائتني صفعة صقيع حينما وجدت البرود في مصافحته، برود في لمسة يداه التي كنت انتظرها على أحر من الجمر.

أعادتني الصفعة إلى حيث كنت، وتذكرت مشاجراتنا الأخيرة عن موعد الزفاف المحدد، جائني عمرو أكثر جمودا، حتى عيناه التي التقيت بهما في مرآة سيارة أبي وانا أجلس خلفه، كانت تعاتبني كما كنت أعاتبه على قسوته.

أوصلناه ووالدته إلى منزلهم، أشار لي بيده (مع السلامة) كما لو كنا بنزهة طويلة، وكأنه لم يكن غائبا عني لقرابة العام.

لم يهدأ قلبي، ولم يرق لي اللقاء الذي رسمته بخيالي، أمسكت بالهاتف، وحادثته، وتعاركنا طويلا، وتعاتبنا، ولم يقل لي شيئا يريح صدري، شيئا يلتهم النار التي تأكل شوقي وحنيني له، قلت له بنبرة حادة:

- عمرو، كلامنا ف التليفون مش هينفع.
- خلاص لما نتقابل يادينا.
- مش هاقدر استنى لحد ما ده يحصل.
- هنتقابل دلوقتي يعني؟
- آه هنتقابل دلوقتي، أول ما النهار يطلع هشوفك.

وانتظرت أن تسدل الشمس أول خيوطها، كنت بالطريق إلى منزله، جلسنا نتحدث، وطال العتاب بيننا، حتى عادت مشاعره التي افتقدتها منذ رحل، عاد -جزئيا- عمرو الذي أحببته، ومازلت أحبه وسأحبه ما بقي من عمري.

- وحشتيني جدا
- إنت وحشتني أكتر، ومش مصدقة أنك قسيت عليا كده!
- إنتي مش مقدرة إني كنت بحاول قد إيه أني آخدك معايا، أو أجيلك وأكون معاكي، ازاي متخيلة إني قسيت عليكي؟
- مش مهم أي حاجة المهم إنك معايا دلوقتي.
- إنتي بجد متعرفيش إنك وحشاني أكتر ما أنا واحشك؟
- إنت واحشني أكتر

أمسك بيدي، وطبع عليها قبلة رضا، ورحلت ليستريح من رحلة السفر الشاقة.

لكن لم يسترح قلبي، وعلمت أن عمرو تبدل، وزاده البعد جفاء، وأحالته مواقع العمل الشاقة إلى شخص أكثر حدة وصلابة، أخذت نفسا عميقا، ونفضت جميع الأفكار، وخلدت في نوم عميق.

قبل الزفاف بيوم، تجمعنا وأصدقائي بحفل صغير «توديع العزوبية» ومن المفترض ألا ألتقيه، لكني لم أستطع مقاومة رغبتي في لقائه، وهاتفته ليأتي ويحضر الحفل، لم يعنيني الصخب والاحتفال، أكثر ما كان يهمني أن أجلس معه، أريد أن يأتي يوم الغد سريعا لأكون معه بلا شروط.

استيقظت صباح اليوم التالي، وذهبت إلى مركز التجميل، ومر اليوم سريعا إلى أن جاءني عمرو في حلته السوداء وربطة عنقه الأنيقة، يبتسم لي بإعجاب وانبهار يشع من عينيه، لم يفصح بكلمات كما اعتاد الصمت، لكن أفعاله كانت تخبرني، عيناه كانت تقول الكثير، كان يقبض على يدي بقوة، بحب، بأمان.

كنت أستنكر حقيقة ما يحدث، لا أصدق أننا بيوم زفافنا الذي حلمت به ليالٍ طويلة، لم يكن الأمر لي كبقية الفتيات، لم يكن المبهر أنه فستان أبيض وحفل و سيارة و مدعويين، الأمر الذي كان يملؤ قلبي فرحا، إنهه زفافي على (عمرو) أن يكون زفافي على من أحبه كل هذا الحب، وكل هذا العشق، هو أسمى معاني الرفاهية والسعادة.

رقصنا على أنغام الموسيقى، كان عيناه تلمع وأنا أغرق بهما، كان فارق الطول بيننا كبيرًا، ويرتفع عنقي كثيرا لأنظر صوب عيناه، فأسدلهما على كتفيه، ليقول لي: بصي لي يادينا.

كم مرة قال لي: "ارفعي راسك وبصي لي"

لو كنت سأتساءل يوما ما يقال بين العروسين بتلك اللحظة فستكون: "بصي لي يادينا"

وقفت أنا وصديقاتي بالقاعة نغني، وأهدي له أغنية بدون سابق ترتيب، وكان حضور أصدقائه كبيرًا جدا من نادي كرة السلة، وكان عددهم أكبر بكثير من عدد الفتيات بالحفل، احتفلوا به على طريقتهم الخاصة، وحملوه للأعلى كما اعتادوا أن يفعلوا بالعريس ليلة زفافه، ونتج عن حمله الخاطىء تمزق في أربطة ظهره، وشعرت أنا أيضا بألم في ظهري لا أعلم سببه.

أوصلنا أبي حيث بيتنا (المهجر كما كنت أسميه دوما) وصعد أبي وعمي معنا بالبيت، وباركا لنا، ثم أخذه عمرو إلى حيث باب الشقة ليقول له:

- يللا بقى يا بابا، يللا

ضحك أبي من قلبه ثم قال:

ـ ياه إنت شايل في قلبك!

ـ أنا مستني يا عمي اللحظة دي من زمان، خلاص بقت في بيتي.

لم يبرح الألم من ظهري، وغفوت صباحا، لاستيقظ على صوت عمرو:

ـ تعالي بسرعة أوريكي حاجة ضروري.

ذهبت خلفه لأرى ما يوقظني لأراه:

ـ بصي الأسد في ناشيونال جيوجرافيك، حاجة رهيبة شوفي سبحان الله، مشهد ميتفوتش.

قالها وهو يضحك، ويرمي النكات والمزحات، لا شيء يأخذه عمرو على محمل الجد أو الرومانسية، كي يخبرني أنه يحبني فقط يشاغبني، وقفت أبتسم وأنظر حولي، هل أنا مع عمرو حقا ببيت واحد!

كان عداد الأيام يتناقص، أسبوع فقط يفصلني عن مغادرته المطار، والألم بظهري يتفاقم، ولازلت أجهل سببه، وأتجرع أقوى المسكنات كي أستطيع النوم، حتى أصبحت العقاقير لا تقوى على تسكين الألم.

أخبرنا الطبيب أن بظهري خُراجين، ويجب إجراء جراحة موضعية بالحال.

كان الطبيب يستعجب ظهورهما بلا مقدمات، أجرى لي الجراحة وصرف لي الدواء وذهبت إلى غرفتنا كي أستريح وأخلد للنوم.

ـ حبيبتي خدي العلاج قبل ما تنامي.

ـ حاضر

قلتها وأنا اشعر بأنفاسي تتصاعد مع كل حرف يخرج من بين شفتاي.

تجرعت الكبسولات بقليل من الماء، لاكتشف ما لم اكتشفه من قبل. (حساسية بنسيلين) تورمات، حرارة بالجسد، حكة بالجلد، لم أعلم من قبل طيلة الأربعة وعشرون عامًا إنني أعاني من حساسية البينسيلين.

حملني عمرو إلى أقرب صيدلية، فور ما شاهدني الطبيب، أخبرهم بسرعة وصف لي كورتيزون، فور ما سرى الدواء بدمي، سقطت بين ذراعي عمرو.

أخذني إلى المشفى، ما بين محاليل وأدوية، أخبرني الطبيب أن الحساسية حادة، وكان الجرح بأسفل ظهري ما زال يؤلمني.

ربما أصابنا الحسد، كل من حولنا أجزموا بأن الأمر لا يخرج عن عين قد أصابتنا ليلة زفافنا.

مر «أسبوع العسل» سريعا دون أن أشعر به، وانطفأ بريقنا بتوالي الأحداث التي مرت علينا، وجاء موعد سفره، وشعرت بصدري ينتفض فقط ليستوعب فراقه، وشعرت بقلبي ينشطر إلى نصفين ليأخذ معه نصفا وهو راحل.

لم أسكن بين ذراعيه كما كنت أتمنى، لم أسهر معه ليالٍ نشاهد تلفازنا ونحتسي مشروباتنا الدافئة، لا أتذكر أننا عشنا سويا كما لو كنا عروسين، الساعات القليلة السريعة التي مضت لا أتذكر منها ساعة واحدة تمدني بالدفء في ليالي الفراق القادمة، رائحته بالكاد التصقت بالوسادة، لكنها لم تلتصق بي، خزانته فارغة، أدواته لم تُستخدم

جميعها، بصماته متفرقة في أركان البيت، لم أكن أعرف كيف سأقتفي أثره بالأماكن التي لم نعش بها سوى سويعات قليلة.

ودعته، ونصف قلبي يُحلِّق معه بالطائرة، أتمنى لو أضغط زر الإعادة، فتعاد الأيام من جديد، لم أتشبع منه بعد، فراقه عني لعام توسطه أسبوعا مضى كالبرق، كحلم سريع أوقظني منه وداعه من جديد، كنت أبكي وأناجيه سرًا، أن يبقى معي، أو يأخذني معه، لا حل ثالث، ما يحدث ليس عادلًا لي ولقلبي ولمشاعري، لماذا تقسو الحياة علينا الى هذا الحد؟

***

لم تومض لنا الحياة إشارتها الخضراء بعد، حاول عمرو مرارا أن يحصل على سكن عائلي ليتسنى لي الإقامة معه بليبيا، لكنه لم يفلح.

مر شهران، لتتلقى الشركة خبر حادث أحد المهندسين العاملين بها، واضطر المكوث بمصر فترة طويلة لتلقي العلاج، وتمت الموافقة على طلب السكن، وتسلم محل إقامة ذلك المهندس، فأعد لي الإجراءات اللازمة للسفر وحزمت حقائبي استعدادًا للقائه من جديد.

كنت أحجز تذكرة الذهاب وأنا أحلق بخيالي مع كل طائرة تفصلني عن موعد طائرتي التي ستحملني لطرابلس، أود لو تنقضي الإجراءات سريعا، أود أن تمر الايام كالدقائق أو الثواني، لم يكن لدينا وقت لنتحدث معا في تفاصيل اللقاء، كنت ابتعد عنه قصدا، لتزداد الأشواق اتقادا بيننا.

كانت المرة الأولى التي أعبر بها طريق المطار، كنت ممزقة ما بين حزني لفراق عائلتي، وسعادتي للقائي به، وحياتي الصغيرة الحقيقية التي ستبدأ معه.

صافحتهم وودعتهم، وأخذت حقائبي ودلفت الممر لأنهي إجراءاتي الخاصة بالميزان وتحديد مقعدي بالطائرة، لتصفعني الحياة إحدى صفعاتها القوية!

أُغلقت الحدود الليبية، وأمتنعت عن استقبال رحلات جوية قادمة من مصر.

ماهذه الحرارة التي تغمر وجنتاي! أهي دموع أم دماء وصلت حد الغليان.

كم أخذ الطريق من القاهرة الى الاسكندرية!

كانت وحدة القياس حينئذ هي كم المناديل الورقية التي استهلكتها، ولترات الماء المملح الجاري على وجنتيّ.

عدت إلى غرفتي وحقائبي بجوار سريري، أقسمت ألا أعبث بهم، وبكيت لوالدي أن يجد حلا.

سأعبر تلك الحدود المغلقة مهما كلفني الأمر، وحينما تضع دينا شيئا صوب عيناها لتفعله، ستفعله حتما، لا جدال بذلك الأمر على الاطلاق.

علاقات أبي ومعارفه مكنتني من الحصول على تصريح بسفري خلال يومين وعبور الحدود الليبية اللعينة التي أدمت قلبي، وطعنت أشواقي بسكين الخوف، إلى أن وصلت إلى مطار طرابلس وعبرت الممرات وجميع الأختام ووجدته واقفًا أمامي.

كنت أشاهد لقاء المطارات بالأفلام الدرامية فقط، توقف الزمان، وفرغ من حولنا المكان، لم نهتم بالمارين كما كنا نفعل بكورنيش الاسكندرية، فقط أخذني بين أحضانه، وأنا أعانقه بقوة، دقائق تمر، وأنا لم أكتفي من الأمان الذي شعرته بين ذراعيه، هو ينحني فوقي ليصل إلى قامتي القصيرة، وأنا أقف على أطراف أصابعي لأزداد طولا، اسمع دقات قلبه وهي تكاد تخرج من بين ضلوعه، أشعر بجميع الكلمات التي يقولها ولا يقولها، دموع فرحتي بلقائه كانت تسري فوق ملابسه، ثم بدأت أصوات الناس من حولنا تعلو بأذني، وكأن شيئا ما أيقظني من الهالة التي سافرنا بها عبر الزمن.

- الناس بتتفرج علينا ياعمرو

قلتها بهمس بينما ابتسمت بهدوء وابتعدت عنه وأنا أجفف دموعي بيدي.

حينها فقط انتبهت لوجود نهال وحسين وعادت صورة المطار في عيني من جديد والعربات التي تحمل الحقائب، ووجوه أناس من جنسيات مختلفة تمر من حولنا، وجدتهما ينظران لي و تعلو شفتاهما الابتسامة مما كنا عليه.

***

كان الطقس يومها بارد جدا، ورغم نسمات الهواء التي كانت تسري بجسدي إلا أنني كنت أشعر بالدفء التام بداخلي، أشعر بالامتنان للقدر الذي جمعني به بعد فراق.

توجهنا إلى المبني الذي نسكن به، وكان هو ذاته الذي يسكن به المهندس حسين، وتشاء أقدارنا أن نكونا جيرانًا بالإسكندرية وبطرابلس أيضًا.

شعرت بالبرد الحقيقي حينما دلفت الشقة، ووجدت دماء الساكن السابق الذي أصيب بحادث، ملطخا بالأغطية والوسادات، والهواء يدخل من جميع النوافذ ليخترق هدوء الشقة وطرقاتها وغرفها الواسعة.

كنت أتفحص الغرف، كانت أغلبها مظلمة ليس بها سوى مصابيح مهترئة تكاد تخرج إضاءة خافتة، الأثاث قديم ومحطم، شعرت بالخوف يختلط بالبرد ويصيبني بقشعريرة، وأنا أحاول تخطى الأمر وإنعاش أنفاسي بالأمان في قربه.

لازلت كلما تذكرت ليبيا، اختلطت ذاكرتي بالبرد القاسي، والظلام والهدوء القاتل.

كان ينصرف لعمله من الصباح الباكر ليعود بعد غروب الشمس، وأنا أشعر ان كل شيء يهون فقط لأنني معه.

استيقظ قبله لأحضر له ساندويتشات البرجر التي يحبها، وأتفنن بوضع طبقات الخضروات وشرائح الخس والجبن اللذيذة، وأدس له كل يوم ملاحظة صغيرة بورقة ملونة مرفقة بصندوق حفظ الطعام الذي يأخذه معه، أودعه عند الباب، وانتظرعودته بالمساء.

ينقضي الوقت يوميًا في انتظار قدومه، أصبحت أيامي انتظار يليه انتظار!

أفكر بالعبارات التي سأكتبها له غدًا، لتجعله أكثر طاقة، وأكبر حبا، وأكثر تعلقا بي، وأكثر لهفة لعودته للمنزل.

جاءني يوما، جلس بجواري وأخذ رأسي الصغير على صدره وهو يعبث بخصلات شعري، ليقول:

- دينا، ما بلاش نأجل الحمل، صاحبي قاللي أنه حرام، افرضي طلعت مبخلفش؟ هعرف ازاي؟
- بعد الشر عليك، اكيد نفسي أخلف منك، بس احنا اللي اتفقنا نأجل الخلفة تلات سنين عشان نستمتع بحياتنا شوية.
- وليه منجبش بيبي يملا علينا حياتنا؟ شوفي ازاي إنتي قاعدة لوحدك طول اليوم.

ثم اعتدل في جلسته وسحبني بعيدا لتصبح عيوننا بمواجهة بعضنا البعض:

- نفسي في بيبي منك، مش هنحدد أي حاجة ومتخديش أي موانع ممكن؟

جميع قراراتي التي أخذتها عن تأجيل الإنجاب تخلينا عنها حينما قال لي (نفسي في بيبي منك)، منذ تلك اللحظة، تركت جسدي بلا عقاقير، ليستقبل منه أول طفل، ودعوت الله أن يرزقنا به عاجلا ليسعد قلبه.

تعافى المهندس الذي كان يسكن بشقتنا سابقًا وهمَّ بالعودة إلى ليبيا، فاضطررنا للانتقال إلى سكن آخر، أقل مساحة، وأبعد بالكثير من الكيلومترات عن سكننا الحالي.

كنت وحدي أحقب أغراضنا، بصناديق وحقائب وأكياس بلاستيكية، وانتقلنا الى المسكن الجديد الذي كان أقل راحة عما قبله.

المساحة أضيق بكثير، وجميع النوافذ موصدة بالحديد، لايمكنني النظر من خلالها، ومن المستحيل أن أمشي بالشوارع وحدي، يعود مساء منهكا ومتعبا ليخلد إلي الراحة والهدوء، لا نملك سيارة، ولا مالا كافيا لإنفاقه على سيارات الأجرة، لا يتوفر معي جهاز كمبيوتر ولا موبايل متصل بالإنترنت لأسامر أختي ووالدتي، حتى أنني ابتعدت عن نهال بعدما انتقلنا من المسكن القديم، كل الأشياء كانت تطبق فوق صدري، وتصيبني بالاكتئاب.

مر أسبوع وبدأت أشعر بالألفة والروتين نحو الغرف الجديدة، وشعرت بأعراض الحمل التي قرأت عنها.

يوم ظهر لي خطان إيجابيان على شريط اختبار الحمل، ركضت نحوه وهو جالس على المقعد وأنا أقول بلهفة:

- عمرو انا حامل

جذبني سريعا من يدي لأجلس فوق ساقيه، وهو يضحك بصوت مرتفع، بلا ردة فعل كلامية، يتحسس فوق بطني ويضع أذنه ليستمع للنبض، وأنا أرد على ضحكاته بضحكات أعلى وأقول له:

- بتسمع ايه يا مجنون.

- هششش اسكتي أنا سامع دقات قلبه اهو.

نظرت لفرحة عيناه التي تخليت من أجلهما عن قراراتي السابقة، وأنا أمسح بيدي على خصلات شعره وأقول له:

- مبروك يا أحلى بابا فالدنيا.

لم أعلم أن شهور الحمل الأولى متعبة إلى هذا الحد، وكانت متابعة الأطباء في ليبيا أمر شاق جدا،، قررت العودة إلى الأسكندرية في شهري السابع لاستكمال فحوصات الأطباء، واستكمال ولادتي برفقة عائلتي ورعايتهم.

***

شهرين ما بين المتابعة، وآلام ما قبل المخاض، وأنا أتمنى وجوده برفقتي،

لماذا علينا أن نضحي دائما؟

لا نستطيع الحصول على الأشياء الجميلة جميعها في آن واحد!

أن أكون برفقة أمي وأختي، يعني أن أفارق عمرو وأتركه وحيدا بغربته، ألا أضغط على كفه وأنا أتألم من المخاض، ألا يستمع إلى ركلات طفلتنا الأولى بالشهر التاسع ويرى تكور بطني عن آخرها، ألا يكون معي بغرفة العمليات، ألا يكون أول من يحملها على ذراعيه ويأذن بأذنها اليمنى.

جاء موعد ولادتي، وعمرو في آخر البلاد، نتواصل عبر اشارات لاسلكية، ولا زلت أجهل حتى الآن كيف لمجرد ذبذبات صوتية، أن تكون اتصال وحياة بين شخصين!

أريده أمامي شحما ولحما، وليس كل ما يريده المرء يدركه، لم يستطع اقتطاع أجازة قصيرة ولو أسبوع، وكانت ضريبة الاغتراب ألا يشهد ولادة ابنته الأولى، وألا اشعر به يمسح على جبيني ويقبله كما كنت أتمنى.

الصور وحدها لا تكفي، كان يشعر بالحنين لاحتضانها ولمسها وحملها بين ذراعيه.

وككل الاشياء التي تأتي متأخرة في الحياة، استطاع أخيرا أن يقتطع إجازة بعد مولدها بثلاث أسابيع، أجلت بهم احتفال سبوعها لحين مجيئه.

أن تحمل طفلا صغيرا، يحمل منك جيناتك الوراثية، وملامح منك، يحمل أيضا اسمك، طفلك الصغير يعني مصغر منك، يعني حياة خرجت من جسدك، يعني روح انشطرت من روحك، أن تكون أبا، مسؤولا عن كائن صغير لا حول له ولا قوة.

كان يحملها برفق، بخوف، كائن صغير جدا عظامه لازالت لينة، كان يحملها ويتأمل بكل تفاصيلها الصغيرة ويبتسم في هدوء، كنت أرى هدوئه واتزانه يغمرانه أكثر من ذي قبل، كأن الغربة تقتلع منه جنونه وانطلاقه أولًا بأول.

وكعادة جنوني به، كلما التقينا بعد فراق، أطوف حوله كالقمر في مداره، تناسيت ألم جرح الولادة، تناسيت شهور النفاس، فقط عمرو بقربي، جميع الأشياء تدب بالحياة في وجوده، أشعر أنني الأم الأولى في الحياة، الزوجة الأولى، الحبيبة الأولى، أن يكون عمرو بجواري شيئا، وأن يكون بجواري وبجوار طفلتنا الاولى شيئا أكثر روعة وجمالا، كنت أشعر أنها طفلتي الثانية، وهو طفلي الأول المدلل، لازلت أدلله وأغدق عليه الحب والحنان كي لايشعر بها تأخذني من هالة حبه.

يتلقَّى مني جميع الأشياء بصمت وهدوء، يتبدل عمرو إلى شخصًا آخر كلما ابتعدت عنه في غربته، قررت ألا أتركه هذه المرة وأن أحقب

أغراضي وأحمل طفلتنا ونعود الى بلاد «الظلام والكآبة « فجميع الأشياء يمكن أن تهون حينما نجتمع بمكان واحد.

عودتي إلى طرابلس، يعني التكيف على الحياة القاتمة من جديد، وأنا صعبة الهزيمة، قررت وقتها أن أهزم تلك الوحدة، وتلك الظروف القاسية.

هاتفت والدتي لتبتاع شبكتي وبضع قطع من مقتنياتي من الذهب، وأرسلت لي النقود عبر حساب البنك، انتقيت جهاز لاب توب، واخترنا سيارة زهيدة الثمن، وأصبح لدينا سيارة نذهب بها حيثما شئنا، وجهاز كمبيوتر وإنترنت للتواصل مع أهلي وكسر جميع قواعد الملل التي فرضتها تلك البلدة علينا.

"بعض المغامرات الشاقة تصبح شيقة حينما نكون برفقة من نحب وحينما يظهر لك دورًا بطوليًا يستحق التصفيق الحاد

كيف مرت الأيام علينا؟

لا أعلم لكنها مرت كما تمر، كل شيء يهون ويمر في وجوده، مرت الأيام سريعا، تحسنت أوضاعنا قليلا، أصبحنا نتسوق لنشتري أغراضنا سويا، نستطيع أن نتنزه بسيارتنا كلما شعرنا بالملل، كنت بتواصل دائم مع عائلتي الصغيرة عبر الإنترنت، وجوجو تكبر أمام عيناي، وأتعلم معها أن أكون أم وطفلة في أطراف النهار، وأتبدل بأنثى وزوجة حينما يعود هو بالمساء.

"يوم الهروب العظيم"

هبت علينا نسائم يناير ٢٠١١، تلتها عواصف الثورة الليبية، بدأت تسوء الأوضاع، أشترى عمرو مخزون ضخم من الطعام خوفا من الأيام التالية التي كانت لاتبشر بالخير. وبين عشية وضحاها، تبدل الحال إلى حال.

جائني عمرو في يوم بلا سابق إنذار بلا نقاشات:

- قومي يادينا يللا حالا نمشي.
- نمشي فين مش فاهمة.
- الميليشيات وقفة تحت مينفعش نقعد لازم نمشي.

كانت ميليشيات القذافي، جنود من الأفارقة داكني البشرة، أجسادهم فارعة، عيونهم زرقاء، لا زلت أتذكر كيف هرعت من هيأتهم ونظراتهم تجاهنا، كانوا ينسبون الثورة والخراب والفوضى الذي يحدث وقتئذ بليبيا إلى المصريين والليبيين، رغم كوننا بعيدين كل البعد عما يحدث، رغم أننا موصدين أقفال بيوتنا ولا دخل لنا بالثورات أو انقلابات، أصبحنا في منتصف الطوفان وانزلقت أرجلنا بالأحداث دون أن نشعر.

أصبحنا مطاردين، مهددين بالخطر، السيئة تعم، جميعنا مخربون، جميعنا يجب أن نغادر وطنهم وأراضيهم، هكذا هُجرنا من بيوتنا كالأغراب، تركنا من خلفنا جميع مقتنياتنا، جميع ملابسنا، حتى الطعام الذي اشتراه عمرو ليكفي قوت حياتنا بتلك الأيام تركناه، كل الأشياء

والتفاصيل التي وضعتها ببيتي الصغير، عامين وأنا أنسج حياة وروح، ثم تركت كل شيء خلفي دون التفاتة واحدة!

انتقلنا إلى فيلا لأحد المصريين المقيمين، اجتمعت مجموعة من العائلات بتلك الفيلا التي تعتبر أكثر أمانا عن غيرها من البيوت.

دقائق تمر، ساعات تمر، والحال يزداد سوءا، حتى انقطع الاتصال والإرسال عن مصر. كغيمة سوداء أظلمت سمائنا وآمالنا في العودة إلى ديارنا!

ذهبنا إلى المطار، لعلنا نجد مخرجا من تلك البلد، دفعنا أموالا كي يسمحوا لنا بتخطي بوابات المطار، دسسنا أجسادنا وسط بعض الأتراك لعله يجدي الفرار، لكن بلا جدوى.

أعادونا إلى أرصفة المطار، نستغيث الله أن يفرج همنا، أن نعود إلى اوطاننا، ننتظر أن يرسل لنا الجيش طائرة تحملنا.

كانت أمالنا ضعيفة وخوفنا أكبر بكثير من الإهانات التي يتعرض لها الاشخاص صوب أعيننا.

ابنتي ذات الستة أشهر بين ذراعي، وأنا أختلس تصوير المشاهد من هاتفي المحمول من أسفل غطائها.

"ممنوع التصوير" لكنني التقطت صورا لجميع ما كان يحدث، وأقتني مجلدا بعنوان (يوم الهروب العظيم).

مغامرة لن أنساها يوما، كفيلم حرب وقتال، نشعر أننا سنتلقى رصاصة خائنة، نشعر أن صاروخا سيلتهم رؤوسنا وأجسادنا بأي لحظة.

خارت قوى عمرو، تسلل الخوف إلى أوصاله، وما أن شعر بعدم الأمان، شعر أيضا أنه لا يستطيع حمايتنا، إنه المسؤول الأول عما يحدث.

- أنا السبب! أنا اللي عملت فيكو كده.
- إيه اللي إنت بتقوله ده لأ طبعا.
- مش عارف أحميكو يادينا!
- مش هنستسلم ياعمرو وهنروح بإذن الله.

" لن أُهزم "

هو شعاري بالحياة.

سأخوض الحرب حتى آخر قطرة من دمي، حتى آخر نفس يخرج من رئتاي.

حملت ذاتي، وأنا اتحدث مع جميع المسؤولين والحراس والضباط أنتقل بينهم وأتفاوض معهم، ليتركوا لنا فرصة أن نذهب وشأننا على أي طائرة متاحة، أيا كان وجهتها ـ لا يهم ـ فقط يتركوا لنا فرصة للفرار بأرواحنا واطفالنا.

تلقينا خبرا أن الشركة التي يعمل بها عمرو قد حجزت لنا مقاعد بالطيران الأردني، الذين جعلوا أولوية الركوب بالطائرة للأتراك فقط، وتركونا جالسين على الأرصفة.

نفذت مننا زجاجات المياة، حتى الأطعمة التي يمكن أن نشتريها من كافيتيريات المطار بأبهظ الأثمنة كانت قد نفذت.

وتسلل بقلوب الجميع الرعب والهلع، في انتظار اللا شيء.

ارتفعت حرارة جودي، وجف حلقي وشعرت بالإعياء والعطش من طول الحديث مع جميع المسؤولين وتوسلاتي لهم أن يتركونا نمضي بسلام.

وأخيرا لان قلب أحد الضباط الذي قال:

- شوفي يا أختي، في طائرة مصرية بالجو، لسة راح تاخذ الإذن بالهبوط، بإمكانك تجلسي وبناديكي لتكوني أول ركابها بإذن الله، بس ليكي كرسي واحد.
- أرجوك لأ، مقدرش أمشي من غير جوزي، مينفعش!
- هو بيشوف طائرة تانية، وبيجي بعدك، غادري بالطفلة الأول.
- مش هتحرك من هنا إلا بعمرو.

وهرولت إلى عمرو أخبره بما قاله الضابط الليبي، لم يأخذ كلامه على محمل الصدق، وجذبني من يدي أن أجلس بجواره. بمجرد سماعي عن خبر وصول الطائرة، كنت بأول الصفوف، أدفع بعمرو أمامي، ولكثرة الهرج والمرج بتلك اللحظة، عبرنا الممرات المؤدية الى الطائرة.

كيف الخلاص؟

نحن جالسين على مقاعد طائرة وجهتها الى مصر! إلى عائلتنا!

كيف تركنا الأرصفة بمعجزة إلهية، كيف عبرنا من بين ضباط المطار قساة القلوب؟ لا أعرف، كل شيء حدث بسرعة البرق.

بمجرد إغلاق أبواب الطائرة واكتمال العدد، وإعلان قائد الطائرة عن إقلاع الرحلة المتجهة إلى القاهرة، وضع عمرو رأسه على كتفي، وخلد بنوم عميق.



«شيء ما ينتظرنا!
ثورة أخرى تنتظرنا بعد..»

لأول مرة أشعر أن هواء القاهرة، نعمة من الله كنت أجهل ثمنها، بمجرد أن وطأت أقدامنا أرض المطار، شعرت أنني محاطة بالدفء والأمان.

استقلينا سيارة إلى الإسكندرية، لا أغراض نحملها مطلقا، فقط نحمل فزعنا وخوفنا من الليالي القاتمة التي تسبق تلك الليلة، كلما غفوت بالسيارة، يوقظني كابوس مفزع.

قلت لعمرو:

ـ أنت مصدق إننا في مصر؟

ـ لأ، حاسس إن كل اللي بيحصل ده حلم، أنا محتاج أنام في بيتنا.

ـ هانت ياحبيبي.

صمتنا قليلا إلي أن دخلت السيارة إلى شوارع الإسكندرية، تمكن الخوف من قلبي حينما رأيت الجموع تقف على الأزقة والحارات.

ـ هو في إيه؟ إيه دا ياعمرو؟

ـ مش فاهم حاجة في إيه؟

ليتدخل السائق معنا بالحديث قائلا:

ـ دي اللجان الشعبية، كل حارة وشارع بيتطوع فيها رجالة عشان يحموها من السرقة والبلطجية والفاسدين.

قاطعته قائلة:

ـ هو احنا سبنا الخوف والرعب عشان نلاقيهم هنا؟

- اهدي يا حبيبي، الحمد لله إننا في بلدنا، مهما هيحصل مش هيكون أسوأ من اللي شوفناه، احنا في امان بإذن الله.

ليتابع السائق قائلا:

- الأيام دي صعبة، خلو بالكم ومتسافروش إلا للضرورة، حمد الله ع السلامة.

اقتربنا من بيتنا، الذي كان ينتظرنا فيه الجميع من عائلتي وعائلة عمرو بعد أن هاتفناهم من القاهرة قبل مجيئنا للإسكندرية، بعد انقطاع الاتصال بيننا ثلاثة أيام سابقة.

جلسنا بردهة بيتنا، مع والدي ووالدتي ووالدته وشقيقه، يقص عليهم مغامرتنا مع أراضي ليبيا، ومطار ليبيا:

- سيبنا كل حاجة، وهربنا من البيت، وروحنا المطار، أنا جاتلي لحظة يأس، دينا هي السبب هي اللى اتصرفت وعرفت تخلينا نركب الطيارة اللي جت مصر، دينا اللي انقذتنا.

كنت أرى نظرات الاستنكار من قبل والدته، تنفي أي بطولات يذكرها عمرو تجاهي في تلك الحكاية، تريد لو تكمم شفتيه بيديها ليكف عن الحديث، ليكف عن تمجيدي أمام الجميع لتقاطع كلماته قائلة:

- المهم إنكو وصلتو بالسلامة، انسو كل حاجة ولازم تنام وترتاح يا حبيبي، هتنامو فين النهارده؟

- هننام هنا يا ماما النهارده لحد ما نرجع بيتنا.

ليرد والدي:

- ترجعو فين؟ بيتكم بعيد والمكان مقطوع، إنتو هتفضلو هنا معانا، مطمنين عليكم لحد ما نشوف الأيام الجاية دي هتعدي ازاي، ده بيتك ومطرحك ياعمرو.

اكتفت بالكلمات الأخيرة، لتهم بالانصراف قائلة:

- حيث كده نستأذن احنا، تصبحو على خير.

مرت الأيام التالية، التي شعرنا بها بغرابة الأمر، بانخفاض خصوصيتنا، بعدما كنا نعيش سويًا ببيت واحد وغرف مفتوحة الأبواب طوال الوقت،

أصبح الأمر مختلفا، غرفة واحدة نسكنها، يشعر عمرو بالغربة في البيت، كلما كان يخبرني عن رغبته بالعودة الى منزلنا كنت أقاطعه لأقول:

- إيه اللي هيودينا بلاد المهجر؟ تفرق إيه عن ليبيا ورعب ليبيا، خلينا في بيت بابا هنا لحد ما الدنيا تهدا.

- خلاص نروح لماما شوية نقعد عندها.

- مش هرتاح ياعمرو.

- عشان خاطري، أنا كمان مش مرتاح هنا، وجنبك عشانك انتي وجوجو.

خاطرك ياعمرو، وآه من خاطرك..

كل حياتي من أجلك ومن أجل خاطرك، المستحيل يصبح ممكنا معك.

ذهبنا لنقضي أياما ببيت والدته، لم أشعر بالراحة لضيق الغرف والأماكن، حاولت تجاهل ضيق صدري، لكنني لم أستطع تجاهل صعوبة نومي على الوسائد والمراتب ذات الحشوات القطنية التي لم

اعتد النوم عليها، شعرت بالألم يحزم فقرات ظهري، واستيقاظي قرابة العشرة مرات في نومتي الواحدة.

لم أهنأ بالراحة في فراشي، و كلما شعرت بالتأفف والضجر، توسدت ذراعيه ودفنت رأسي بصدره، لعلي أغط بسبات النوم العميق كما كنت من قبل.

***

ستة أشهر ما بين بيت والدي وبيت والدة عمرو، صراعا ما بين راحتي وراحته، صراعا يكبل رغبتنا في البقاء سويا، وبين رغبة كل منا في البقاء بمسقط رأسه وبيته الذي اعتاده منذ صغره.

- دينا أنا لقيت شغل.
- طيب حبيبي كويس أوي فرحتني.
- هو مش كويس قوي بس مش هينفع نفضل كده.
- كل حاجة هتبقى تمام، متقلقش.
- حاولي تخليكي معايا.
- مش قادرة اقعد هنا لوحدي من غيرك، هتفضل طول اليوم بره، أنا قعده هنا عشانك إنت.
- عشان خاطري يا كمبيظة، مش هعرف آجي من الشغل ملقاكيش.



"تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"

تأتي العواصف من حيث لا تدري، تفاقمت المشكلات بسبب تواجدنا ببيت عبلة والدته، التي كانت تزيد النيران اشتعالا، سقط عنها القناع ورأيت منها وجها جديدا لم أره من قبل.

فراقًا طويلًا لأسابيع، انقطعنا فيه عن الاتصال، ثم هاتف والدي لحسم الأمر، وجاءنا هو ووالدته ببيتنا، لتفتتح الحديث عن الطلاق قائلة:

ـ احنا زي مادخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف، والشقة من حق ابني وشقاه وتعبه، شوفوا أنتو جبتو ايه وتاخدوه.

لم يهتز لي جفن، لم أستمع من الأساس لما تهذي به، أنا وعمرو لن ننفصل، لن نفترق، حتى لو قلنا ذلك أمام الجميع، كنا نتحاور ونتحدث بالأعين، كنا في وادٍ آخر، يعلو صوت حديثهم، ويعلو قلبي فوق صدري ويهبط، أنا ساقطة ببئر عيناه، وهو يسبح بعيني، نحن في مكان آخر نلتقي.

للفراق أثار جانبية حادة لا يشعر بها سوى طرفيه.

لن يكون الفراق بتلك السهولة، فليتحدثوا كما يشاءون، سأستمع لصوت قلبي.

خرج عمرو عن صمته وأشاح عيناه عن مجال عيناي ناظرًا بجدية نحو عبلة قائلًا:

ـ ماما أنا مش جاي أطلق دينا، أنا جاي أحل المشكلة اللي بيننا

بادلته بنظرة حنق عما يفعله، ثم تحدث والدي قائلا:

- طيب يا ابني إنت بتحبها وعاوزها، ياريت تروح توصل مامتك وترجع نتكلم

قامت على عجلة من أمرها، تشيح بيدها يمنةً ويسرة قائله:

- أنا بتطرد ولا إيه، طبعًا حقهم يقولوا كده، ما إنت اللي بتكسَّر كلامي قدامهم، أنا غلطانة لو اتدخلتلك في أي حاجة بعد كده، بس متبقاش ترجع تشتكي.
- مالوش لزمة الكلام ده يا أمي، تعالي أوصلك.
- لا توصلني ولا أوصلك، خليك قاعد معاهم شوف طلباتها وشروطها.
- ماما ميصحش كده، هستأذنكم بس هوصلها لتحت وأرجع.

أوقفته عند باب المنزل، وأشارت لسيارة أجرة، أخرج من جيبه بضع جنيهات، ثم قال لها:

- أكيد مش هتحبي خراب بيتي، وإني أبعد عن مراتي وبنتي ياريت متضايقيش مني.

لم تعره اهتمامًا، وانطلقت مع السائق وتركته يقف وحيدًا.

أخذ يتنفس بعض من هواء الشارع الطلق، ويتمشى أمام المنزل قرابة الخمس دقائق ليستعيد بهم اتزانه، ثم صعد إلى المنزل ليستكمل حديثه مع والدي.

- أنا اسف يا عمي اتأخرت، أنا مع حضرتك اتفضل نكمل كلامنا.

- لا يا حبيبي كلامك مع مراتك قبل مني، اتكلمو واتفقو واوصلوا لحل وأنا وأنت نتكلم بعديها يلا خد مراتك وادخلو أوضتكم حلو مشكلتكم سوا.

دلفنا إلى الغرفة التي اعتدنا النوم بها، جلسنا على حافة السرير، صمتنا طويلًا ثم قال:

- وحشتيني.
- وانت كمان وحشتني.
- وبعدين؟
- تعبت من اللي احنا فيه.
- بس أنا مش عارف أبعد عنك.
- ولا أنا، بس اللي احنا فيه يعدي واحنا مع بعض، مش واحنا بعيد
- مش عارفين نوصل لحل يادينا
- والحل؟

اتفقنا إننا مختلفين، لم نصل بعد لنقطة تلاقي، لازال متمسكًا برأيه في كل الأمور، ولا زلت متمسكة أنا الأخرى برأيي.

قررنا أن نترك جميع الأشياء تعبر بوابة قلوبنا، لعلها تهدينا إلى المرسى، لو كانت سكينتنا وراحتنا في الفراق، سنختار معاناتنا ونحن متشابكي الأيدي بجانب بعضنا البعض، لا مفر، ولا خيار آخر.

رفضت البقاء ببيت والدته، وهو الآخر رفض البقاء ببيت والدي، لذا قررنا أن نبقى بعيدًا عن المتاعب والمشاكل حتى لو كلفنا الأمر بضع كليومترات بعيدًا عن الاسكندرية بشقة زواجنا.

عدنا إلى البيت لأجد جميع أشيائي قد خرجت من أماكنها، أغطية الأسرَّة تم تغييرها، الأواني والأطباق مستخدمة، الأشياء تبدلت أماكنها، أحدهم قام بدخول بيتي بغيابي وعبث به كما لو كان بيته تمامًا!

- فهمني ايه دا؟
- هفهمك كل حاجة..
- أفهم ايه؟ مين دخل بيتي وأنا مش هنا.

أخذني بين ذراعيه برفق، كي يجمح عاصفة قوية ستُعلن الدمار على جميع ما سيقابلها، ثم قال:

- معلش ماما عزمت اخواتها وولادهم وفطرنا هنا أول يوم رمضان
- وأنت معاهم!
- أيوة طبعا.
- كمان بتقولي طبعا؟ خلاص مبقاش بيتي لمجرد مشكلة حصلت بينا، يديها الحق إنها تدخله وتستخدمه وتستقبل ضيوفها فيه.
- خلينا ننسى اللي فات عشان خاطري، كفاية زعل.

كنت أشعر بالضيق يتفجر بين ضلوعي، شعرت بالحنق تجاه نواياها، علمت أنها كانت تُخطط لطلاقنا بالفعل، لذلك شَعُرت أن الشقة من حق الزوج، فالتبعية من حقها أيضًا.

صمتي لم يكن ضعفًا، لكنني شعرت وقتها أن صندوقًا صغيرًا يُفتح بجوار قلبي أحفظ فيه أفعال عمرو التي تسيء لي، التي تُغضبني، أحفظ

به الأشياء الصغيرة التي لم أستطع غفرانها، التي أتخطاها ولا تتخطاني، للمرة الأولى يُفتح صندوقا من صنع أفعال عبلة!

لولا وجودها، لما حفظت له شيئًا سيئًا بصدري، هي دومًا عقبة بطريقي معه، هي دومًا السد المنيع بين حبي وحبه، لو لم تكن دائمًا في صراع معي على مكانتي بقلبه ما حدثت كل الاشياء السيئة بيننا، علمت أنني بحرب، لا أعلم متى ولمَ اندلعت؟ الذي علمته فقط أن شيئًا بداخلي يتزحزح، وربما هو الآخر يشعر نفس الشيء.

بعد مرور ثلاثة أيام، أخبرني أنه تلقى ردًا من أحد الشركات بدولة الإمارات للعمل بها، وأن سفره سيتم في خلال أسبوع فقط. كل شيء كان مدبرًا من قبل مجيئي وبدون علمي في فترة اشتباكتنا الأخيرة، لكنني تلقيت الخبر بابتسامة هادئة تعلو صوت قلبي وضجيجه، لأنني آخر ما يعلم.

قضيت يومي في عزلة، أفكر فيما يحدث بيننا، يحزنني أن ينتهي بنا المطاف أغرابا في بيت واحد! ربما كان عليَّ أن أنقذ الحب الكبير بهدوئي وذكائي وحبي له.

أمسكت مذكرتنا التي هجرناها منذ شهور، وكتبت بها:

"عمرو، شايف احنا وصلنا لإيه، أنا نفسي نرجع زي زمان تاني، أرجوك ساعدني بلاش نضيع من بعض، أقرأ من أول سطر بينا شوف كنا ازاي، وهتعرف بقينا ازاي، هتوحشني وهستناك ترجع زي الأول»

"الوداع رقم (...) لا أعلم كم وداعًا عشناه قبل ذلك وكم وداعًا سنعيشه بعد! لكن شيء آخر اعتصر الألم بي"

أحضرت حقيبته في غرفتنا، كانت تجلس معه عبلة بغرفة الجلوس بالخارج، ثم خرجت لأضع له النوت بوك خِلسة في شنطة اللاب توب التي يصطحبها معه بالطائرة، لأحادثه لاحقًا وهو بالمطار وأخبره أن يُخرجها ويقرأ ما كتبته له.

لاحظ خروجي من الغرفة وأنا أحمل شيئا أُخبئه خلف ظهري، قام بسرعة بعد نظرة ثاقبة تبادلتها معه، ليشد ذراعي من خلفي قائلًا بصوت مفزع:

- هاتي أشوف مخبية ايه؟
- عمرو في إيه؟ متشدش إيدي كده.

كنت في حالة ذهول تام لما يفعله، لصراخه بوجهي، لعُنف تعامله معي في اكتشاف ما أخبئه.

كانت عبلة جالسة تُشاهد ما يحدث، كما لو كانت تشاهد فيلم (أكشن)، تنتظر انتقام البطل على الأشرار، وكنت أنا أحد الأشرار أو ربما جميعهم في آن واحد.

نظَرت له بعتب ولوم، ثم تركتها من يدي لتسقط على الأرض، ودخلت إلى الغرفة أمسك بيدي التي آلمها قوة ضغطه عليها.

حينما أمسك بالمذكرة، نظر لها ثم نظر نحوي، وهو يمسك برأسه، يوبخ نفسه وسوء ظنِّه عما فعله بي.

جميع محاولاتي في إصلاح الأمور باءت بالفشل، وجودها بيننا هو سبب الخراب والدمار.

هرول خلفي إلى الغرفة ممسكًا بالنوت بوك، يحاول أن يتفوه ببعض الكلمات التي قد تخفف من حدة ما فعله، قلت له:

ـ سيبني لوحدي، مش عاوزاك تتكلم معايا.

ـ حقك عليا أنا آسف، خُدي وحطيها في الشنطة تاني

ـ كنت فاكرني مخبية ايه؟ فاكرني بكيدلك مكيدة طبعا، خيالك الواسع والحشو اللي في راسك خلاك تفتكر إني ممكن أكون باخد عقد الشقة مثلًا!

ثم استطردت بعصبية وجنون:

ـ أدي النوت بوك أهي.

أمسكت بها ومزقتها إلى نصفين، كنت في طريقي إلى تمزيق صفحاتها، أخذها من يدي وهو يشعر بفظاعة ما أشعرني به، وضعها جانبًا، ثم أمسك يدي وهو يقول:

ـ أنا آسف، والله آسف مقصدش أزعلك كده.

ـ خلاص مش عاوزة نتكلم كفاية كده، يادوب تلحق تكمل لبسك طيارتك قربت

سأودعه بعد أقل من النصف ساعة.

الفراق، وآه من فراقه..

تملك مني الحنين والشوق والافتقاد، تملك مني شعور مُخيف! هل سيغادرني وأنا لا أحدثه، وأنا التي لا تعلم متى ستلقاه مرة ثانية! كان يعلم نقاط ضعفي، ثم يضغط عليها برفق كي يرق قلبي، وهو يقول:

ـ أنا ماشي دلوقتي، هتخلينا زعلانين من بعض كده؟ ياترى هتشوفيني تاني أصلا.

وضعت رأسي بين يدي، فاقترب مني يُمسك بيدي التي ترتجف من الغضب، ينظر إلى عيني ينتظر منهما إجابة، قلت بهدوء مُتصنِّع:

ـ خلاص مش زعلانة، خلي بالك على نفسك، لأني بحبك رغم كل حاجة وأي حاجة.

لملمت شتات نفسي، وضغطت على قلبي بقوة، ثم ودعته.

كنت أرتدي تيشرت طبق الأصل من التيشرت الذي يرتديه، أخذت الكاميرا والتقطت لنا صورة، لتظل ذكرى لذلك اليوم المُختلط المشاعر ما بين الحزن والفراق والشوق وبعثرة مشاعري!

"دبي_الإمارات المتحدة العربية"

كان يجلس بمطار الاسكندرية في وقت مبكرًا عن موعد الطائرة، ظل يكتب لي عبر الماسنجر الذي لا زلت أحتفظ برسائله حتى الآن:

ـ متزعليش مني

ـ للأسف مبعرفش أزعل منك، بس قلبي شايل.

ـ وحياتي!

ـ وحياتك خلاص.. قولي بتعمل ايه؟

ـ قاعد في المطار لسه بدري على الطيارة.

ـ طيب العب game لحد ما يعدي الوقت.

ـ لأ هقرأ اللي كتبتهولي في النوت بوك.

ـ طيب

ـ هقراها من أولها لأخرها حتى وهي مقطوعة

ـ ...

- متزعليش خلاص، بحبك.
- طمني عليك علطول، بحبك.

وصل إلى مطار دبي، كان العمل قد أَعَدَّ له مكانًا بشقة عزاب. كُنَّا نتحدث ليلًا نهارًا عبر الإنترنت، الذي كان يُكلفه كثيرًا من المال لإرتفاع أسعار الباقات والإشتراكات، لكنني كنت بأشد الحاجة لوجوده معي، وكان هو في أشد الحاجة لي.

تقاضى أول راتب، ثم أرسل لي مصروفًا صغيرًا، وأنا لم أكن أتقاضى من والدي جنيها واحدًا رغم مكوثي معهم بنفس المنزل، منذ تزوجت واستقليت ماديًا وأصبحت بنظر نفسي مسؤولة من رجل آخر غير أبي، عزة نفسي تمنعني عن طلب الأكثر مهما شعرت بالحاجة، لكنني كنت دائمًا بضائقة مالية في سبيل شراء مستلزمات جودي ابنتي، كما كنت أحب رائحتها عطرة ونظيفة طوال الوقت، أشتري الكثير من الحفاضات وابتاع أغراضي الخاصة من مصروفي، ووالدته تخبره أن ما يرسله لي يكفيني ويفيض لعمل جمعيات شهرية.

أخبرني يومًا أنه سأل والدته عن المصروف فهي من أخبرته فقلت له:

- المفروض تسألني أنا عن اللي يكفيني، أنا اللي أقيمه لأن دي إحتياجاتي أنا.
- أنا مكنتش أعرف فسألتها.
- عمرو أرجوك في حاجات بتاعتنا احنا بس، ودي حاجة بتفرق من شخص للتاني
- طيب يكفيكي قد إيه لبس وغيارات لجوجو في الشتا؟

- يعني مثلا ست أطقم غيارات داخليه من كل نوع و٦ بيجامات مثلا!
- هي قالتلي هما طقمين بس واحد يتغسل وواحد يتنشر!
- إنت مصدق اللي بتقوله على افتراض إنه صح، إفرض اللي اتلبس اتوسخ والتاني ملحقش ينشف.
- .....
- انا مش قادرة أصدق إننا بنتكلم في كده! دي بنتك زي ما هي بنتي، من امتى وإنت بخيل، إنت المفروض تكون عاوزها أحسن بنت فالدنيا.

شعرت أننا بطريق آخر مسدود، الحوار لا يجدي نفعا، شيء واحد فقط يستمع إليه هو صوت عبلة وكلماتها.

أصبحت باقات النت التي يملأ بها هاتفه لا تكفي مكالماتنا، أصبح حديثنا أقل، لحوار أقل ومشكلات أقل، أصبحت علاقتنا متوترة، وأشعر به يتغير بشكل ملحوظ، ملعونة الغربة، وملعونة المسافات!

جميع الظروف تصفعنا صفعة قوية تُلقي بنا بعيدًا عن بعضنا البعض، وكل الأشياء تصطف ضدنا.

أشعر بالغربة أكثر كلما تغير عن عمرو الذي كنت أعرفه، أشعر وكأنني أريد قطع تلك المسافات، أو أغزو تلك الفجوات التي أصبحت بيننا، لربما أصل إليه قبل فوات الأوان.

شهورًا تمُر، وتزداد الحواجز، احتفلت بعيد ميلاد ابنتنا الأول، اتصلت به فيديو عبر الانترنت، كي يشاركنا الاحتفال، أحاول أن أبقيه معنا، أحاول أن يقترب من حياتنا رغم المسافات الطويلة التي تشق صدري.

"قليلٌ من الجنون يضخ الأكسجين بالقلب ويشعل فتيل الرغبة الجامحة نحو الحب والحياة"

بعد شهر من إتمام جودي عامها الأول، جاء عيد زواجنا الثالث الذي مر عليه مرور الكرام، فقررت أن أحمل ذاتي وأقطع تلك المسافات، وأسافر إلي دبي.

كتبت له عبر الماسنجر اسأله:

- مينفعش تعملي زيارة وتحاول فيها؟
- مش هينفع يادينا هتيجي تقعدي فين؟، مصاريف وحجات كتير مش هنقدر عليها دلوقتي، حاولي تفكري بعقلك شوية، أنا لسة مستقرتش عشان تفكري تيجي.

كانت كلماته كافية لإخباري أنه لم يحاول التفكير بالأمر. لكن لا شيء يقف أمامي مستحيلًا، طالما وضعت الأمر نصب عيني، ولأنني قررت أن أذهب إلى هناك، سأبذل جميع محاولاتي لأذهب.

كيف سيمر ذكرى زواجنا دون أن أرسل له باقة ورد؟ وكيف سأفعل؟ تفحصت عنوان العمل الذي يعمل به عبر خرائط جوجل بالانترنت، ثم حدثت إحدى أقارب والدتي -التي يعمل زوجها بدبي- ويدعى (عمو وجدي) وأرسلت له العنوان وطلبت منه أن يشتري باقة ورد تُرسل إلى مكتبه أيًا كانت تكلفتها وقت ذاك.

حينما دخل صباحًا إلى مكتبه ورأى باقة ورد تستقر فوق مكتبه، كاد يرقص فرحًا، زملاؤه يتأملون ردة فعله ويغبطون المرأة التي أرسلت له باقة من الورد صبيحة ذكرى زواجهم، وهو يقول لهم:

- مراتي اللي بعتهولي ليه مش مصدقين؟ أنا ومراتي بنحب بعض.

ثم هاتفني وصوته يطرب قائلًا:

- إنتي إيه إنتي، ازاي عملتي كده؟
- لما أكون عاوزة أعمل حاجة بعملها.
- كل سنة وإنتي حبيبتي.
- ربنا يخليك ليا ياعمرو ويقربك مني

كنت أتمنى لو أقف من بعيد وأرى تعبيرات وجهه وسعادة عيناه، كل مافعلته كان من أجل إسعاده ومن أجل أن يدق قلبه لي كأول مرة التقينا بها، ربما يعود كل شيء كالسابق، ربما!

هاتفت عمي وجدي كي أشكره:

- شكرا ياعمو بجد انا مبسوطة جدًا.
- العفو يابنتي، على إيه.
- أنا عاوزة أسألك ممكن أقدر أجي دبي من غير ما عمرو يعرف؟
- ممكن طبعا بفيزا سياحة.
- ممكن تساعدني فيها؟
- اكيد طبعا إنتي زي بنتي هبعتلك رقم مكتب وتتابعيه.

بضع أيام، وقد أرسل لي المكتب الموافقة على طلب الزيارة، وبسرعة البرق كنت أجهز ثمن التذكرة وأحدد موعد السفر وأحدد فترة الاقامة التي قررتها خمسة أيام، أعددت ملابسي في الحقيبة، واتجهت

إلى المطار الذي سأعبر من خلاله المسافات التي بت ألعنها يوما تلو الآخر.

وقفت أمامه في أحد شوارع دبي وهو فاغر فاه من الدهشة!

- دينا! ازاي، ازاي؟

وأنا أعانقه، ثم ينظر لي ثم أعانقه، ثم ينظر لي ثم يعانقني.

- أنا آسف، آسف إني قولتلك بلاش تيجي.

ثم استطرد يقول:

- إنتي صح، أنا اللي كنت غلط.

ما بين الجملة والجملة يمسك بيدي، يعانقها، ثم يأخذني بين ذراعيه لعله يصدق أنه ليس بحلم يراوده وسيفيق منه بعد بضع ثوان.

كل ما كنت أشعره هو «السعادة »، أشعر بنشوة قلبي وارتياحه، أشعر انني قد حصلت على لهفته واشتياقه وحبه من جديد، انني قطعت المسافات التي أرقتني وأشعرتني انني فقدته للأبد، سعيدة لأن وجودي قرار صائب، لعلنا نتذكر ما بيننا، لعلنا ننسى كل الغياب والمشكلات والهجر والقسوة التي واجهناها.

- هنحجز فندق دلوقتي حالًا.

قالها، ثم هاتف صديقه طنطاوي الذي كان يلقبه بـ"أبو طنط" الذي أوصلنا بسيارته إلى أقرب فندق، دخلنا إلى الغرفة وأنا لا أستوعب ما يحدث، لكن استيعابه كان أقل مني بكثير، على الأقل أنا أعلم بكل شيء وخططت له، لكنه تلقى المفاجئة منذ ساعة واحدة فقط.

جلسنا على السرير متقابلين، متربعي الأرجل، متلاقيين تمامًا، استند بيدي على ساقيه ويستند بيديه على ساقاي، كل منا يحفظ ملامح الآخر، كل منا يستمد الأمان من الآخر.

- مش عارف أقول ايه، بس أنا غلطان في كل حاجة، انتي وحشاني بجد.
- متقولش أي حاجة كفاية إننا مع بعض دلوقتي.

شعرت جميع ما كان يقوله، و ما كان يشعره، شعرت أنه عاد ولو جزئيًا «عمرو الذي التقيته للمرة الأولى» و شعرت أنني أحيا للمرة الأولى. شعرت يومها أنه يوم زفافنا الأول، كل شيء يومها كان رائعا وغير عادي.

"أحب البدايات ورائحة البدايات، ولبدايتنا عطر خاص يفوح بالأمل"

عُدت من دبي بعد خمسة أيام، و لم يستغرق عمرو كثيرًا من الوقت لإنهاء إجراءات الإستقدام لي ولابنتنا.

أصحبنا جميعنا نعيش بنفس الشقة التي أسكنها منذ ستة سنوات وحتى الآن.

أعد لي البيت بلون المفارش التي أحبها، بالمعطر الذي أفضله، بتفاصيل الأشياء الصغيرة التي أُفضلها، مهما كانت الأشياء بسيطة كانت بنسبة لي الحياة معه كالجنة.

كان قد مر وقت طويل على عمله بدبي، ازدادت تغيراته التي لم أشعر بها عبر مكالمات قصيرة بالهاتف، أصبحت أرى تغيراته واضحة صوب عيني بحياتنا اليومية، عمرو أصبح أكثر عندًا وحدَّة وجدية، يعود

بعد عمله في المواقع طوال اليوم صامتًا، متعبًا منهكًا، طاقة الحديث معي تكاد تكون منعدمة وخصوصًا إن كانت تلك الاشياء تافهة من وجهة نظره، دائمًا يشغله العمل، يفكر به طوال الوقت، كان يرى أن من الضروري جدًا أن يُتقن عمله، كان أحيانا يعود من الخارج ليجلس على جهاز الكمبيوتر الخاص به مستغرقًا بالتفكير لحلول مشكلات وخطط العمل، كنت أشعر باشتياقي له يلتهم قلبي، انتظر قدومه بالمنزل مساءً لنتحدث ونسهر نتناول العشاء، بينما هو يصب كل اهتماماته لعمله كي ينجح ويصل لهدفه الأسمى.

الجلوس بمفردي طوال اليوم قاتل، لا أملك سيارة للتنقل من مكان لآخر، لم يكن لدي صداقات كافية لشغل فراغ وقتي، أحتاج الكثير منه، والقليل منه لا يكفيني، ألتمس له الأعذار، لكن أعذاره لا تُهدئ ضجيجي.

مشاعرنا متوازية لاتلتقي، أشعر أنه لا يشعر بي، وهو الآخر يشعر أنني لا أشعر به،، كل يسرح بملكوته، وكل منا يبكي على ليلاه.

قررت أن أبحث عن عمل لعلني أجد ما يشغل وقتي، ولتلتحق جوجو بالحضانة.

لم يستغرق بحثي عن عمل مدة طويلة حتى توفرت لي فرصة عمل جيدة جدا بإحدى مناطق الإمارات وتدعى "الشارقة"، وبعد عملي بشهور، اشترى عمرو سيارة جديدة، وأهداني سيارته القديمة، وكانت مرحلة جديدة بحياتي أن أقود سيارة خاصة بي.

كنت أستيقظ الخامسة صباحًا أعد الطعام لابنتي وأوصلها إلى الحضانة، وأقضي يومي بالعمل، أعود للمنزل بالسادسة مساءً، بالكاد انتهي من إعداد الطعام قبل وصوله بلحظات، أصبح اليوم شاق جدًا ومُتعب، طاقتي منتهية إلا عن احتياجي للحديث معه، أو حتى التنزه معه مساءً. شعرت أن تلك الحياة تسرقنا تحت عجلات روتينها رغم حبي لعملي، لكنني أحب قضاء وقتي معه أكثر من أي شيء آخر، لم أُخلق لذلك التعب المتواصل ليلا نهارًا الذي ينتهي بحرماني منه أيضًا!

يدب النشاط بأوصاله بمجرد أن يهاتفه أصدقائه فيفرهاربًا إليهم، وحينما أطالبه بتنزه مسائي لنا وحدنا، يخبرني أنه متعب ويحتاج للراحة.

أعرف أن تلك الحالة، هي انسحاب عمرو مني بهدوء، بعضٌ منه يتسلل إلى نصائح عبلة والدته دون أن يشعر.

دوما تخبره أن ينفك عن شباكي التي أغزلها له، أن يكون رجلا حازمًا معي، ألا أجبره البقاء معي طوال اليوم بالمنزل.

"فك يا ابني، هي هتفضل مقعداك جنبها تعمل ايه!"

"أخرج مع صحابك، غير جو وفك عن نفسك»

عادت مناوشاتنا وعراكتنا الصغيرة اليومية، البهارات التي تشعل حبي له يوما بعد يوم، أنا أشتعل بالغيرة، وأشتعل باشتياقي له، ودائما ما تؤولني الأشياء الصغيرة أن أركض نحو ذراعيه.

كل الثغرات التي تتسلل هي من خلالها، أحاول بكل جهدي أن أغلقها، لتصارعني هي من ثغرة جديدة أخرى! تُميت ضميره إن استيقظ نحوي وشعر بتأنيب ضميره، تقنعه أن قسوته وابتعاده هو الصواب بعينه.

كم هو مُرهق أن أحب وأشتاق وأجذبه نحوي، وأنا التي تحتاج إليه بكل قوة، لم أستطع إفلات يدي التي تتألم من الجذب، كنت أريده بكل ما أوتيت من قوة.

"توصيات عبلة تصل أينما كنا!»

بدأت سلسلة جديدة من يوميات (حماتي وأنا)

- دينا إنتي المفروض تجيبي راتبك اللي بتشتغلي بيه، ده وقت بيتك، وانتي بتهمليه، وسايبه بنتك طول اليوم، كل قرش بيجي بيتنا أولى بيه وأنا اللي هخده وأحدد يتصرف ازاي.
- عمرو! أنا معنديش مانع خالص تاخد راتبي كله، بس عالأقل نخصص جزء من الراتب نشتري بيه مستلزمات بيتنا اللي لسه مخلصش، ممكن نجيب سجاد وستاير.
- لأ، مش مهم، ده بيت إيجار وفي غربة، بلاش نصرف في حجات تافهة.

غصة تقف بحلقي، وإعصار مدمر يضرب صدري، حينما ينجذب نحو حديثها الذي قطع المسافة من الإسكندرية وحتى دبي ليتعدى أعتاب بيتي هنا! لماذا يتعامل معي بنظرية «المؤامرة» دوما؟ أقنعته عبلة أنني أكيد له المكائد، وعليه أن يتفادى ما أخططه!

استقيظت ذات صباح، بعدما أوصلت جودي ابنتي إلى المدرسة، جلست وحيدة أمام الكورنيش، أبكي، وأنحب، وأناجي الله أن يرد لي عمرو، أن يُنبت الحب بقلبه من جديد، أن تنحل الغيمة التي أصبحت تقف فوق سمائنا، وتُهطل أمطارًا، لتزرع الصحراء الجرداء التي سكنت ضلوعنا.

رجعت إلى البيت مساءً أتحدث معه بلطف وحنان:

- عمرو ممكن تنتظم على الصلاة ونصلي سوا؟

- حاضر هصلي إن شاء الله

رغم أن عمرو من المصلين، ورغم حفظه لأجزاء كبيرة من القرآن، إلا أنه انقطع عن الصلاة، كنت اتعامل معه كطفل صغير:

- عمرو اتوضيت؟

- أيوة

أضع يدي فوق شعره لأجده جافًا، فأقول له:

- فين ياحبيبي الماية اللي على راسك؟ انت لسة متوضتش، قوم يللا نتوضى ونصلي.

أقضي قيام الليل وأنا أدعو أن يجعله الله مقيما للصلاة، أن يهديه الى طريق الصواب.

خرجنا ذات يوم نجلس بأحد المقاهي، لأجد النادل يضع له «شيشة»، احمرت أذناي وشعرت بالهواء ينفجر حولي من الغضب:

- من امتى ياعمرو بتشرب شيشة؟

- عيشي بقى الجو، هو مين هنا مبيشربش شيشة يعني؟

- إنت عارف إني ممكن أعمل كده أنا كمان عادي، بس أنا لأ ياعمرو، مش عشان اتحطيت في مجتمع منفتح يبقى هاخد منه كل حاجة، لازم يبقى عندي مبدأ ثابت.

- بتكبري المواضيع جدًا وهتقلبيها نكد.

- هتتعب ياعمرو!

- هي رئتي ولا رئتي زعلانة ليه؟
- لو تعبت أنا اللى هتعب وهتأّذي أنا خايفة عليك!

فكرت في تحليل تصرفاته، ربما يريد تعويض حرمان سنوات مضت، أن يجرب كل الاشياء التي لم تسمح له ضائقة المال أن يجربها، أن يشتري الاشياء التي اكتشف أن المال يشتريها، أن يحيا بالطريقة التي يعيش بها اصدقائه، كل ما أصبح يفكر به الماركات العالمية، والسيارات الفارهة، والسفر للدول الاوروبية، يريد أن يلمس النجوم ويعيش حياة جديدة لنفسه فقط.

كنت أتمنى لو كان يفكر بالأمر ببُعدٍ آخر، وينفق ماله لإسعاد من حوله، ومساعدة المحتاجين، لا يهمني إن كان سينفق كل ما يملك حتى آخر قرش، بقدر ما يهمني في أي شيء سينفقه!

شعرت بالضغوطات تواجهني من جميع الاتجاهات وأنني على وشك الانفجار، قررت ترك كل شيء، وترك عملي بدون سابق إنذارات أو طلب أجازات، وحجزت تذكرة للذهاب إلى مصر، كنت أحتاج إلى هُدنة بعد صراع نفسي مرير، بعيدًا عنه، لأعيد توازن الأمور من جديد.

***

تزامَن وجودي بالإسكندرية، مع خطوبة مي شقيقتي، كنت أشاركهم كل اللحظات وعقلي وقلبي لازال معلقا هناك بدبي معه. فكرت أن أهاتف والدته ربما أن أجد مدخلا إلى قلبها، حتى ترى بي ابنتها التي لم تُنجبها.

- يرضيكي عمرو يا طنط، مبقاش بيحب يقعد معانا، بيسيبنا كتير، وبيسمع كلام أصحابه، وأنا خايفة عليه حتى بقى بيشيش وأنا خايفة على صحته.
- بقولك إيه يادينا ياحبيبتي، لو إنتي شايفة نفسك كتيرة أوي على عمرو كده، سيبيه لأنك مش هتنفعيني لو جراله حاجة بعد الشر، ابني مش مبسوط معاكي، سيبيه واتطلقو.
- إزاي يا طنط بتقوليلي كده؟ أنا بكلمك عشان أنا وجوزي نحل مشكلتنا وتساعديني.
- أنا مش فاضية وعندي شغل استأذنك.

أغلقت الهاتف وضربت بجبهتي صاعقة مما سمعته للتو، لا زالت آثار كلماتها تؤلمني، لم أكن أعلم ما يحدث هناك بعد مغادرتي للدوحة، هل تركت لها عمرو فريسة لأفكارها الجحيمية؟ جلست أفكر حتى شروق الشمس بكلماتها وأنا أحدث نفسي:

"ياترى الأحسن أكون جنب عمرو وهو بالحالة دي؟ ولا أبعد عنه وهو تايه وضايع كدا، حتى لو كان في أسوأ حالاته، حتى لو بقى شخصية تانية وجاله زاهيمر وفقد الذاكرة مثلا، عايزاه يا دينا ولا هتضيعيه منك، أيهما أقل خسارة لي؟»

كنت أشعر بالتعب النفسي والأرق المزمن، ومي شقيقتي تشعر بآثار الحسد من بعد خطبتها، فجلبت لي والدتي شيخًا ليقرأ علينا الرقية الشرعية، بدأ بعلاج مي بالآيات القرآنية وبعد أن انتهى من الورد القرآني والتحصين، نظر لي وقال:

- ارجعي مكان ما جيتي يابنتي

- مش فاهمة حضرتك
- جوزك هيضيع منك، في ناس بتشجعه يبعد عنك ويشوف غيرك.

ثم أكمل كلماته بسؤال:

- في سوق عندكم في دبي؟

خرج صوت اندهاشي، وضعت يدي أمام فمي قائلة بصوت خافض:

- سوق نايف!

جائتني رجفة بجسدي، انتفضت مسرعة لأهاتفه:

- عمرو، إنت في سوق نايف؟

شعر بالصدمة في كلماته المتقطعة:

- إيه في إيه يادينا، إنتي شايفاني ولا إيه؟
- أنا اللي بسألك؟
- أيوة هناك مع صحابي مين اللي قالك؟
- ناس قرايبي شافوك هناك.
- مين قرايبك اللي شافوني يعني؟
- مش هتفرق هما مين، وبعدين ليه مستغرب مش إنت مع صحابك قلقت ليه؟
- مش قلقان ولا حاجة مستغرب اتصالك!
- متستغربش ولا حاجة بطمن عليك بس مع السلامة.

أغلقت مكالمتي واتخذت قراري بحجز تذكرة سفر نحو دبي، لم يكن تنبؤ ذلك الشيخ عاديا، لم يكن يعرفني ولا يعرف حتى من أكون!

رسالة من الله، تخبرني أن أعود الى عمرو الذي ينجرف نحو الهاوية.

***

دون أن أخبره كنت على متن أقرب طائرة متجهة إلى دبي، تلقى رسالة عبر الموبايل تخبره بدخولي مطار دبي، ومن ثم استقليت سيارة أجرة نحو المنزل وصعدت نحو الشقة، فوجدته جالسا في انتظاري.

كنت على أتم استعداد لسماع توبيخه عن أفعالي، أغادر وأعود دون علمه، أعلم أنني أتصرف بجنون، لكن جنوني ذلك نابع من جنون شخصيته الجديدة التي أتعامل معها.

شهر كامل نحياه بنفس المنزل، أعد له الطعام، وأرتب له ملابسه وأغراضه، ننام بنفس الغرفة ولا نتحدث، أحدثه ولا أتلقى منه ردا، كل ما أشعره هو الأسف على حبي له، وعلى قسوته التي مكنته من الامتناع عن حديثي والنظر بعيناي، مقدرته على النوم دون أن تتخلل أصابعي خصلات شعره، كيف قسى إلى ذلك الحد؟

أعلم أن شيئا ما يحدث دون علمي، أعلم أن عبلة لها يد خفية بما يحدث لم أتخيل يوما أنها ستؤثر بحياتنا إلى ذلك الحد، وقد فعلتها من قارة أخرى تبعد عنا الاف الكيلومترات.

أصبح يهتم بملابسه أكثر من ذي قبل، يعود متأخرا دون مبررات لتأخيره، أسأل فلا يجيب، ثم أمتنع عن السؤال لعله يأتي دون سؤالي، ليت الحياة روتينا مملا فقط، لكان أهون عما يحدث معنا تحت سقف واحد.

فعل شيئا لم أكن لأغفره، أخطأ بحقي وبحق قلبي معه، عمرو في طريقه لفسخ إقامتي بدبي، كان يريد أن ينتقم لكرامته مني، يريد أن يذيقني مرارة طيش أفعالي حينما سافرت دون علمه. كيف يفعلها؟ يريد أن ينفيني من حياته هنا؟ يريد أن يتخلص من وجودي بجواره؟ كيف أقنعته والدته بذلك؟ ربما أفعالي هي التي دفعته لارتكاب مثل تلك الحماقة!

"خنجرٌ قد استقر بقلبي بمنتهى الشموخ» هذا ما شعرته وقتها، بكيت ليلتها بجواره وأنا أرثي حالي معه، بكيت طوال الليل بلا صوت، حتى استقيظت على أعراض ذبحة صدرية، انتقلت إلى المشفى، وتم عمل الفحوصات اللازمة، أخبرني الطبيب إذا تعرضت لذبحة اخرى ستضعف عضلة القلب، وسيكون احتمال عرضتي للإصابة بسكتة قلبية كبير، أخذت العلاج اللازم، وأخبرني ضرورة أخذ قسط من الراحة والهدوء وعدم التعرض للانفعال، يومها عدت للمنزل اشتد الجدال بيننا لم أخلد للراحة كما قال الطبيب، قلت له:

- عاوز تلغي إقامتي ياعمرو؟
- أيوة يادينا.

- نسيت كل حاجة بيننا؟ خلاص عاوز تمشيني من هنا؟ ها.. قالتلك إيه؟ قالتلك ترميني في مصر وتتجوز عليا عشان تكسرني؟ قولي إيه وصلنا لكده فهمني؟

كنت أقول تلك الكلمات بأعلى درجة في صوتي أقولها وأنا أمسك كل الأشياء الزجاجية التي تقابلني بطريقي وأحطمها بالأرض، أتحدث وأنا أصرخ وأتسائل:

- ليه؟ عملت إيه لكل ده؟ طيب طلقني ياعمرو، إذا كان ده هيريحك ويريحها، عشان هي ترتاح مني وأنا ارتاح من التعب دا، بس تغدر بيا بعد كل السنين اللي عيشناها دي وتطعني في ظهري وتستغفلني لأ ياعمرو!

ذهبت حيث تقبع مذكرتنا التي كنا نكتب بها ذكرياتنا ثم أشعلت النار وتركت النار تلتهمها كما التهمت قلبي حينما علمت أنه يخطط لنفيي خارج البلاد.

بتلك اللحظة شعر بفظاعة ما فعله، شعر بأنني قاربت على الجنون، كان يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، يحاول تهدئتي وعبور حُطام الزجاج المتناثر أرضا، يركض حولي ويعتذر لي بكلمات لم أكن أسمعها، يحاول إخفاق حريق النوت بوك، يحاول السيطرة على ما يحدث بالمنزل، يتأسف لي ويعانقني ولا أنا أستجيب لكلماته أو عناقاته، حتى خارت قواه من هول الموقف ليسقط على الأرض مغشيًا.

سقط قلبي معه، انتهت حالة جنوني بسقوطه أمامي، بكيت كثيرا بكيت وأنا أحاول لململة أنفاسه المتقطعه وإسعافه بالماء المحلى بالسكر والعطور ليستعيد وعيه بهدوء.

عمرو كان يعتذر ويقول لي:

- متسيبنيش، أنا آسف والله العظيم كنت عاوز أضايقك زي ما ضايقتني بس بحبك وعمري ما تخيلت أعيش من غيرك ومعرفش ليه بيحصل كل ده؟

- ششش ماتقولش حاجة خلاص، إهدا.. عشان خاطري إهدا.. كل حاجة هتبقى كويسة.

- مسامحاني؟

- مسامحاك ياعمرو، مسامحاك ياحبيبي!

استيقظنا صباح اليوم التالي، هاتفتني والدتي ووالدي ليطمئنوا عن حالي بعد علمهم بما يحدث وخصوصًا بعد مرضي، كان الجميع ينتظر قرار انفصالنا وعودتي للإسكندرية بكرامتي قبل أن يرسلني إجباريًا إلى مصر بعد إنهاء إقامتي، لكنني رددت على والدتي:

- إزيك يا ماما؟

- الحمد لله تمام

- عملتي إيه؟ قررتي هتيجي إمتى؟

- لا خلاص ياماما مش هاجي أنا عملت الفطار وقاعدين بنفطر سوا، أنا وعمرو هنكمل ومش هنسيب بعض.

- بتعملي كده ليه في نفسك؟ متستاهليش منه كده، جبلك ذبحة صدرية، إنتي حرة يا دينا.

أعلم أنها على حق، وأعلم أنني لم أكن لأغفر لشخص على وجه الأرض فعل كفعلته، ليس لسواد قلبي، ولكنني أحبه، أحبه جدا للدرجة التي تمنعني أن لا أغفر ذنب كذلك، سامحته دون أن أعاقبه كما كان

يعاقبني، دون أن أشعره بالندم والتوبيخ ليلتين، ولا حتى ليلة واحدة، حتى أنني لم أذكر ما حدث بعد ذلك كأنه لم يحدث من الأساس. ليته يعلم أنني أتبدل وأنا معه لشخص آخر، كل مبادئي وحدود شخصيتي تنهار فقط صوب حبي له.

هاتف والدته هو الآخر وأخبرها عن تطور أمورنا، أخبرها أننا لن نفترق، ولن ننفصل، أن راحته معي، وأننا سنكمل مشوار حياتنا سويا للأبد.

***

اقترب ديسمبر، وجاء عيد زواجنا، وأعد لي احتفالا مختلفا، كان يعتذر لي بطريقته البسيطة الرائعة، ويخبرني أنه لازال يحبني، ولا زال يحب اليوم الذي جمعنا سويا بنفس الطريق.

وتبعه يوم ميلادي باليوم الاول من يناير بالعام الجديد ٢٠١٤، أخبر أصدقائي أن يأخذوني خارج المنزل لتتسنى له فرصة تزيينه، كما يروق له؛ عدت مساءا لأجد زينة الاحتفال بكل مكان، وبالون من الهيليوم عليه عبارة "Happy Anniversary" وقالب كيك رائع مزين بالشموع عليه عبارة «what was still is" وزجاجة أخرى من الرمال الملونة تحمل نفس العبارة المكتوبة على الكيك.

يومها شعرت بعمرو عبد الستار ملك الاغريق الذي قابلته بحرم الجامعة، يحلّق حولي، يغمرني بالحنان والسعادة، أشعر به برفقتي فأستند عليه دون خوف، لا حروب من أجل استمالته، لا معارك من أجل عودته لي،

تعاهدنا بسلام ان نظل معا، لايفرقنا سوى الموت.

وأنا لم أكن صعبة الرضا، لا يهمني منه سوى أن يظل متكئا على قلبي وانا كذلك، لم يكن همي أن استمتع بعذابه، او أندمّه على خطأ وحيد اقترفه بحقي، سامحته من كل قلبي، طالما عدنا نعشق بعضنا والتقينا من جديد، فليذهب كل الماضي خلفنا برمته.

***

أصبحت نسمات الهواء باردة في يناير، عاد لينام بين ذراعي كالسابق، أترك اصابعي تتخلل شعره، وأتلو عليه آيات من القرآن، أدعو أن يهديه الله، أظل بجواره إلى أن يخلد للنوم العميق، لا أمل من الجلوس بجواره، لا أمل من تمشيط خصلاته، أدعو الله بكل جوارحي أن يهدي قلبه، أعلم أنه لا يفعل الكبائر ولا يرتكب ذنوبا كبيرة، لكنني غير راضية عن أفعاله الصغيرة، أريد أن أدفعه للانتظام في الصلاة بمواعيدها، أذكره بالصدقات، يستجيب لي مرات، ويتثاقل مرات أخرى.

كنت أدعوه في رمضان أن نصلي التراويح بالمسجد كما كنت أفعل، كنت أراه بوادٍ آخر مع أصدقائه، كنت أعلم أن محاولاتي معه للتعبد والتقرب ألى الله هي التذكير، وأنها يوما ستنبع من داخله «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء».

«اللهم أنر طريقه، وأره الحق حقا وارزقه اتباعه، وأره الباطل باطلا وارزقه اجتنابه».

كنت أعلم أن شيئا ما سيضيء قلبه يوما، أعلم أن أفعاله التي يتصرف بها عكس ما بداخله كل ما كنت أتحلى به هو الصبر والدعاء،

عدت لتدليل صغيري الكبير من جديد، أهتم بتقليم أظافره، وتهذيب شعيرات أنفه، تدليك قدميه بالماء الدافىء، وتنظيف أذنيه، و في مقابلاته الهامة كنت أصفف له شعره بالهواء الساخن، وكان يجلس لي بثقة تامة.

كان يحب أن يضع رأسه على ساقي ونحن نشاهد التلفاز مساءً، ويمدد بقية جسده على المقعد وساقه ممدة بخارج المقعد، أعبث بشعر رأسه، وأضع له ربطات جوجو الصغيرة، وأشكل له تسريحات، أشعر أنه مدللي، ويقول لي وهو يضحك:

- بتعملي فيا إيه يا مجنونة؟
- سيبني أعملك حجات يا لوله.

كانت جودي تكبر يوما تلو الآخر، وتزداد تعلقا به، كان يبتكر معها ألعابا يُضحكها بها، تلقي بنفسها بين ذراعيه بمجرد أن يأتي من الخارج.

يمسك بقدمها الصغيرة ويضعها فوق أذنه كالهاتف، ويقول: "ألو"

فتقهقه جوجو بأعلى صوتها، أصواتهم تُشعرني بالسعادة والألفة من أعماق قلبي، يركض خلفها وتركض خلفه، يذهبان فوق السرير ويقفز معها، جوجو تحبه، وهو يصنع كلمات بلغة خاصة بينهما يتحدثان بها، كان أطفال جارتي يحبونه أيضا، يمكثون بجواره ويلعبون ويتحدثون معه، الأطفال جميهم يحبونه، صدقت القول حينما أسميته «طفلي الكبير».

كان قد انتهى من المشروع التنفيذي الذي يعمل به، هو بنك تجاري بجوار المنزل، كان يصمم إضاءاته وكهربائه.

أخذني في وقت متأخر جدا من المساء لأشاهده، فقال لي:

ـ تعالي أوريكي شكل الاضاءات بعد ما خلصت وقوليلي رأيك.

وقفت على الرصيف المقابل للمبنى من الجهة الأخرى، وأضاء الأنوار جميعها.

شعرت بالانبهار حينما شاهدت صنع يديه يضاء لي خصيصا.

شعرت بالفخر به حقا قلت له:

ـ الله ياحبيبي بجد تسلم إيدك يجنن، انت تعبت فيه وربنا وفقك عشان كنت بتتقن شغلك

نظر لي بتفاخر ونجاح وهو يقول:

ـ عجبك؟

ـ أوي، أنا كنت متأكدة أنك قدها، وفخورة بيك ياحبيبي.

ـ الحمد لله، بصي هنا جمب البنك هيفتح حاجة، تتوقعي إيه؟

ـ صراحة مش عارفة.

ـ أنا متوقع إنها تكون كافيه أو مطعم.

ـ إنت أدرى طبعا ياهندسة.

قالها لي يومها، وتحققت تنبؤاته، وافتُتح "ستاربكس" هو ذات المكان الذي أكتب به خواطري إلى ذلك الوقت، هو ذات المكان الذي صنعه عمرو ولمست يده كل تفصيلاته.

مر شتاء دبي القصير، وجاء شهر مارس، شعرت بهواء الربيع ينعش قلوبنا، وجاء يوم ميلاده بالسابع والعشرين من مارس، لأحتفل به ككل عام، كل عام يزداد اتقاني لتجهيز الحفل بكل مفاجآته وتفصيلاته

الصغيرة، دائما أكترث بتعبيري عن حبي وامتناني لليوم الذي جاء به الى الحياة.

مرت أسابيع قصيرة، وجاء له عرض عمل بشركة أخرى بعرض راتب أكبر، بعد ما تشاورنا، قرر نقل كفالته بالشركة الجديدة.



"تأخذنا الحياة حيث لا ندري عبر منعطف
قاسٍ، فنجد أقدارنا تبدلت وانقلبت أقدارنا
رأسًا على عقب"

كانت مرحلة انتقالية من مرحلة الحياة الوردية والرغد والراحة، إلى حياة أخرى متعبة وغريبة الأطوار مع أعتاب ذلك العمل الجديد.

لو علمنا الغيب لاخترنا الواقع، ولكن كل شىء بقضاء، ليته لم يترك عمله، ليت كل شىء ظل على حاله، لكنه النصيب والقدر.

احتفالا بخبر العمل الجديد، قررنا الذهاب إلى شاطىء رملي يبعد عن دبي قرابة المائة كيلومترًا، كنا برفقة أصدقائنا، أخذنا أدوات الشواء، وأحضرنا مخيم للجلوس والتنزه حتى الصباح، كان الطقس حار وجاف جدًا، وهو يتوسط أصدقائه واقفًا بلا حذاء فوق الرمال الساخنة، يشوي الدجاج واللحم ويرتب الأسياخ.

أناديه وأقول:

- عمرو، البس حاجة مينفعش تقف حافي الأرض سخنة عليك.
- طيب شوية وهلبس اقعدي بس حضري الاطباق الاكل قرب يستوي

لم يستمع لكلماتي، وجاءت تحت كعب قدمه شظيه صغيرة من الفحم تتوسط الرمال، وهو واقفا عليها دون أن يفرق بينها وبين حرارة الرمال المرتفعة جدا، ظلت تأكل بجلد قدمه السميك، حتى اخترقته تماما واستقرت لتص إلى العظام، حينما شعر بالحرق كان الألم وصل أقصاه، كان ألم مفاجىء ومبرح وغير محتمل، أخذت قطع من الثلج الموجود بالآيس بوكس ووضعتها فوق الحرق العميق.

لم نستطع الذهاب لأقرب مستشفى أو مركز طبي لبعدنا عن العاصمة وتواجدنا باطراف البلدة على الشاطىء والرمال، استكملنا اليوم وهو جالسا يشعر بالألم، وانا لا أحتمل تألمه، أمسك به طوال الوقت، حتى أن أحد أصدقائنا التقط لنا صورة، وأنا أقف بجواره وهو ممسك بيدي التي وضعتها فوق رأسه؛ ذلك الحرق الصغير اللعين، قلب حياتنا رأسا على عقب.

بعد أن ذهبنا إلى المنزل، تعاملت مع الحرق بلطف، بكريم ملطف للحروق، وتضميد، لكن مواقع العمل تحتاج إلى حذاء من نوع خاص وهذا الحذاء يحتاج الى جوارب سميكة ليتفادى حرارة الأرض.

- لازم تاخد أجازة يا حبيبي، شوف شكل الجرح النهارده إزاي؟ كل ما تعمل قشرة تتشال، وقفتك طول اليوم مش مخلية الجرح يلم بسرعة
- مينفعش مروحش الشغل، في مشروع لازم يتسلم قريب، حطيلي بس مطهر.
- إنت بتأذي نفسك علشان الشغل؟ لازم اهتمام بالجرح لأنه غميق جدا.
- لو فضلت تألمني هنروح المستشفى.

تمر الأيام وأغير له ضمادات، و أضع له مطهرات وكريم مضاد للبكتيريا، ولا تتحسن حالة الجرح إطلاقا:

- زي ما هي مبتخفش، مينفعش تلبس السيفتي لازم تفضل مفتوحة ومتهوية.

شهر ونصف الشهر قد مر على يوم الشواء، وانتهى من تسليم مشروعه، ولازالت قدمه تؤلمه، تأهب للعمل الجديد، انتقى أجمل ما لديه ووضع الكثير من عطره المفضل، ثم استيقظ قبل موعد العمل بقليل، ألقى نظرة على الجرح ووضعت له ضمادة جديدة، ثم انطلق لعمله الجديد ليستقبله مديرالمخزن قائلًا:

- إيه العضلات دي إنت بتلعب إيه؟

- حاليا مبلعبش، بس كنت بلعب سلة أيام الجامعة بس.

- طيب ورينا العضل ده بقى فالشغل يا باشمهندس....؟

صمت ثم أردف:

- ماتعرفناش بالاسم؟

- إسمي عمرو، عمرو عبد الستار

قالها عمرو وهو يشعر بغصة تقف بحلقة، واختناق يكمم صدره، رغم اعتياده سماع المجاملات الدائمة بمدح قوامه وجسده، إلا أن كلمات ذلك الرجل القصيرة قبض صدره.

آلام قدمه تزداد، وبعد أن أجرينا فحص بالمستشفى، وأشعة على عظام الكعب، شخَّص الطبيب حالته بالتهاب حاد، وكتب له مضادات للالتهاب، تناولها ولم تجدي نفعًا، مرت ستة أشهرعلى إصابته، والألم يزداد وبدأ الكعب في الانتفاخ والتورم، ولم يستطع اقتطاع إجازة للراحة.

ذهبنا إلى طبيب آخر بمستشفى طبي خاص، أخذ صورة x-ray أخرى، وجد بنهاية عظام الكعب شوكة عظمية، تحتاج إلى جرعة مكونة من ثلاث إبر كورتيزون تُحقن بالقدم.

وبحقن المصل الأول بقدمه، كان الألم فادحا ومبرحًا إلى أقصى الحدود، كاد يكسر يدي من قوة ضغطه عليها، صرخ من الألم كمن تصرخ بمخاض الولادة، والتالية بعد أيام كانت أشد ألمًا من الأولى قال وهو يتألم:

ـ أكيد مش صح اللي بيحصل، أنا مش هكمل الحقن دي.

قررنا الاكتفاء بذلك العلاج المؤلم، واستكمال الفحص مع مركز طبي آخر.

وصلت حالته إلى العرج أثناء المشي، وكان قد اقترب موعد زفاف شقيقه، واتفقنا على اقتطاع أجازة الى مصر سويًا لاستشارة طبيب عظام و حضور الحفل أيضًا، وحجز لنا تذاكر سفر الى مصر قبل مجيئه بإسبوعين، طوالهما كان يحدثني ويخبرني بألمه ومعاناته الشديدة يوميا.

***

قدومه إلى مصر كان لفحص قدمه أهم من حضور زفاف شقيقه، هاتف أصدقائه لاعبي كرة السلة الذين يتعرضوا لإصابات باللعب، لترشيح أفضل أطباء عظام بالاسكندرية.

كانت معه أظرف من صور الأشعات القديمة، وأشعات حديثة، يحتفظ عمرو بنسخة منها على هاتفه، ويتفحصها ويقترب "zoom in" من الصورة ويقول لي:

ـ شوفي ازاي المنطقة دي لونها متغير ورصاصي عن باقي العظم لونه أسود!

ـ فعلا، بس أنا الحقيقة مش فاهمة ده إيه؟

ـ لا مش طبيعي، في حاجة غلط.

ـ هنشوف الدكتور هيقول ايه يارب خير يا حبيبي

لم نكتفي بطبيب واحد، كنا في رحلة يومية لأفضل وأكبر وأعظم أطباء العظام، والآراء لم تتفق على تشخيص واحد للحالة، أحد الأطباء قال:

ـ "ده كسر إجهادي حصل نتيجة قفز من مكان عالي، ولازم تتجبس ست شهور»

لم تكن الإصابة نتيجة قفز من مكان مرتفع من الأساس، ولم يتعرض لما يشبه الكسر على الاطلاق، فذهبنا لطبيب آخر كان رأيه:

"احتمال يكون رشح صديد أوماية على العظم واحتمال يكون كسر إجهادي، الأفضل إننا نجبسها تلات شهور ونشوف.."

فتوجهنا لطبيب ثالث لعله يؤكد رأي السابقين لكن رأيه كان مختلفا قائلًا:

"الزوائد العظمية اللي تحت فالكعب ظاهرة في الأشعة ودي لازم تتشال هي المتسببة في الألم ده ولازم تكسبو وقت ومتستنوش لأن الألم هيزيد ومحتاج جراحة فورا»

لقصر أجازته، واقتراب موعد زفاف شقيقه، وأمله في نجاح تلك الجراحة التي ستستأصل آلامه وتنتهي تلك الغيمة من حياتنا، أسرعنا باتخاذ القرار بدخوله لجراحة مع أشهر وأمهر جراحي العظام بالاسكندرية، ذلك الطبيب الذي لن أسامحه إلى آخر يوم بعمري.

***

بعد ثلاث أيام، كان يرتدي الملابس الخضراء بالمستشفى، وغطاء الرأس، ويرتدي جوارب التعقيم، وتغرس بيده إبرة الكانيولا، كل ذلك يحدث كوميض البرق، كحلم سريع، يقول لي بالغرفة بالمشفى:

- تفتكري بعد العملية هلحق أشد حيلي وأقف في الفرح كويس

قلبي يؤلمني على ما يحدث! أصبحت كل أمنياته فالحياة أن يقف ويمشي بلا عرج، أجبته سريعًا:

- إن شاء الله هتكون كويس وأحسن من الأول كمان، هانت ونخلص من الوجع ده يا حبيبي

كانت المرة الاولى لدخوله غرفة العمليات، أشعر وأنه يجري عملية القلب المفتوح لا جراحة بقدمه، لم يسبق وأن ذهب لطبيب أسنان، أنا التي دخلت تلك الغرفة المعقمة عدة مرات، لم أشعر بالخوف مسبقًا كما أشعره الآن، كما أخبرتكم أنه قطعة من روحي، إنه «عمرو»؛ لم أجلس طوال ساعات الجراحة، بالممر أتمشى ذهابا وإيابا، أنتظر خروجه، حتى ظهر الطبيب وقال:

- الحمد لله تمام، هو في الافاقة وشوية وهيطلع، العملية مشيت تمام، وشلنا الزوائد العظمية وكان في عظم زيادة في الكعب والحمد لله كحتناه

- الحمد لله يارب، شكرا يادكتور

- خدي العظم ده حلليه وأشوف النتيجة أول ما تطلع بإذن الله.

- حاضر.

أخذت العينة وضعتها بحقيبتي، وانتظرت خروجه إلى الغرفة، ركضت نحوه أحدثه:

- عمرو حبيبي، إنت سامعني، حمد الله عالسلامة!
- دينا، إنتي فين؟
- أنا جمبك ياحبيبي.
- دينا فين؟

كانت هلوسات التخدير قوية، لم يأخذ تخديرًا بحياته كلها، كان مُتعبًا جدًا من آثار انسحاب التخدير من جسده، وأنا أجلس بجواره أمسح على رأسه، أعرف ما يلزمه بعد الإفاقة، طلبت كوبا من الينسون الدافىء، كنت أعلم ما يحتاجه من قبل ما يطلبه، دائما أسبق أموره بخطوة.

خرجنا من المشفى باليوم التالي إلى بيت أهلي بالإسكندرية، كانوا يفكرون بأمر الحقن العضلي، وكيف سينزل بمواعيد العلاج ليأخذها بإحدى الصيدليات، تفاجئوا أنني أستطيع اعطاءه الإبر، كان فخورًا بي ويشعر بالراحة لعدم احتياجه ليد غير يدي.

تزامن زفاف ابنة عمتي باليوم التالي أيضًا، لكنني ظللت بجواره أهتم بتناوله العقاقير بمواعيدها جميعا، لم يأت «عماد» شقيقه ليطمئن على أحواله بعد الجراحة، اكتفى باتصال تليفوني، لم تأتِ زوجة أخيه لتتعرف بنا، شعرت بالحزن والتساؤل تجاه تقصيره، كيف ينشغل عن عمرو وهو الذي ساعده بكثير من أمور زواجه؟

حتى وإن لم يساعده، غريزة الأخوة لا تحتاج لدوافع أو أية أسباب، لا أعذار لغياب الأخ في الظروف القاسية، كانت تأتي والدته فقط من حين لآخر، تتعامل معي بحساسية، وتشاهد حبي وتعاملي معه برفق وحنان، قالت لها والدتي بمنتهى العفوية:

- لحد امتى هتفضلي انتي ودينا كده يا أم عمرو؟

فترد بوجه عابس:

- بصي هو أنا كنت شايلة منها كتير، بس لما شفت هي بتعامل ابني ازاي خلتني أنسى أي حاجة قديمة هي عملتها.

رددت بداخلي بصوت غير مسموع:

- أنا بردو اللي عملت حجات قديمة، غريبة جدا والله!

كنت أود أن أخبرها، أن ما أفعله مع عمرو لأجله ليس لأجل رضائها عني، لكنني اكتفيت بابتسامة صغيرة مصطنعة علت شفتاي في هدوء ورتابة.

جاء يوم زفاف شقيقه «عماد»، ذهبت لإحضار نتيجة التحليل، قرأت التقرير لأجده «التهابات عظمية»، ذهبت سريعا للطبيب كي يزداد اطمئناني، فقال لي:

- الحمد لله ده شوية التهابات في العظم بسيطة، إنتي المفروض تقيمي الأفراح إنه مطلعش حاجة وحشة، المهم متخليهوش يعمل أي مجهود عليها، وميتحركش إلا فالضرورة القصوى
- الحمد لله يارب، طيب هو فرح أخوه انهرده فيها مشكلة لو راح؟
- مفيش مشكلة هاتي عكازات أفضل عشان ميحملش عليها، وياريت ميقفش ولا يمشي عليها كتير
- تمام يادكتور، استأذنك.

لم أعي وقتها كلمة «حاجة وحشة « ولم يخطر ببالي أبدا أن يكون شيئًا كالأمراض الخبيثة، لكنني كنت أريد الاطمئنان على طفلي عمرو

الذي لا أحتمل عليه الألم والوجع والعرج والحالة التي أصبح عليها مؤخرًا.

ذهبت سريعًا إلى بيت والدته لأخبرها بما قاله الطبيب، وجدت «عماد» يرتدي ملابسه ويستعد للذهاب إلى عروسه، طمأنتها واستأذنت سريعًا.

عدت للمنزل وأنا أشعر بالراحة من كلام الطبيب، ارتديت فستانا بسيطًا من اللون الوردي، وارتدى عمرو بدلته، وساعدته في تصفيف شعره وارتداء حذاؤه كي لا يؤلمه الجرح، واستند على عكازيه ليستطيع المشي، كانت المرة الأولى لخروجه من المنزل بعد الجراحة، كان يشعر بسعادة تغمره لزفاف شقيقه الوحيد، سرعان ما بدأت ملامحه تتغير بعد مجيء المأذون الشرعي، وتفويض أحد أقاربهم من الدرجة الثالثة أن يكون وكيلًا للعريس.

كنت أقرأ ملامح عمرو بمنتهى السهولة وأعرف ما يدور برأسه وما يشعر به صدره، حاول ألا يُظهر أي استياء، وعندما وجد عدم اهتمام من قِبل «عماد» تجاهه، اقترب من مكان تواجدهما وسط القاعة وأنا أقف بجواره، اتكأ على عكازيه رغم عدم قدرته على المشي واقترب نحوه ليكون بجواره، فتفاجيء بـ «عماد» يزيح وجهه ويقصد عدم مبالاته وانشغاله مع العروس، حتى قطب جبين عمرو كليا بنهاية الحفل وجلس بطاولة بعيدة ينظر في اللاشيء.

ذهبتُ إلى «عماد» أطلب منه المجيء على طاولة عمرو لإلتقاط صورة تذكارية لهما سويًا، أخبرته أن ساحة الرقص بالقاعة يتخللها الكثير من الفراغات، ومن الممكن أن تنزلق قدمه، أخبرته أنه غير قادر

على المشي، كنت أحدثه علَّه يفهم كيف يُرضي شقيقه الأكبر الذي ترك غربته واقتطع أجازة خصيصا من عمله، ونزل من فراش المرض بعد جراحة عميقة بقدمه، ليحضر حفله. وأخيرًا، وبعد أكثر من مرَّة أشير إليه بيدي لأذّكره، وبعد أن انتهى الحفل وبدأ الجميع في الإنصراف، جاء وحده دون عروسه ليأخذ صورة سريعة مجاملةً لطلبي المتكرر.

ذهبنا إلى الطبيب ليطمأن على حالة الجرح، أخبرنا أن الأمور تسير على مايرام، وأنه سيستطيع المشي بشكل طبيعي في خلال اسبوعين، وسيتلاشى التورم تدريجيا.

***

عدنا إلى دبي بعد أيام، وبدأت العمل بالتدريس لبعض طالبات كلية الهندسة، كان عمرو يمكث بالبيت فترات طويلة غير قادر على الذهاب للعمل، كان يُسند قدمه إلى أعلى، ويشعر بألم طوال الوقت، عدت يومًا من الخارج، أشعر بالدوار والقيء، ركضت نحو دورة المياة وشككت بالأمر.

بعد أن تفحصت عينة صغيرة من البول، جائتني النتيجة إيجابية، وعلمت بحملي.

كان التوقيت قاسيًا للحمل، والعرض الأكبر الملازم لي هو النوم لفترات طويلة جدًا، وأقتطع ساعات للذهاب لحصص الدروس، سريعًا ما أنهيها لأعاود النوم.

عدت يومًا لأجده يتألم بشدة ويصرخ قائلًا:

- مش قادر يا دينا، الوجع بيزيد مبيقلش، رجلي هتنفجر، هموت من الألم.
- حاضر هكلم الدكتور يا عمرو بسرعة.

أمسكت بهاتفي وأجريت اتصالًا لنفس الطبيب الذي أجرى له الجراحة:

- عمرو مش قادر يتحمل الألم يادكتور رجله بتورم، الموضوع بيزيد.
- ممكن يكون الجرح اتلوث يا مدام.
- يعني إيه اتلوث، الجرح نضيف ومش باين أي آثار إنه ملتهب وقفل، إيه اللي بيحصل عاوزين نفهم.

كانت ردوده غير منطقية، يتنصَّل فيها من مسؤوليته تجاه ما يحدث، يلقي بالأسباب على الإهمال وعدم الإهتمام بالجرح.

لم يكن لدينا خيارًا آخر سوى الذهاب لطبيب بدبي ومراجعة التحاليل والتصوير الأشعي الذي أجريناه قبل وبعد الجراحة.

اطَّلع الطبيب على التقارير وتعجَّب على تدهور حالته قال:

- الأشعات كويسة ومفيهاش حاجة، المفروض تكون بتمشي كويس دلوقتي

قال عمرو:

- بس أنا تعبان ومش قادر أمشي ومش فاهم في إيه، بس أنا هوريلك في الموبايل نسخة من الأشعة وعاوزك تركز هنا في لون العظم. ليه متغير الجزء ده عن الباقي؟

اطَّلع الطبيب على الجزء الذي أشار إليه وصمت قليلًا، ثم قال:

- أنا هابعتك على الاستاذ الدكتورأحمد منير يشوف الأشعة دي، هتصل أخدلكم معاد وسيبو رقم موبايلكم وهيحددو معاكم موعد قريب.

جاءت لي فرصة للعمل بشركة أمريكية، واجتزت المقابلة، وتسلمت العمل، كانت الأيام أشد صعوبة وأشد ضغطًا مع الإجهاد الذي أشعره في أيام الحمل الأولى، وتفاقم مشكلة قدم عمرو، جائنا موعد سريعًا بمستشفى حمد مع الطبيب أحمد منير بالساعة الخامسة.

ذهبنا بالموعد ودلفنا الممرات والمصاعد حتى وصلنا إلى غرفة الكشف، كان رجلًا قليل الكلام، سريع الكشف، يأخذ بحياته مبدأ «خير الكلام ما قل ودل»، اطَّلع على الأشِعَّة سريعًا وقال بكلمات واضحة:

- أنا عاوز تحليل صورة دم كاملة صايم، وتعملوا الأشعة دي

ذهب عمرو لقسم الأشعة وبقيت مع الطبيب استفهم ما يقصده فقال لي:

- بصي يابنتي دي حاجة من الإتنين، يا التهاب مزمن في العظم وهيفضل طول عمره يعرج، يا إما سرطان كل احتمال منهم ٥٠٪.

- نعم؟ إزاي هيفضل يعرج طول عمره يعني أكيد في حل يادكتور.

- إنتي سمعتيني، ولا مسمعتيش الجملة التانية؟

- سرطان إيه يا دكتور بس ـ صلي على النبي ـ أكيد التهاب مزمن وإن شاء الله نلاقيله حل.

قلتها بلهجة ساخرة وأنا أتألم وأقتل الخوف والرعب داخلي، أي سرطان يتحدث عنه؟ انتهينا من الفحوصات اللازمة وعدنا باليوم التالي ليطَّلع عليها الطبيب أحمد منير، فقال:

- للأسف الأمور مش واضحة، والأشعة مش مبينة أساس المشكلة، لازم يدخل عمليات وناخد عينة من فتحة الجراحة من العظم نفسه ونحللها.
- تاني جراحة وتخدير؟ طيب كان معايا عينة من الجراحة الاولى لما كنا في مصر، ومعايا النتايج، دي متنفعش يادكتور؟
- هنحتاجها أكيد بس لازم ناخد عينة تانية، حضرو نفسكم وناخد موعد في أقرب وقت.

كنا ببداية شهر نوفمبر، أخذنا موعدًا لسحب عينة، ودخل لغرفة العمليات مرة أخرى، ومكثنا يومين بالمشفى، كنت أعود بعد انتهاء دوامي بالعمل لاطمئن على حالته.

جاء يوم ميلاد جودي بالسابع من نوفمبر، فاحتفلنا بقالب صغير من الكيك بغرفته في المستشفى، كنت أحاول أن أخفف عنه ملل الوقت هناك، كان يكره رائحة التعقيم وفراش المستشفيات، جلبت له جهاز اللاب توب ليضيع عليه الوقت والملل، وأعود للمنزل في الثالثة صباحًا، لعدم إمكاني من المبيت كما كانت القوانين بالمشفى.

كنت انتظر تعافيه من بعد الجراحة، وانتظر نتيجة العينة بقلب مُرتجف، واستعلم عن الطبيب، ثم أسأله إن كانت هناك أية نتائج، فيخبرني انني دائما «مستعجلة».

هاتفنا بعد بضع أيام، وطلب مننا الحضور بغرفته في مستشفى حمد بالساعة السابعة مساءً، جاء صديقه أحمد يوسف بالسيارة وأوصلنا إلى المستشفى وصعد معنا بالطابق الذي توجد به غرفة دكتور أحمد منير.

ذهبنا إلى غرفته فطلب منا الدخول وحدنا وأن ينتظر صديقه بالخارج، دلفنا الغرفة ثم جلسنا أمام مكتبه، وذهب لاستكمال فحص مريض بغرفة أخرى مجاورة، تمرالدقائق بطيئة، شعرت بالتوتر الذي شعر به أيضا عمرو وقال لي:

- دينا هو اتأخر ليه؟
- مش عارفة
- طيب ليه قالنا ندخل لوحدنا؟
- متقلقش يا حبيبي إن شاء الله خير، هيجي ويطمنا إنت شايف هو غريب الأطوار ازاي!
- يمكن؟

بعد انتظار طويل مميت، جاء وجلس خلف مكتبه، وقال بهدوء وبدون تجميل للكلمات:

- دلوقتي نتيجة التحاليل طلعت.

سكت قليلا ثم استطرد كلماته قائلًا:

- عمرو عنده سرطان خبيث بالعظام والمفاصل والغضاريف، سرطان شرس جدًا وصعب، متواجد في الكعب ودا اللي بيفسر اللون الغريب اللي كان شايفه، والعملية اللي اتعملت في مصر دي أخطر مما يكون وغير آدمية أن دكتور يكحت ورم سرطاني وهو شاكك ١٪ احتمالية ان يكون ورم سرطاني.

صمت قليلًا، ونحن ننظر إلى بعضنا البعض ثم ننظر للطبيب لعله يغير مجرى حديثه، لعله يقول شيئا آخر بخلاف ما يتحدث عنه، وجد صمتنا طويلًا فاستكمل حديثه:

- رجلك لازم يتعملها بتر من تحت الركبة في أسرع وقت، وتبدأ في العلاج بالكيماوي فورًا.

عدت لأنظر له، لم يكن لدينا أي كلمات تقال، فقط احتقن وجهي بالدماء، فلاحظ عمرو شحوب وجهي وتغير لونه فقال:

- دينا لو حسة إنك هترجعي قومي اخرجي برة الاوضة.

لم أكن أشعر سوى ببرودة بأطرافي، وانهيار جسدي تدريجيًا، لا أعلم أن كانت الدماء تتصاعد نحو رأسي بالغليان، أم تنسحب من كل أعضائي فلا أشعر بأطرافي، لا أعلم طبيعة ما يحدث لي، كلمات الطبيب كانت صدمة أفقدتني الشعور والنطق.

استجبت لكلمات عمرو، لكنني لم أكن أرغب في القيء كما قال، انتفضت من مكاني وفتحت الباب و خرجت من الغرفة، ونزلت الدرج سريعًا إلى خارج باب المشفى أمام عشب أخضر بجوار شجرة، كان الجو مساءًا وكل الاشياء تدور من حولي، جلست على ركبتي، وفتحت يدي وأنا انظر للسماء ودموعي تنهمر دون أن أشعر وأقول:

- إنا لله وانا اليه راجعون، يارب

واستطرد:

- عمرو؟ سرطان؟ عمرو هيقطع رجله؟

في الواقع إنني لا أعِ متى نزلت إلى الأسفل، ومتى جلست على العشب، كيف تركت عمرو بالأعلى، لا أعلم إن كان الوقت المناسب للانهيار والبكاء أم لا، هل كان عليَّ أن أخبره أن كل شيء على ما يرام؟ ما هذا الهراء والكذب؟ أي شيء سيكون على ما يُرام بعد أن أصابه السرطان. حملت قدماي من على الأرض وصعدت سريعًا حيث تركته، قابلني صديقه بمنتصف الممر يسألني:

- في إيه يا دينا مالك؟ عاملة كده ليه؟
- عمرو عنده سرطان يا أحمد!

تركته ودخلت إلى الغرفة، لأجد الطبيب أحمد منير يكتب له تقريرًا، مدَّ به إلي ثم قال:

- دي تحويلة لمستشفى السرطان «مستشفى الأمل»، هتبدأوا تتابعوا من انهردة، وربنا يقويكوا.

***

الطريق إلى المنزل كان يتضاعف حوالي الخمسون ضعفاَ، وعمرو يجلس بالأمام بجوار صديقه،و أجلس أنا بالمقعد الخلفي، جميعنا صامتون، الأرض تتمدد من تحتنا، والوقت لا يمر، الكون كله متوقف عند نفس اللحظة، كلمات الطبيب تدوي بأذننا جميعًا، ننظر من الزجاج، نرى الأشياء ضبابية، كأِننا انتُشِلنا من أرض الواقع إلى أحد الكوابيس المزعجة.

وصلنا أمام البيت، لا طاقة لي أن أمسك بمقبض الباب وأحركه، شلل بجسدي كله، شلل بألسنتنا جميعًا، فتحت باب السيارة ونزلت

منها، تبادلنا النظرات في صمت، ثم توجهنا إلى باب البيت، وانطلق صديقه أحمد بعيدًا بسياراته.

أدرت مفتاح الشقة، انطلق عمرو نحو فراشه، وجلس ممددًا ساقيه أمامه، فجلست بجواره على ركبتي، أراقب ردة فعله، أراقب دموعه الواقفة بمنتهى الثبات في مقلتيه، طوبي للرجال الذين يقاومون الدموع حفظا لكبريائهم وشموخهم.

لم يكن وقت الكبرياء، لم يكن وقت الكرامة، لكنه ظل ينظر إلى ساقه اليمنى، تلك التي وُلدت معه وكبُرت معه، وساعدته بمباريات كرة السلة، تلك التي قاد بها أول سيارة، و ذهب بها إلى مواقع العمل المُختلفة، تلك التي قادته إلى صالات مطارات طرابلس ومطار الإسكندرية وبرج العرب ودبي أيضًا، كيف سيودعها إذن؟ كيف ستُقتلع من مكانها، ليتكيف على العيش بدونها؟ كيف سيصبح عاجزًا، ويستند على الأشياء والأشخاص ليتلاشى السقوط؟ كيف نألف أحد نعم وفضل الله علينا دون أن نشعر بعظمتها إلا حينما نفقدها؟

ابتلاء عظيم، كان ينظر لها يودعها ويحفظ شكلها التي ستصبح خلال أيام ذكرى.

ذكرى!

أيمكن أن يعيش أيام أخرى طويلة ليتذكر؟ ليست فاجعة فقدان ساقه وحسب! إنه مريض سرطان، كم شخص على وجه الأرض يتعافى من هذا المرض اللعين الخبيث؟

كانت عيناه تلمعا كالزجاج، وانا أخاف عليه أن يتهشم من قوة الثبات، تحدثت قائلة:

- عمرو، رُد عليًّا، إنت كويس صح! أكيد في حاجة غلط هنشوف دكتور تاني

قلتها وصوتي يستجدي البكاء، النحيب، الصراخ والانفجار للسكوت والتماسك وأخيرا خرج كل الحزن الذي يسكن صدري بصوت عالي ودموع تنهمر فوق وجنتي:

- أصل مينفعش انت ياعمرو، انت لأ!

أقتربت منه وأنا أعانقه بقوه، أبكي وهو يربت على ظهري قائلًا:

- معلش يا دينا، معلش.
- معلش إيه؟ معلش إزاي؟ أنت لأ، يارتني كنت أنا وانت لأ.
- بعد الشر عليكي يا حببتي.
- ابعتدت قليلا وأمسكت بجانبي رأسه وجسدي كله يرجف، قائلة:
- مش هنستسلم، هتخف، وهتبقى كويس، هنشوف حل تاني، اكيد مش هو دا الحل.
- الحمد لله، الحمد لله.

كنت آخذ رأسه على صدري ويخرج صوت البكاء عُنوة من أعماقي، فيجذبني إلى أسفل ثم يأخذ رأسي على صدره لأهدأ، كانت همومه التي يحملها أطنانا، أثقلت جسده، وجعلته ثابتًا في مكانه لا يقوى على المقاومة أو الانهيار.

ثباته كان يمزقني، كنت أبكي فقط، وهو يقول لي كلمات الاطمئنان والتهدئة، كانت المرة الأولى أن يحدث هذا المشهد في رحلة مرضه، وكانت الأخيرة، لم يحدث وأن فقدت السيطرة على مشاعري مرة ثانية، كل مُجريات الأمور تباعًا كانت تُجبرني على التحمل والقوة والصبر.

تذكرت أن والدته تنتظر هاتفنا للاطمئنان على نتيجة العينة، كنت أعرف أنني لن استطع التماسك أمامه، وان الذي أفعله سيضر بحالته النفسية، لا أريد تكرار ما قاله الطبيب وابلاغ شخصا آخر على مسمعه، فتحججت له بخروجي لشراء خبز من الماركت بالقرب من المنزل، كنت أريد الهروب قليلا، واحاول استعادة سيطرتي على دموعي.

- "اللهم الصبر والثبات"

قلتها بصوت خفيض..

خرجت إلى الشارع، وهاتفت والدته جائني صوتها مرتعب، لسماع صوتي قالت لي:

- عمرو فيه إيه يا دينا؟

- عمرو عنده سرطان، وهياخد كيماوي، ورجله هتتبتر يا طنط!

انهارت أيضا دون وعي، صراخها كان مُفزعا، مزق صدري لألف قطعة، فجائني صوت عماد شقيقه:

- في إيه يا دينا سرطان ايه؟

- عمرو عنده سرطان ياعماد، الأمر لله، عمرو هيقطع رجله.

- اهدو طيب، بتعملوا كده ليه في نفسكم، هتتحل ان شاء الله.

وليتني أحمل ثباتًا وهدوءً كهدوء شقيقه.

عُدت من الخارج، وجدته جالسًا كما كان، قلت له بنبرة صوت بها أمل:

- أكيد إن شاء الله هنلاقي حل، مش هنقطعها، وبعدين في ناس كتير بتخف من السرطان ياعمرو صح؟

نظر لي وابتسم ابتسامة وجع، ثم قال:

- مين بيخف من السرطان يا دينا!

- قول إن شاء الله أملنا في ربنا كبير، وهيشفيك بإذن الله

- الحمد لله

كلمته التي ظل يرددها طوال ليلتنا، " الحمد لله «.

***

لا أعلم كيف استيقظنا باليوم التالي، ولا أعرف من الأساس كيف خلدنا للنوم، لا أتذكر سوى أن هذا اليوم صنع منا شخصين آخرين جدد، كل شيء كان مختلفًا، مذاق الإفطارغريب، رائحة الهواء أكثر غرابة، المطبخ لا أعرفه، بل أن هذا البيت ليس بيتي، حتى ابنتي وجهها بدا غريبًا لي، أنظر إلى المرآة فأتعجب من ملامحي أيضًا، استيقاظي من النوم يبدو مُنهكا ومُتعبا أكثر من أي يوم مضى، كل شيء أصبح غريبًا بين عشية وضحاها.

منذ الصباح الأول بعد تلقينا الخبر، وأنا أشعر أنني دخلت بآلة زمنية عبر زمن آخر، زمان سيء، لا يُشهبنا، ولا يشبه أيامنا، ومجبرين على التأقلم معه.

أشعر أن يد خفية تسللت من بين ضلوعي، وأمسكت بقلبي، وقبضت عليه واعتصرته عن آخره، حتى انقبض واختنق، وظل على هذا الحال.

سكوت يلازمني وأطرافي ترتجف، فقدت السيطرة عليها، لكن المقاومة كانت أمرا محتومًا أمامه.

قررت ألا يُعاد ما حدث بالأمس، ألا تتكرر نوبات بكائي وانهياري مرة أخرى مهما حدث.

كان النهار داكن، وكلماتنا قصيرة، اقترب مني ثم قال:

- دينا أنا عايزك تبقي جنبي، أنا هطلب منك كتير، عايزك تبقي قادرة تقفي أودامي لأني هستمد منك قوتي، سامحيني لو بشيِّلك فوق طاقتك.

هززت رأسي موافقة لما يقوله وأنا انظر في بؤرة عينيه، وكأنني أتعرف عليهما للمرة الأولى، وقبَضت يد خفية على قلبي قبضة مؤلمة، حينما خطر ببالي أن تلك النظرة ستكون يوماً «ذِكرى».

انتشر الخبر بسرعة كبيرة ما بين أصدقائنا وأقربائنا، الهاتف لا يكف عن الرنين ليلا نهارًا، جائنا أصدقاء عمرو وزوجاتهم بالبيت يتسائلون:

- في إيه؟
- سرطان ازاي ياجماعة؟
- انت متأكد من نتيجة التحليل.

حالة استغراب تُخيِّم على الجو العام، مشدوهين جميعًا رجالًا ونساءً، حواجبهم تقف في أعلى جبهتهم، مفتوحي الأيدي، يتسائلون في دهشة، وليس لدينا إجابات منطقية للرد عليهم سوى ما نعرفه.

كان علينا أن نُنهي مرحلة الإندهاش والصدمة، وندلف الى مرحلة العلاج، و مرحلة الوعي لكل ما يحدث، يجب ألا أقف مكتوفة الأيدي وانتظر موته، يجب أن أبذل قُصارى جهدي ليُشفى «عمرو».

ذهبنا إلى مستشفى الأمل لعلاج السرطان، وتم فتح ملف بإسم عمرو عبد الستار، قدمنا الأوراق اللازمة والبطاقة العلاجية والشخصية، وتم تسجيل مواعيد الزيارات وفقًا لنظام المستشفيات بدبي.

جاء أول موعد، ودخلنا نتفحص ممرات المشفى، عمرو ذو القوام الرياضي الممشوق الحاصل على ميداليات البطولة في كرة السلة، في طريقه إلى رحلة العلاج من السرطان وبتر ساقه اليمنى.

المرضى على الحالة التي نشاهدها بإعلانات التلفاز، بلا شعر أو رموش أو حواجب، المرضى يكادون أن يتساقطوا كأوراق الخريف، عبارة عن عظام يكسوها لحم أصفر شاحب، والمرافقين معهم أشد وجعًا وكربة، ينتظرون انتهاء جرعات تُدَس بعروقهم، أملًا في شفائهم.

دلفنا إلى غرفة الطبيبة المختصة، كانت تشرح لنا الحالة، كأبجديات لغة جديدة، كعالم جديد يدعوننا لاعتناقه بالإكراه، قالت:

- ”سرطان عظم وغضاريف“ وهنستخدم نوع معين من الكيماوي مع السرطان ده، أول جلسة هتكون الأسبوع الجاي ان شاء الله.

ناولتنا كتيبات صغيرة ثم قالت:

- ضروري تقروا الكلام ده، لازم نكون فاهمين الكلام ده كويس، ربنا معاكم.

كانت الكتيبات تتحدث عن السرطان، وعن طبيعة الكيماوي، وما بعده، وضرورة تعقيم المنزل والحمامات، عن نوع الأكل المناسب لما بعد الجلسة.

تفحصناه سريعًا، دون رغبة في الإنخراط بمعلومات أكثرعن هذا العالم المجهول، نعلم أن كل شيء سنستكشفه بأنفسنا.

كانت رائحة الهواء بالمشفى تُشعرني بالقيء، وحاسة الشَّم لدي قوية جدا بشهوري الأولى، لكنني علمت ان تلك الرائحة ستظل عالقة بأنفي حتى نهاية حملي.

بعد أن قرأت التعليمات وحفظتها جيدًا، أعددت المنزل بالمعقمات، الأرضيات معقمة، والملابس معقمة، حتى قطعة الصابون معقمة، طهوت الخضار على البخار ووضعته بالقدر وتركته لحين عودتنا.

"اليوم الأول بالكيماوي"

أعددت حقيبة صغيرة بها منشفة وحذاء مفتوح وبعض الملابس القطنية، وتوجهنا لغرفته وفراشه المعد له، استلقى نصف جالسا، وانا بجواره أقول له:

- اجمد بقى يابطل، انت قوي ياحبيبي، ماشاء الله جِسمك رياضي ومش ضعيف، إن شاء الله مش هتتعب زيهم، إنت قدها صح.

كان مُمسكا بيدي، وعيناه لا تنظر لشيء سوى عيناي التي تشع منهما الخوف الذي أخبئه بين حروفي، عيناه لا ترمشان، لم تتحركا صوب شيء بالغرفة سواي.

ـ يلا هروح أشوف الدكتور وأجي.

أمسك على يدي بقبضته قائلا:

ـ دينا اقعدي قدامي ماتقوميش.

ـ ثواني بس.

ـ متقوميش ومتسبنيش، هُما هيجو خلاص.

وضعت يدي الأخرى فوق يده، أحتضنها وطمأنها، نعم سأظل بجوارك ولن أتركك.

مرَّت الدقائق، وكان يجري المحلول الأصفر بعروقه، دقائق أخرى معدودة وكان لونه يتغير ويشحب كلون الدواء الذي يسري بالأنبوب الرفيع، بدأ العرق يتصبب من جبينه، بل من جميع جسده، يشعر بالغثيان، يشعر بالرغبة في الذهاب لدورة المياة، وقدمه تؤلمه فيتعكز على جسدي الصغير الذي يحمل طفلا آخر صغيرة، أحاول إسناده للذهاب والرجوع، ويده معلق بها العقاقير، كنت بمرحلة اللاشعور واللاستيعاب، القسم الذي نمكث به يفصله ستائر قماشية عن أسِرَّة أخرى بها مرضى يتألمون، ويسري بأوردتهم عقاقير الكيماوي أيضًا، صمت رتيب يغطي المكان يتخلله آهات مُتفرقة، وكأن رائحة الموت تطفو على المكان.

كنت أنظر لعقارب الساعة بطريقة لم أعهدها من قبل، أحصي الثواني المتبقية التي تفصلنا عن باب الخروج من ذلك المكان، أربعة

ساعات بدقائقهم بثوانيهم بالأجزاء الصغيرة من الثواني، حتى خرجنا إلى الهواء الطلق، الى أرض الله الواسعة.

جلس بالمقعد الأمامي بالسيارة مستلقيًا عن آخره بوضع النوم، وأنا أقود نحو المنزل، انظر للطريق وللسيارات وللإشارات، أقود ببطيء شديد كي لا تُزعجه اهتزازات الإطارات العنيفة، وعيناي معلقة به، طوال الطريق وهو يشعر بالغثيان، والأكياس الفارغة بجواره، رُبما كأعراض شهور الحمل الأولى، كالحموضة التي تقف بالحلق، يُتمتم كلمات تخترقني قائلًا:

- تعبان يادينا، مش قادر.. جسمي بيوجعني.. عايز أرجع.
- معلش ياحبيبي قربنا نوصل، استحمل، إن شاء الله بالشفا يا حبيبي.

حينما عدنا للمنزل، شعرت أنني خرجت من هذا الباب بشخص، عدت له بشخص آخر.

كان مُلقى على المقعد كخرقة بالية، وأنا أهرول لأحضر له الطعام، وكم العقاقير الذي سيتناوله، حتى أنني نسيت أن أخلع حجابي وملابسي، اقتربت بأول ملعقة من الطعام المسلوق قائله:

- لازم تاكل ياحبيبي، الدواء كتير وتقيل عليك.

يشيح برأسه يمنة ويسرة قائلا:

- ريحة الأكل وحشة مش طايقه.
- مينفعش ياحبيبي كل على مهلك بس.
- جسمي واجعني، ريحتي وحشة ومش طايقها ريحة أنفاسي بشعة.

كانت الرائحة تُطبق على صدره، يكاد يُجن منها، يريد التخلص والهرب منها، لكن كيف سينسلخ من جسده وجلده؟ الرائحة عالقه به لأنها اختلطت بأوردته وجزيئات جسده.

غثيان وقيء طوال اليوم، وأنا أجلس بجواره أبكي بلا دموع وأصرخ بلا صوت، هكذا تعاهدت مع نفسي، وعاهدته أن أبقى قوية مهما كان الأمر.

أصبحت رحلات الكيماوي بحياتنا هي رحلة العذاب، نحصى الأيام والساعات مُنقبضي القلوب من اقتراب موعدها، يخرج منها كخرقة متعبًا، وبمجرد أن يسترد أنفاسه، نعود إلى الموعد التالي من جديد.

اضطررت إلى طلب أجازة أخرى، حالته كانت لا تسمح ببقائه بالبيت بمفرده، كنت أنتقل ما بين البيت ومحال الأغذية الخضروات وزيارات المشفى، حتى شعرت بالإجهاد، وأعراض الحمل تزداد يوما تلو الآخر، هاتفت والدي أستنجد به ليرسل لي شقيقتي تساعدني بالمنزل وتساندني في أيامي الصعبة.



"وقفة شكر لكل شِدة تعيد ترتيب
الأشخاص بحياتك"

كان لدينا قائمة بمواعيد جلسات الكيمو لمدة ستة أشهر يتخللها بالمنتصف جراحة بتر الساق، لم أترك محاولة لإخفاق تلك الجراحة إلا وفعلتها، أعلنت مستشفى الأمل عن زيارة طبيب أورام عظام قادم من بريطانيا، فهرولت لأخذ موعد، وبعد ان اطلع على التقريرات والفحوصات قلت له بالانجليزية:

- أريد أن أجد حلا آخر غير البتر، أرجو أن تساعدني لنجد علاجا بديلا، إذا كان العلاج في السفر لأي دولة بالخارج، فنحن على أتم الإستعداد لذلك.
- عزيزتي دينا، أقدّر جهودك من أجل الحفاظ على ساق زوجك، لكن ليس لدينا الكثير من الخيارات، هناك جراحة تُصنَّف كالبطولات، ستستهدف بتر كعب القدم، وترقيع بالكعب صناعي، لكنها ستؤثر بخطواته طوال عمره وتصيبه بالعرج، وسميت «بالبطولية» لأن احتمال عودة السرطان بعد التعافي بنسبة ٧٠٪ في خلال سنة، علامَ المجازفة بانتشر خلايا الورم؟ بالإضافة إلى أن القدم الصناعية التي سيستخدمها بعد البتر، ستساعده على المشي بصورة طبيعية أفضل، وكثير من فاقدي السيقان استطاعوا ممارسة رياضتهم المفضلة من خلال الأطراف الصناعية.

أخذت نفسا عميقًا، وعلمت أنه لا خيار آخر لإجراء تلك الجراحة التي ستقتص منه أغلى ما يملك، كان استسلامي أمر لا أرغبه، لكنني أخفقت في كل محاولاتي، و سلمت لقضاء الله وقدره.

بدأنا بفحوصات ما قبل الجراحة، كنت جالسة مع الطبيب أحمد منير نتحدث، قلت بتوتر:

- البتر بيكون لحد فين يادكتور؟
- لحد تحت الركبة.

صمت قليلا ثم قلت:

- مينفعش نقطع القدم بس؟
- يابنت الحلال، إنتي بتفاصليني في إيه؟ هي نفس الأدوات اللي بقطع بيها تحت هي اللي هقطع بيها فوق، دا مش باختياري، دا عشان معايير وأطوال الأطراف الصناعية المتعارف عليها عالميا اللي هيلبسها.
- ولو قطعنا لفوق الكعب بس؟
- مفيش طرف صناعي بيتركب من الجزء ده للأسف.

أصابني الإحباط، كنت أتفاوض في الجزء المبتور، رغم علمي بعدم جدوى محاولاتي، لكنني أشعر بإرضاء لضميري حينما أخطو خلف محاولاتي جميعها.

عدت من الخارج وجدت عمرو جالسًا يتفحص الانترنت، انحنيت فوقه أقبل رأسه ثم جلست بجواره، وقلت:

- لولا حبيبي بتعمل إيه؟
- تعالي يا لولو أوريكي شفت إيه.
- وريني.
- ده طرف صناعي من ألمانيا من أحسن الأطراف الصناعية اللي اتعملت، مناسب لأنشطتي وسني ووزني، تعالي كمان شوفي يوتيوب، إزاي في أشخاص قادرين يعيشو بيها وبيمشو بيها طبيعي جدًا.

- جميلة يا حبيبي جدا، نجيبها ان شاء الله.
- غالية جدًا للاسف يادينا ب ٤٥ الف درهم.

صمتْ قليلًا لأفكر أنه إذا كان السبيل الوحيد لشرائها هو أن أحفر بباطن الأرض واستخرج منها المال سأفعلها بلا تردد، سأشتري له تلك القدم الصناعية التي ستعوضه عن قدمه التي سيفقدها.

هاتفت أبي بمصر قلت بلا مقدمات:

- بابا، عاوزة أبيع شقتنا
- إيه يا دينا الجنان ده بس.
- بابا أنا هبيع الشقه عشان نقدر نجيب الطرف الصناعي لعمرو، فداه أي حاجة مقابل خطوة يخطيها بالرجل دي، كفاية هيتقطع رجله دي أغلى ما يملك وانا هعمل اي حاجة عشان اساعده ميحسش بالعجز.

كنت أبحث بشتى الطرق، واستجمع كل أفكاري لسداد ثمن الساق، كنت أنظر لساقي بتعجب وأردد: سبحان الله!

كنت أنظرلساقي وأتعمد تغطيتها وتلاشي ارتداء الاشياء القصيرة بالمنزل، وأفكر.. كيف سأعيش بساقين وعمرو بساق ونصف!

هاتفت صديقه المقرب وأخبرته عن رغبتي في شراء طرف صناعي ألماني له، أخبرته عن عدم امكانيتي لاستكمال ثمنه، بسرعة البرق كان الخبر منتشر بين أصدقائه، واستطاعوا استكمال ثمن الساق قبل التحاقنا بموعد جراحة البتر.

شعرت بالارتياح قليلا، وسددنا المبلغ لمركز الاطراف الصناعية بألمانيا، واتفقنا على الموعد المحدد لاستلامها بعد الجراحة، ثم بدأنا الاستعداد لتوديع ساقه المؤلمة.

كانت مناعته منخفضة بسبب جرعات الكيماوي، فتأجل موعد الجراحة أكثر من مرة، واضطُّر للحجز في غرفة عزل بالطابع الرابع بالقسم الرجالي.

كان من قوانين المشفى هو امتناع وجود مرافقين بغرفة العزل، كنت أشاغبهم، وأناقشهم طيلة الوقت أنه لا جدوى من منعي للبقاء برفقته، أخبرتهم انني سأظل بجواره، كنت وقتذاك بشهري الخامس بالحمل، وكنت ارتدي سويت شيرت وبنطالًا لعمرو، ولاتساع ملابسه على جسدي كانت تخفي كل معالم الحمل. يوما ما شدد مسؤول القسم وقال لي:

- من فضلك لازم تمشي، مينفعش تفضلي هنا.
- أنا مش همشي يادكتور، جرُّوني وخرجوني برة المستشفى لو تحبوا، لكن أنا هفضل جنب عمرو طالما بتنفس وعايشة مش هسيبه ولا دقيقة واحدة.

ربما أن الطبيب رفق بحالي، لمس الحب الذي أحبه له، شعر بالترابط الغريب الذي يربطنا، كنت المرافقة الوحيدة والسيدة الوحيدة التي تنام برفقة مريض بهذا القسم.

لم يكن لديهم فراش للمرافق بجوار المريض، كان فقط مقعد كبير، كنت أختطف ساعات للنوم قصيرة جدا، يتخللها زيارات وفحوصات من الأطباء.

قال لي عمرو ذات يوم:

- دينا روحي عشان ترتاحي حرام عليكي نفسك.
- مش هروح يا عمرو أنا مرتاحة هنا.

يطالبني بالمغادرة، وأنا أعلم أنها كلمات مبتذلة من وراء قلبه، وأن كل حديثه مفتعل ومتصنع، وأنه لا يشعر بالاطمئنان والراحة سوى بوجودي برفقته.

كنت أغادره ساعات قليلة لإحضار أشيائه والاطمئنان على جودي، وإحضار الطعام، كنا طوال اليوم نتحدث، بالأخص أنا من تتحدث، أصبح لدي القدرة على الإلمام بشتَّى الموضوعات، وتجديدها، بل وتصنفيهم واختيار نوع الموضوعات الشيقة التي شَغَفَ بالاستماع إليها، وينفتح باب وراء باب للحديث، كان يرد أحيانا، وأحيانا يظل صامتا يستمع فقط لصوتي وانا أتحدث، يخبرني أن صوتي يُشعره بالأمان ويربت على قلبه بهدوء.

كنت ما بين الثرثرة والحديث الطويل، أخبره أنني أحبه، ثم أقول:

- إيه القمر دا ياحبيبي.

يبتسم بعناء ثم يقول:

- حواجبي وقعت وشعري وقع ورموشي وقعت وبقيت ولا سبعين سنة، ولا حتى فيا حيل أرفع إيدي، وبتقوليلي إيه القمر دا؟
- عارف ياعمرو؟ والله العظيم إني بحبك ويوم ما حبيت شكلك عشان حبيت روحك، أنا لسه شايفة روحك فشايفاك زي القمر.

لم أشعر بالإستياء من شكله الجديد على الاطلاق، كنت أعشق النظر له كما كنت، فقط ينتابني الحزن على حاله وما آل إليه بعدما كان جسده رياضي وكان يرتدي أجمل الملابس ويهتم بمظهره وتسريحة شعره ونوع عطره وسيارته، فقط يحزنني أنه لا يستحق ذلك الركود الذي أنهك جسده، أما عني فلازلت أحبه بكل تفاصيله وبكل أحواله.

كان قد تحدد موعد البتر بالرابع عشر من يناير، جائه اتصال من شقيقه عماد، قال عمرو بصوت مطمئن:

ـ عماد بيتصل، شكله عرف بمعاد البتر.

ـ طيب كويس أوي يارب ييجي ويكون معاك!

جلست بعيدا لأتركه يتحدث على راحته، وأنا أشاهد ملامحه من بعيد، صمت طويلًا ثم قال:

ـ حاضر يا عماد، حاضر هشوفلك حاضر، سلام.

ثم أغلق الخط ونظر إلى اللاشيء صامتًا، وأنا أنظر نحو عينيه اللامعتين، أحاول تفسير الجُمل القصيرة التي قالها، أنتظره يقص ما قاله لكنه ظل صامتًا، فقلت:

ـ خير ياعمرو؟ عماد عاوز ييجي صح؟

ـ أيوة

ـ طب مضايق من إيه؟

ـ هو هيقدر ياخد أجازة إلا في يناير، وعاوزني أعمله زياره عشان يجي وأشوفله على شغل...

صمت و حملت ذاتي نحو النافذة، وانفجرت باكية.

بكاء مرة أخرى، بكاء نادر وفريد من نوعه، كانت المرات التي أبكيها أمامه قليله جدًا، كنت دائما ما أبكي تحت المنزل وتحت المشفى بالسيارة، أنفجر باكية وأُخرج كل ما يحويه صدري، ثم أهدأ وانتظر حتى تعود ملامحي لطبيعتها بعد الانتفاخ والاحمرار، ثم أظهر أمامه بمنتهى الثبات والاتزان والانطلاق، حتى لو كلفني الأمر ساعات.

لكنني بكيت تلك المرة من الألم الذي يشعره هو، تألمت لقلبه الذي شقه حديث شقيقه، كانت دمائي تغلي، وترتفع نحو عيناي ورأسي، قال:

- دينا!
- بص بقى من غير كلام كتير، أنت لو عملتله ورق الزيارة أنا همشي من دبي، يا أنا يا هوا في البلد دي.

صمت الكلام في عنقي، لكنه لم يكف عن الضجيج في رأسي، أتساءل بحديث نفس:

"بدال ما يقول أروح لأخويا في محنته وبتر رجله، وأشوف مرات اخويا الحامل التعبانة"

- خلاص يادينا، متعيطيش أنا عارف أن دمك محروق عشاني، بس مين قالك إني هعمله كده؟
- متأكد؟
- أيوة متأكد، ومتزعليش كل واحد ليه دماغه وطريقته، إحنا مش محتاجين حد الحمد لله.

اقتربت منه، فربت على كتفي، وهو يقول:

ـ معلش ياحببتي، معلش..

بعد أن هدأت باليوم التالي، هاتفت والدته لأخبرها:

ـ عملية عمرو اتحددت يا طنط خلاص، أرجوكي حاولي تيجي تكوني جمبي إنتي عارفه هو محتاجلنا قد إيه!

ـ والله يا دينا صعب إني آجي وأسيب المدرسة، أنا استلمت إدارة المدرسة بشكل مؤقت الفترة دي ولازم أكون متواجدة، لأني غالبا همسك الإدارة، ممكن شوية وأقدم طلب وأحاول آجي.

أغلقت الهاتف وأنا أضرب بكفاي عجبا على ما يحدث، غير طبيعي أن يكون الدم الذي يجري بعروقهما واحدا، لا اصدق أنه مكث بين أحشائها تسعة أشهر، الكل يفكر بأموره الخاصة فقط، كان عليها أن تركب صاروخا لتأتي لا طائرة فقط.

أنا التي اقتطعت أجازة فورا دون تفكير مسبق، بيتي أصبح فوضي، والأحمال تزداد علينا، كنت أتمنى لو تأتي، كنت أبحث عن قشة أتمسك بها، كنت أنتظر أحدًا يأخذ بأيدينا في تلك المحنة العصيبة، كيف يتخلون عنه بتلك السهولة؟

"يوم لا يُنسى.. وكل ما هو قادم تواريخ لاتُنسى أيضًا"

كانت السادسة صباحًا يوم ما قبل الجراحة، دخل طاقم كبير من الأطباء يرأسه الطبيب أحمد منير، ليتفحصو أطوال الساق وإجراء فحص شامل.

كنت بوضع القرفصاء على المقعد وفوقي غطاء لا يوحي لهم بوجود شخص بالغرفة، فحينما شعرت بأصواتهم رفعت الغطاء فجأة، فهرعوا من وجودي، فقال الطبيب أحمد منير:

ـ إنتي إيه اللي بتعمليه في نفسك دا؟ إنتي حامل؟ المفروض تروحي البيت وتنامي، مينفعش أبدًا كدا حرام عليكي نفسك.

قالها بنبرة الأب لا الطبيب، لكنه كشف عن سر الحمل الصغير المختبئ خلف الملابس المتسعة، كان الجميع يتهامسون ويتعجبون من حملي مع كل أفعالي الجنونية التي ستودي بحياتي الصحية إلى الإنهيار.

بمساء ذلك اليوم كان الألم غير محتمل، كان الورم وصل أقصاه، كانت ساقه أشبه بساق الفيل، مؤخرًا كان حينما يجلس بحوض الإستحمام الممتلىء بالماء تطفو قدمه على سطح الماء، كنت أتوقع أن العظام تلفت وأصبحت كالقطن مثلا!

أستند على مرفقيه وهو ينازع الألم ويصرخ:

ـ اقطعوها خلاص مش قادر اتحمل الألم فظيع!

وأنا أمسك برأسه وأهرول نحو الطبيب ليزيد جرعات المسكنات كالمورفين والترامادول وأشد أنواع المسكنات التي لم تعد تكفي لمنع الألم.

بعد أن أخذ جرعة أخرى من المسكن، هدأ وخلد للنوم، التقطت آخر صورة لقدمه، ثم أضفتها الى مجلد «Foot story" "حكاية قدم" الذي أنشأناه بعد إصابته بالحرق يوم الشواء، الذي كان يحوي على صور للجرح منذ البداية، ومقارانات ببداية تورم قدمه والفارق بين القدمين.

جاء صباح اليوم الذي كنا نهاب مجيئه، لكنه كان آتٍ لا محالة، رغم مقتنا له، رغم إشاحة نظرنا وسداد آذاننا عنه، كان يوم له رائحة خاصة.

بصباح الرابع عشر من يناير، ارتدى الملابس الخاصة بالتعقيم والعمليات، وجاء التمريض لنقله من فراشه إلى السرير ذو عجلات ليُنقل إلى غرفة الجراحة، كان قلبي يخفق بشدة، والدم يهرب من أطرافي، لكنني لازلت أتماسك أمامه.

مشيت بجواره حتى باب الغرفة، ثم التقطت صورة لنا، لأنني أعلم أن كل لحظة نمر بها بتلك المرحلة هي لحظة ثمينة يجب أن تخلد للذكرى.

انحنيت وكشفت عن ساقه، وطبعت فوقها قُبله طويلة، ثم قلت لها بصوت هامس:

- اسبقيه على الجنة!

وقفت الدموع على مقلتا عيناي، ثم عدت لرأسه أُقبلها وأقبل يده وامسح على رأسه وأقول له:

- اجمد يابطل، كلنا مستنيينك، تقوم بألف سلامة.

جذبو أطراف السرير وانغلق الباب ورائه، سقطت الدموع الواقفة بعيناي، مسحتها وعدت للغرفة مع أصدقاؤنا المنتظرين هناك، ندعو له ونقرأ القرآن سويًا.

طال وقت الجراحة، أربعة ساعات ولا يزال بالغرفة، والوقت يتضاعف مئات المرات، أتخيل بكل دقيقة ما يجرى بالغرفة، أتخيل الأدوات التي يمسك بها الطبيب، أتخيل شق ساقه، أتخيل انفصال

العظام عن جسده، كأنني معه بالداخل، بل أن الخيال أشد ألما ووجعا لي، ليتهم تركوني معه أمسك بيده وأجلس بجواره.

أستعلم عنه كل دقائق، وأتسائل عن سبب تأخيره، حتى أخبرني أحدهم أنه بالإفاقة، ومن خلف الزجاج شاهدت سريرًا يدفعه أحد الممرضين، فأشرت إليه قائلة:

- دا عمرو

قال:

- يمكن يكون مريض تاني، ممكن تستريحي وهيخرج بعد شوية باذن الله.
- لأ والله دا عمرو انا شايفة رجل واحدة بس اللى طالعة، دخلوني ليه من فضلكم.
- ماينفعش دلوقتي يا مدام ممكن تسريحي بس شوية وهيخرج.
- أرجوكم دخلوني هشوفه بس وهخرج.

سمحوا لي بالدخول، حينما أخبرهم أحد التمريض بالداخل أن المريض عمرو يهذي بالكلمات ويسأل عن زوجته، هرولت نحوه، وجدته لازال مُخدرًا، وتتصاعد الكلمات بثقل من فمه يقول بالانجليزية:

- أريد زوجتي، أين دينا، أريد دينا!

أمسكت بيده مُسرعه، واقتربت من أذنه:

- عمرو! أنا دينا.

ثم يعود ليتحدث بالعربية:

- عاوز دينا، هاتولي دينا.
- عمرو والله أنا دينا أنا جنبك، أنا موجودة.

- انتي دينا، طيب.

هدأ وكأنه تلقى جرعة مهدأ أو منوم، وسكن بعمق.

نظرت حوله شعرت بالهلع من كم الأجهزة المتصلة به، التقت عيني بموضع ساقه اليمنى التي أصبحت فارغة، فاقتربت من الغطاء أرفعها ببطء شديد، حتى وجدتها مبتورة ومحكمة الغلق بالقطن والبلاستر.

هرولت إلى خارج الغرفة تركت جميع الواقفين وركضت بعيدًا بالممرات والطرقات، حتى اختفيت عن أنظارهم، أركض بكل ما أوتيت من سرعة، أركض نحو اللاشيء، حتى خرجت إلى باب المستشفى الرئيسي، وجدت الأمطار تتساقط بغزارة، تركت جسدي الملتهب بالحزن يرتوي بماء المطر لعله يهدأ، ثم خارت قواي على العشب، وجلست بوضع السجود، أبكي وترتوي الرمال من دموعي ومن المطر.

ركض من خلفي صديقاتي وأصدقائه يحاولون اللحاق بي، أمسكوني من الأرض جذبونني لأعلى:

- استهدي بالله يادينا وقومي حرام عليكي إنتي حامل
- قطعو رجل عمرو، عمرو بقى من غير رجل، شايفين الجري اللي جريتو ده، عمرو مش هيعرف يجريه تاني أبدا.

قلتها وأنا أنحب، والجميع تتساقط دموعهم رثاءً لكلماتي.

نعم عمرو يحب الركض، كان يسجل المرتبة الأولى بسباقات الركض دائما، أصبح الآن عاجزًا، خطواته معدودة، بالكاد ستكون أقصى آماله هو دخول دورة المياة بلا معاناه، سيتخلى عن كل الأشياء التي كان يحب فعلها سابقا.

قال أحد أصدقاؤه:

- طيب يللا يا أم عمرو نرجع الأوضة، يرضيكي يرجع ميلاقكيش؟

نظرت نحو صديقتي وأومأت برأسي بالنفي، ثم شعرت بثقل رأس الجنين ينغرس في أسفل أحشائي، قمت مستندة على يدها، ولم أعبأ بالطين الذي كان يبلل ملابسي، وذهبت نحو الغرفة لأنتظر مجيئه.

***

دخل الغرفة حيث كان جميع أصدقائه وزوجاتهم يقفون معنا بالغرفة، جاء الطبيب مستاءً لهذا العدد ثم قال:

- مينفعش أبدًا اللى بيحصل دا، دا مريض سرطان و قاطع رجله ومناعته ضعيفة جدا.
- مش قادرين نقول لحد يخرج برة يادكتور، حاضر يطمنو عليه بس وينزلو.
- طيب ياريت اللي يطمن عليه يتفضل يخرج عشان صحته، دا جهاز متصل بالعصب المسؤول عن ألم رجله، أول ما يحس بوجع يدوس فورًا على الزرار دا، هينزل مخدر في وقتها، الألم هيكون شديد جدا وده طبيعي.

كان عمرو قد استعاد وعيه جزئيًا، وانتقل إلى فراشه، ثُم أحكمت غطاؤه كي لا يرى موضع ساقه، وجدته يناديني قائلًا:

- دينا!
- نعم يا حبيبي أنا هنا.
- إنتي كويسة؟

ـ الحمد لله أنا كويسة، إنت كويس؟

ـ أيوة أنا كويس، وريني رجلي يا دينا.

ـ طيب بس لما تفوق شوية هوريلك.

قال بصوت حازم وجاد:

ـ دينا! بقولك وريني رجلي، ارفعي الغطا!

كل من بالغرفة تبادلوا النظرات تأهبًا لرد فعله، رَفعت الغطاء، ثُم ألقى نظرة عليها وعاد للخلف مُتعبا، ابتسم ابتسامة هادئة ثم قال:

ـ الحمد لله، الحمد لله.

خيم السكوت على الغرفة، فشعر باختناق وتوتر، أراد التخفيف من حدة الموقف فقال:

ـ والله توقعت إنها هتبقى أقصر من كده، بس والله سابولي أكتر من اللي كنت متخيله.

تحول السكوت إلى صوت ضحكات وتعالت أصواتهم يحدثونه، وأنا أبتسم وتتملك قلبي غصة مؤلمة، وأتسائل هل تفكر ياحبيبي كالعادة أن تضحكهم وأنت بأصعب موقف بحياتك!

وضعت الغطاء فوق ساقه المبتورة كما كان، وجلسنا جميعنا حوله، سألته إن كان يشعر بألم قال:

ـ لأ مش حاسس بحاجة دلوقتي.

مر اليوم حتى أسدل الليل ستائره، وغادَرَنا الزائرون، الهاتف لم ينقطع رنينه، إلا عن رقم عماد!

بدأ الألم ينبض بساقه ليلا، ويزيد هو من الضغط على زر المخدر، وبدأت تحتبس السوائل في جسده وتزداد رغبته في الذهاب لدورة المياة، فكرت بالأمر وأخذت نفسا عميقًا، وقررت ألا أستعين بالتمريض كي لا يشعر بالحرج.

كان يساعدني بالاستناد على ساعديه، وأساعده بحمل الباقي من جسده ليجلس على المقعد المتحرك، ثم أدفع الكرسي ببطء بعيدًا عن بطني المنتفخ لنذهب إلى دورة المياة بالغرفة، ونتخطى العتبة المرتفعة بهدوء دون أن أُشعره بالألم، وأتفادى الاهتزازات التي تُحدثها الحركة التي تعود لساقه فتؤلمه بشدة، كنا نحاول وتستغرق منا المحاولة وقتا طويلا وجهدا مضاعفا، مقابل ألا يأتي أحدا من التمريض، ثم قال بصوت مرتجف:

- دينا إنتي حامل، ومعدتك تعبانة من أي ريحة كفاية عليكي ريحة البنج، هاتي حد من التمريض يساعدني.

رددت عليه بصوت يملؤه الحماس:

- بقولك إيه بقى، فكك من الكلام اللي إنت بتقوله ده، احنا مع بعض كده راجل لراجل، وأنا قدها وقدود ياهندسة، ومفيش غيري هيعملك كل حاجة.

ضحكنا سويًا، وكل منا يعلم أن ما وراء الضحكة حكاية أكبر، ومشاعر أعمق، انتهت فترة المُعاملة بيننا كزوج وزوجة فقط، أصبحنا صديقين من أسمى درجات الصداقة، وربما أخوة كاللذين جاءا بمشيمة واحدة ولهما نفس المصير، المهم أن الحواجز التي كانت تقف على خيط الحياء والخجل قد أُزيلت بالكامل، أصبحنا شخصًا واحدًا،

يتألمان بنفس الوجع، ينامان بنفس الطريقة، يشعران معًا، أكثر من ذي قبل، طورنا الحب بيننا لدرجة جديدة وفريدة من نوعها، كان حبي يقول له بكل بساطة:

ـ أنا ظهرك وسندك وقوتك لأخر نفس فيا.

دينا التي كانت تمشي بجوارك كطفلة صغيرة، وتعود بظهرها دون أن تلفت ورائها لتصطدم بالأشخاص والأشياء، فتمسك بها كي لا تصدمها السيارات وتقفز فوق المقاعد كالأطفال وأنت تقول لها: "اقعدي هتقعي"، وتُخرِج كابل الشاحن من فمِها كالأطفال وتقول لها: "بتتعملي ايه؟ هتتكهربي"، دينا التي كانت تتصرف بطفولة وعفوية قد انتهى دورها بالحياة، وبدأت دينا بمرحلة جديدة وشخصية أخرى لا تشبه القديمة على الإطلاق.

جاءنا شقيق والدته الذي كان يقيم آنذاك بدبي لتدريب فريق كرة سلة، يزورنا من حين للآخر، ويحضر معه وجبات الطعام من الخارج، قلت له يومًا بالطرقة الخارجية للغرفة:

ـ عمو صابر، كل الناس اتصلت بعمرو، وعمرو مستني تليفون عماد أخوه! ممكن تكلمه تقوله يتصل عليه عشان ندعمه نفسيا؟

ـ حاضر يا دينا.

كنت اسأله كلما يأتينا إن كان قد هاتفه أم لا؟ فيتهرب من إجابة سؤالي، ثم قال لي أخيرًا:

ـ بقولك إيه يا دينا، أنا كلمته أكتر من مرة، لو كان عاوز يكلم أخوه كان زمانه كلمه، سيبيه براحته.

صدمتني كلماته بالبداية، بدأت أضع الأشياء بموضعها الرئيسي، أنا كل ما يملكه عمرو، وهو كل ما أمتلكه، ربما لا نحمل نفس الصفات الوراثية، ولا نحمل نفس الدم، لكننا نحمل نفس الروح، وتوحدت القلوب ذات يوم، ثم انشطرت ليسكنا بصدورنا بنفس ذات المشاعر والصفات.

كنت أقاوم انعدام رغبته وشهيته بالطعام، بإعداد أصناف الطعام التي يفضلها، أعد له الرقاق باللحم المفروم، والملوخية والدجاج المقلي بالطريقة التي يحبها، نادرًا ما يشتهي صنفًا من الطعام وبمجرد ما يشتهيه، أهرول إلى المنزل لأحضره إلى غرفته بالمستشفى، أتذكر ذات يوم اشتهى «الكبدة» بالثالثة فجرًا، قلت له:

- هروح أجيب كبدة وأقليها وأجيلك ساعتين زمن وارجع.
- حببتي اعقلي واهدي، بقولك إني عاوز آكلها بكرة مش دلوقتي.
- لا طالما نفسك جتلها هتاكلها دلوقتي أكيد.
- خليها بكرة اسمعي الكلام.
- والله أبدًا، ما يهدالي بال ولا يغمضلي عين غير أما تكون آكلها.

أخذت السيارة ومشيت بحثًا عن أحد المتاجر الكبيرة، أُفتش عن قسم اللحوم، أغلب المحال كانت مُغلقة فجرًا، لم أبرح مكاني حتى وجدت "الكبدة" وعدت له بعد ساعات بها مطهية بالتوابل التي يحبها والسلطة والطحينة التي يشتهيها.

مر أسبوعين بعد الجراحة، وانتقلنا لمرحلة العلاج الطبيعي، كي يتعلم أن يمشي على المشاية قبل استخدام العكاز، قال له الطبيب:

- احنا هنبدأ نستخدم المشاية لفترة، إنت وشطارتك إنك تقدر تسيب المشاية وتبدأ تستخدم العكازات دي هتبقى نقلة هايلة لو قدرت.

"وهم ألم الطرف المبتور"

كانت الآلم في ساقه مازال كما هو، لازال يتجرع المسكنات بنفس الكميات، شعرت بالخوف تجاه ما يحدث، وخاصة بعدما استئصلوا الجزء المتسبب في الألم المبرح، كان يُخيل لي أنه سيشعر بالتحسن ويتخلى عن المسكنات القوية بعد فترة قصيرة من الجراحة.

استشرت الطبيب لنعرف ما سبب ذلك الألم الذي يلازمه ليلًا ونهارًا وكأن ساقه لازالت موجوده بعظامها التالفة، وأورامها المؤلمة، حتى أنه يخبرني أنه يغمض عينه ويشعر أن أصابع قدمه موجوده لكنه غير قادر على تحريكها قال الطبيب:

- تفسير اللي بيحصل ده اسمه «phantom pain" وهم ألم الطرف المبتور، أي حد كان عنده مشكلة في طرف في الجسم مُبرح وتم استئصاله، بيخلي المريض يفضل فترة حاسس إن الطرف ده لسه موجود بنفس الألم لمدة كبيرة، مش عاوز أحبطكو بس في ناس فضلت حاسة بالوجع عشرين سنة، وناس بتقعد ست شهور بس ودي تقريبا أقل مدة حصلت، عشان كده هنفضل نكمل المسكنات القوية زي ما احنا لأن

المخ لسة مستوعبش إن الجزء اتبتر فعليًا، ولا قادر يعترف إن الوجع مش موجود، لحد ما هتحس فجأة إن مفيش ألم وكده هتكون قدرت تقنع الخلايا الحسية اللي في المخ إن كعب رجلك الي كان فيه الورم مبقاش موجود.

خرج الطبيب ونحن نشعر بالتعجب، وكل ما نقوله:

ـ سبحان الله!

كان عمرو يقرأ بصفحات الانترنت مقالات بالإنجليزية عن حالات مشابهة لحالته، ولطول الوقت الذي يقضيه بالفراش صامتا، كان يقتل الفراغ بالتعمق بالقراءة والبحث أكثر، حتى توصل أن الحالة التي أخبرنا بها الطبيب هي حالة نفسية أكثر من أي شيء آخر، وإنها تحتاج إلى إقناع العقل ومخاطبته وتقبله واستيعابه إن تلك الساق لم تعد موجودة، وقتها سيتوقف الألم، تتراوح مدة انتهاء ظاهرة الفانتوم من ستة أشهر كحد أدنى إلى سنوات طويلة غير محددة.

ظلت الفكرة برأسه صباحًا ومساءً، يتحدث معي عنها قليلًا، و يختبر مدى تحمله بلا عقاقير مسكنة.

بالأسبوع الثالث بعد الجراحة، كان عمرو قد أقنع عقله تماما إنه لم يعد لديه ساق تالفة ومؤلمة، لم يعد يحتاج إلى العقاقير على الإطلاق، عقله استوعب الأمر وتجاوزه بثلاث أسابيع فقط! كم أنت عظيم يا عمرو، دائمًا ما كنت الأول في إحراز أهداف كرة السلة، والأول بالوصول في مسابقات الركض، ولازلت الأول وأنت ممددًا بفراشك تتصفح الإنترنت، نعم أنا محقة!، أثق بقدراته الاستثنائية وأعلم تمامًا أنه مختلف عن باقي البشر.

تجاوزنا مرحلة الإقامة بغرفة المستشفى، و صرح لنا الطبيب بمغادرتها والعودة للمنزل، أملى علينا جميع الإرشادات، كنت أتفحص كل التفاصيل التي يقولها الطبيب، كيفية استبدال الضمادات وتطهير الجرح، كيفية أعطاء إبر ما تحت الجلد التي وصفها له لتعزيز مناعته، كانت علاقتي الوحيدة بالإبر هي العضل التي سبق وتعلمتها بـ ليبيا من أجله، لكنني أضفت على مهارات تمريضي الكثير من أجله.

كنا قد هجرنا المنزل، عدنا وأصبحنا نقضي اليوم سويا، لاحظت تغيير سلوك جودي، شعرت بالتقصير والإهمال تجاهها، لكنني لم يكن لدي حل آخر، لا شيء بإمكاني فعله، لا شيء يمكنه أخذ وقتي من بقائي بجواره، لكنني أشعر بالخزي من تأخر نطقها، بل وصنع كلمات غريبة ولغة خاصة ملكها وحدها، كانت الجليسات اللاتي تقمن معها من مختلف الجنسيات، لذلك فقدت مهارات التواصل واللغة كبقية الأطفال في عمرها.

***

جاءت شقيقتي مي لتنتزع شعوري بتأنيب الضمير ليلًا نهارًا، لتبقى مع طفلتي التي فقدت اهتمامي بها، وبدأت بطني تزداد انتفاخا، تلك التي كنت أنسى وجود طفلة أخرى بها، وأنسى مواعيد زياراتي ومتابعتي، أصبحت حياتي حياة أخرى لا تشبه الحياة السابقة، حتى أن ملامحي لم تعد تشبهني قديمًا، لم أعد ارتدي ملابسي، أتذكر يوما قال لي عمرو:

- إنتي بقالك كذا يوم لابسة التيشترت، ده أنا عاوز ألبسه شوية بقى

ضحكت، وضحكت مي على ما أصابنا من جنون، أصبحنا نرتدي نفس الملابس، لم أعد أنظر لخزانتي وما تحويها من قطع وردية وحمراء وزهرية.

بتلك الفترة كنت أشد التصاقًا به، أجلس بجواره وأقضي الأوقات معه وانا اتشبع من وجوده برفقتي، لا زلت أتوق للشعور بالأمان معه، أصبحنا كالتوأمين المتلصقين، طورنا درجات الحب بيننا إلى درجات حب أسمى وأجمل وأشد ترابط.

أعلمنا الطبيب أحمد منير عن قدوم أحد أطباء الأورام من ألمانيا لفحص الساق المبتورة فور وصوله و قبل البدء في استكمال جلسات الكيماوي المقرر استكمالها بتلك الفترة، لاتخاذ قرار عن نوع الكيماوي المخصص للحالة بعد فحوصات الدم والتقارير.

تأخر مجيء الطبيب لظروف خاصة، ولم يستكمل جلسات الكيمو انتظارًا لمجيئه.

عاد شعر رأسه ينمو من جديد ولحيته وشاربه، بعدما افتقدناه، بعدما نسينا ملامحه القديمه، شعر بالسعادة لاستقرار حالته وملامحه نسبيًا، كان قد كره ملامح المرض والاصفرار على وجهه.

كانتا سعادة وراحة مؤقتين، لم يلبث أن يعتاد ملامحه، حتى جاء الطبيب، وأخبرنا ضرورة بدء الجلسات فورًا.

أصابه الإحباط، جلس على حافة السرير يقول:

- لأ مش عاوز كيماوي تاني، أنا بقيت كويس، شعري طلع وشكلي بقى طبيعي، أنا حاسس انى بقيت أحسن مش محتاج جلسات

- حبيبي مينفعش والله لازم تاخد الجلسات وتكمل علاجك
- شوفي شعري طلع ازاي، هيرجع يقع تاني!
- يعني هو هيتساقط للأبد؟ مهو مسيره هيطلع تاني يا حبيبي.
- بس أنا مش قادر آخد كيماوي خلاص، مش قطعوا رجلي خلاص، كفاية بقى عشان خطري.

كنت أشعر بنفس الاحباط الذي يشعره، وكأنني طالب تم اختياره عشوائيا بالفصل لتأدية اختبار صعب على غير استعداد.

كنا نسينا رائحة مستشفى السرطان، ورائحة البرياني «أرز مع دجاج أو لحم بتوابل هندية يُقدم للمرضى بالمستشفيات»، وقد عادت الابتسامة على ملامحنا، وعادت شهية الطعام من جديد.

انتفض عمرو متخذًا للقرار بصوت أكثر جدية:

- دينا خلاص أنا مش هاخد كيماوي تاني، ده قراري وبلغي الدكتور.

***

هاتفت الطبيب لأخبره بقرار عمرو، وبعد جدال طويل قال:

- براحتكم وأنتو أحرار في قراركم، بس اللي بيحصل ده مش صح أبدًا.

كانت الخطوة التالية هي تجهيزات الإستعداد للطرف الصناعي، عمل لينر عبارة عن طبقة سميكة جدًا يخرُج مِنها خُطَّاف من المعدن، ثم توضع قدمه بقالب من الجبس مُعد سابقًا، يتصل بالعمود المتصل بالقدم.

كنت أُشاهد تلك الخطوات وكل الأشياء المعقدة التي تمر بها عملية تركيب الساق الصناعية، أتعجب من إعجاز الخالق في خلق تلك القدم التي لا نشعر بقيمتها ونأخذ فائدتها كتحصيل حاصل، في قيمة الكعب والركبة والساق التي خلقها الله، وأن أغلى ساق صُنعت على وجه الأرض لا تصل لكفاءة الساق الطبيعية ولو عشرون بالمائة، أخبرنا الطبيب أن هناك قطعة كالأربطة تُكلف خمسة آلاف دولار فقط لتمتص الصدمات وقت نزول الدرج كي لاتنكسر الساق.

بعد كل تلك الأشياء، ذهبنا إلى المشفى لارتداء الساق، يصرخ ويمانع وضعها بالقالب، الألم كان مبرحا، لا يحتمل حتى لمس الجزء المصاب، حين فحصه الطبيب، اكتشف اصابته "بالايديما" وهو تجمع مياه تحت الجلد، كان من الصعب ارتداء أنسجة ثقيلة أو تغطيتها أو لمسها، فتم تأجيل تركيب الساق لقرابة الشهرين ونصف، رغم احتياجه لترك العكازات بشكل نهائي.

كان شكل الجزء المبتور ببداية الأمر مُربع، كان يجب أن تصل إلى الشكل المخروطي، وذلك عن طريق لفَّها بطريقة معينة قد اتبعها عمرو وبحث على الانترنت لكيفية فعلها بتلك الطريقة الاحترافية.

كان يهتم بالتفاصيل، وكان ذلك يُسرع من خطواتنا في المضي قدمًا، كانت كل زيارة لعمل قالب جديد نجد بها مساحة نهاية الساق تتضاءل، بكل مرة ننتظر ارتياح ساقه في القالب، لاعتماده كقالب نهائي.

كانت قد تجهزت ساقه لارتداء الطرف البدائي المؤقت كي يتدرب عليه، كنت أشعر بالحماس لرؤية عمرو يمشي من جديد حتى ولو على ساق صناعية.

حينما ارتداها وبدأ أول خطواته دون عكازين، شعر بالإحباط الذي علمت بعد ذلك أنه يأتي نتيجة لإخفاق توقع المريض عن المشي بشكل عادي وطبيعي كما السابق، لكن الحقيقة ان المشي يصبح أثقل وأصعب والشعور مختلف تمامًا عن الساق الطبيعية.

القدم ثقيلة تزن حوالي ثمانية كيلوجرامات إن لم تكن أكثر، الخطوة صعبة كمن يحمل قدمه بداخل البحر، لكنه كان الاختيار الوحيد المتاح لديه، والذي يجب أن يتأقلم عليه مهما كان الأمر.

كانت المعاناة الأخرى التي قابلها هي عدم المشي منذ وقت طويل، أدى لضمور الركبة، وكانت تحتاج لتمرينات لتعيد عملها من جديد، اشترينا اجهزة رياضية مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة.

كل مرة نبدأ بها مشروع جديد كنا ندخله سويًا بمنتهى الحماس، نقرأ عنه ونبحث عنه، نستكشف سويا أشياءً وعوالم لم نتوقع زيارتها أو طرق بابها من قبل.

بعد أن تفحصنا اليوتيوب وبعض التمرينات التي يجب اتباعها، كنت أجلس بجواره بالملابس الرياضية وبجواري زجاجة المياة، وأتقمص دور مدربة الرياضة، أعد له التمرينات، وأحفزه بالكلمات التشجيعية.

كلمات بسيطة كانت تشعره وتشعرني بالبطولة، نعم هو لازال بعيني البطل الذي يقاوم المستحيل.

كان من المفترض أن نتسلم الطرف الصناعي ببداية شهر أبريل، لكنني قررت بالسابعة والعشرون من مارس بيوم ميلاده سيرتدي تلك الساق الصناعية النهائية.

ذهبت إلى الشخص المسؤول عن تسليم الطرف قلت له:

- أرجوك اتصرف اعمل أي حاجة، مهو لازم يلبسها يوم عيد ميلاده.
- والله يا أستاذه ده شيء مستحيل مينفعش.
- مفيش مستحيل إن شاء الله، استعجل شركة الشحن، شوف حد يجيبها من المطار أي حاجة المهم توصل بدري عن يوم عيد ميلاده.
- مش عارف أقولك إيه.
- أرجوك متقولش، بس ساعدني نعمل كده.

كانت المهمة والخطة الثانية، أن أهاتف جميع أصدقاؤه القدامى، وأصدقاء العمل، وذلك من هاتفه الخاص، لأبلغهم عن موعد ومكان حفل عيد ميلاده كنت أريد أن يجتمع كل من يحبهم ويحبونه بهذا اليوم، كنت أريد أن يظهر بذلك اليوم مستندًا على ساقيه، كنت أريد أن يشع النور من وجهه والسعادة من عينيه، حتى ولو ليوم واحد فقط!

كان من الصعب جدًا التخطيط لكل تلك الأشياء دون أن يشعر ونحن جالسان بالبيت سويًا بلا عمل، كان كل حرصي أن يتم كل شيء بسرية كي لا يغيب عنصر المفاجأة، أتغيب عنه قرابة النصف ساعة، فيسألني:

- رحتي فين؟
- كنت بجيب برتقال وتفاح من الماركت
- نص ساعة بتجيبي الكيس الصغير ده؟ غيبتي قوي.
- جرا إيه بقى يا لولو، إنت ماسكلي الستوب واتش ولا إيه؟

ـ ولا ماسكلك ولا حاجة، غريبة يعني وواخده موبايلي.

ـ قلتلك إن موبايلي بيشحن وسبتهولك جمبك وخدت تليفونك عشان لو احتجت حاجة تكلمني.

ـ طيب تعالي اقعدي جنبي ومتقوميش، بحبك قعدة قدامي، بطمن ياستي.

ـ خلاص يا حبيبي بقى أنا جايه أقعد جمبك حالًا أهو.

يدق قلبي خوفًا من أن يكشف أحد خيوط المفاجأة، اتعامل بسرية تامة كما لو كان الأمر جاد جدًا.



"يجبر الله القلوب، وحينما يرضى الله
عن أمر، يسخر لك جميع الظروف حتى
يحدث»

جاء السابع والعشرون من مارس ٢٠١٥ ومن حسن حظ أصدقائه انه كان موافقًا ليوم جمعة، عمرو يعلم تمامًا أنني قد خططت لحفل ككل عام، يشعر انني أعددت له مفاجأة مختلفة لكنه يجهل ما أخفيه.

- صباح الخير يا حبيبي يللا الجو انهرده جميل والشمس حلوة عاوزين نخرج نحتفل على قدنا بعيد ميلادك.

- صباح النور، نخرج فين بس وازاي يا لولو، شايفة الرجل المؤقتة الى بلبسها بتوجعني قد ايه مش هتحمل، هانت كلها اسابيع ونستلم الرجل التانية يمكن تكون مريحة اكتر.

- طيب على راحتك، هروح اشتري طلبات كده وأجي ونقرر.

ذهبت لمركز الأطراف الصناعية، كانت قد أُعد لها القالب، وجاهزة تمامًا للارتداء، ثم عدت إلى المنزل سريعًا ممسكه بها بيدي وتعلو شفتاي ابتسامة عريضة:

- تتاتاا مفاجأة! رجلك أهي.

تقدم جسده إلى الأمام كردة فعل تلقائية، تعلو قسمات وجهه مفاجأة وابتسامة وسعادة ودهشة، انعكست سريعًا على ضوء عيناه، تأخرت كلماته التي وقفت بصعوبة على شفتاه ثم قال كعادته:

- إنتي ايه انتي! إنتي ايه بقى؟

اقتربت منه وناولتها له بيديه ليتفحصها وهو يقول:

- ازاي وامتى!

يهون متاعبي التي خضتها من أجل تلك السعادة في عينيه، من أجل نظرة الرضا، وابتسامة الفرح، من أجل أن يُتوجني بالبطولة قائلًا: "انتي إيه انتي".

جلست أقص عليه كواليس ما فعلته وهو يستمع لي بشغف، ويتفحصها بشغف.

- يللا البسها يابطل

ارتداها بسرعة وحماس، ثم قام أول خطواته بها، لاحظت رضاه التام عنها قبل ان أسأله وقبل أن يوصف شعوره، ثم قال:

- ياه يادينا، مريحة، وأخف من التانية بكتير، حاسس إني طاير بيها.
- الحمد لله يا حبيبي، يللا ننزل نحتفل بقى مالكش أي حجج
- مش للدرجة دي، الجرح بيألم بردو، بس أقل من الأول
- معلش هنحاول وحدة وحدة، يللا اختار تلبس إيه؟
- هلبس شورت
- !!
- مش مكسوف منها خالص
- اللي يريحك البسه طبعا

بالرابعة عصرًا كنا في طريقنا نحو المقهى، كل ما يشغل بالي أن يكون آخر صديق له قد حضر بالموعد الذي حددته لهم قبل مجيئنا بنصف ساعة كي أضمن وجودهم جميعًا بالإنتظار، أستعيد شكل الزينة التي جلست أشرف على وضعها بمساء اليوم السابق بعد أن ذهبت بكعكات الاحتفال قد تركتها منذ الأم.

بمجرد أن خطت أقدامنا المكان، شاهد الحشد الذي ينتظره في ذلك الركن المُزين بالبالونات، أخذت عيناه جوله من اليمين إلى اليسار بابتسامة دافئة، وشعور بالأمان لوجود كل اصدقائه يتساءل:

" إيه اللي لم الشامي ع المغربي!"

لم يحدث وأن اجتمع كل أصدقائه بمكان واحد وحدث واحد من قبل.

كانت مفاجأة عمرو لوجودهم رائعة، ومفاجأتهم بوقوفه على ساقيه مرتديًا الجينز القصير مفاجأة من نوع خاص، مفاجأة أسعدتهم وأبكت صديقه «مرعي» (الذي مكثنا ببيته بـ"ليبيا" وقت الثورة الليبية وتهجيرنا من طرابلس نحو مصر، والذي جاء للعمل بدبي بعد ذلك) كان يمسح دموعه قائلًا:

- ربنا يباركلك يا دينا بجد، أنا مش عارف أقولك إيه.

ثم أردف أحد أصدقائه قائلًا:

- احنا كنا فاكرين إننا جايين نعمل مفاجأة لعمرو، بس عمرو هوا اللي فاجأنا انه جاي على رجله.

انتهو من السلام والعناق، فقال:

- إنتي كل سنة بتعمليلي حاجة، بس السنة دي أنا فرحان وفخور بيكي بجد.

- إنت تستاهل أحسن حاجة في الدنيا.

قلتها بصوت خافت، ثم أردفت بعدها بصوت عالي مسموع للجميع:

- يلا هجيب التورتات عشان نتصور ونطفي الشمع.

كان عمرو قد غادر القيادة منذ تورم قدمه وحتى قبل اكتشاف السرطان، وتوليت من وقتها مهمة الانتقالات بسيارته القديمة التي اصبحت امتلكها، وظلت سيارته مصطفة مكانها بلا حراك حتى تلك الفترة.



"سأجعل كل الأشياء المستحيلة ممكنة، من
أجلك ومن أجل ابتسامة عيناك"

شعر بالرغبة في استعادة علاقته الوطيدة بسيارته التي هجرها بالعام الأخير بعدما كان يعتني بها للدرجة التي كانت تجعلني أقول «شوية وهتنيم العربية جنبك وتنيمني في الشارع ياعمرو».

كان من وقت للآخر يقف بالنافذة ينظر إليها بحسرة وتألم، بعدما اقتنى النوع المفضل الذي ظل يحلم به طوال حياته، أصبحت ساقه اليمنى التي يقود بها غير موجودة!

كان كلما يشعر بالضيق، يتمنى لو يخرج إلى الهواء الطَّلق وينطلق بها عبر الشوارع والطرقات، لكنه لم يعد يستطع فعلها، بعدما كان حرًا يجوب النوادي والأسواق والكورنيش برفقة أصدقائه.

كل ما كان يشغلني رضاؤه، كيفية أدخال السرور على قلبه، انتهى وقت المشاجرات الطويلة، والخصام بالأيام، حتى ولو حدث بيننا خلاف بسيط، كان ينتهي بمجرد أن تنتهى الدقيقة التي نتشاجر بها، لا وقت لتعبئة القلوب، لا وقت للغياب بالساعات والأيام، لا هدف نصب عيني سوى أن أستغل كل دقيقة يعيشها معي بسعادة ورضا وتحقيق ما يتمناه.

كنت أفكر أن نعدل سيارته لتصبح من ذوي الاحتياجات الخاصة، لكنها كانت ستتعرض لاستقطاع أجزاء منها وتغييرها، وذلك كان سيبخس ثمنها إلى الربع، فحاولت أن أجد حلا بديلًا، بعد بحث عبر الانترنت طويلًا، وجدت عبر الأمازون جهاز يمكن تركيبه بواسطة خبير بالسيارة لتحويلها ذوي احتياجات دون العبث بالمحرك والأجزاء المعدنية، لكنني لم استطع التوصل بسهولة ذلك الخبير.

كنت أقضي معظم مشاويري أثناء مكوثه بالمشفى لشراء أغراض المنزل بوقت الفجر بعيدًا عن زحام السيارات، واستغل وقت راحته ونومه للعودة إلى المنزل ومن ثم إلى المشفى مرة أخرى.

قلت يوما وانا أقود: «يارب الهمني ازاي أخليه يرجع يسوق تاني!“

كان الطريق فارغ تمامًا من السيارات، قفزت برأسي أحد الأفكار ثم قلت بنفسي:

- طب أجرب أسوق برجلي الشمال! لو عرفت أسوق بيها، أكيد عمرو كمان هيعرف يعمل كده.

ثم جلست فوق رجلي اليمنى لأتلاشى اختلاط الأمور، قدت باليسرى وأنا أشعر بالتعقيد والصعوبة وبطىء اتخاذ ردة الفعل نحو الدواسات، لكن الأمر كان غير مستحيلا.

بعد فترة شعرت بالأمر يسهل شيءً فشيئًا، أصبحت أتدرب عليه يوميًا بنفس التوقيت، حتى تمكنت منه وأتقنته تمامًا. صعدت إلى غرفته بالمستشفى قلت بلا مقدمات:

- عمرو حبيبي، هتسوق برجلك الشمال بدون ما نركب الجهاز فالعربية

- دينا سبق واتكلمنا فالموضوع ده قلتلك مش هعرف.

صمت، ثم قلت ونبرة صوتي تتغير إلى التشويق والإثارة:

- طيب على فكرة، بقالي كذا يوم بتدرب أسوق بالشمال، وطالما أنا عرفت أسوق بيها، يبقى أنت كمان هتعرف، ايه رأيك بقى!

تفاجىء بما قلته، وبعد اعتراضه، بدأ يفكر بالأمر، وتخلل عقله شعاع من الأمل، ورغبة في التحدي والمحاولة.

علمت أنه كان يمتنع عن المحاوله، كي لا يشعر بالعجز عن النجاح، فيصاب بالإحباط، بعد حديثي وتشجيعي له، أخذته ذات يوم ليرى قيادتي الحديثة بساقي اليُسرى، ثم وقفت على جانب طريق فارغ وقلت له:

- يلا تعالا سوق أنا واثقة فيك.

نظر لي باضطراب مختلط بالإرتباك والحماس، تبادلنا الأماكن، وتسلم المقود الذي لم أهجره منذ شهور طويلة وقال:

- دينا مش عارف أسوق بجد
- براحة حبيبي أنا كنت زيك وأكتر أول ما حاولت، ركز وهتعرف صدقني
- .....
- يلا ياعمرو برافو

ضغط على المكابح عن أخرها، فأوقف السيارة فجأة، فاندفعنا إلى الأمام، قال بعصبية:

- شفتي اللى هيحصل!
- هتعرف، والله هتعرف وهتتعلم مفيش مستحيل.

تذكرت وقتها المرة الأولى التي قاد بها عمرو سيارة، وكأنما يُعاد الزمن من جديد، جالسة بجواره وهو يتعلم القيادة مرة أخرى، وبعد قرابة الساعة من قيادته باليسرى في أرجاء دبي، تسللت الثقة إلى روحه، ثم شعر بالفخر والتجلي، وارتسمت وجهه ردة الفعل نفسها التي تعلي

شفتيه حينما ينجح بالأمر « yes I can do it“ « أيوة بقى انا جامد « لم يقلها لفظًا لكن ملامحه وابتسامته وردة فعله يده، كلها أشياء كانت تقول ما يريد قوله، كنت أراقب ملامحه في هدوء كما كنت أراقبها يوم اشترى سيارته وهو يتفحص أزرارها وخصائصها المتعددة، وكما كنت أراقبه بالمنزل حينما كان يلعب كرة القدم بالبلاي ستيشن،وحينما فعل ذلك، تأكدت أن الجزء مفقود من احساسه بالإرادة قد عاد كليا، شعر أن الإعاقة فقط بالعقل، بعدم المحاولة، الإعاقة ليست صفة ذميمة، الإعاقة هو عدم المحاولة وعدم المقدرة.

صباح اليوم التالي استيقظ بكامل نشاطه متجهًا نحو السيارة ليستعيد تدريباته بالقدم اليسرى، فقال لي:

- دينا، هنزل أسوق شوية.
- خليني أنزل معاك الفترة الأولى، عشان تكون مطمن لحد ما تبقى متمرس.

وباليوم الثالث، أصبح قادر تمامًا على القيادة وحده باليسرى وبمنتهى الإحترافية والتمكن.

هاتفت قسم تنظيف السيارات بالمُجمع السكني الذي نمكث به، لتنظيفها من الخارج والداخل، وتقديمها له عروسًا جميلة، ووضعت ملصقًا على نافذته، كتبت عليه:

”حمد الله على سلامتك ؟ وحشت عربيتك بقى»

قلت له:

- كفاية بقى وسيبلي عربيتي واركب عربيتك.

صاحبة كلماتي بغمزة وابتسامة.

اتجه خارجًا نحو موضع وقوفها الذي لم يتغير منذ شهور، وجدها نظيفة لامعة، وأنا أشاهده عبر النافذة، همَّ بفتح الباب فوجد الملصق الصغير، قرأه ثم ابتسم، ونظر نحوي وهو يعلم تمام العلم أنني أقف لأراقب ملامحه، فأشار بيده نحوي: «أنتي»، ثم تعجب بيده:»ايه“.

ضحكت وأنا أترجم كلماته بصوت مسموع:

- إنتي إيه انتي!

شعرت بارتياح، وكأنني أوصلت ولدي إلى بر الأمان بعد ما حصل على شهادته الجامعية.

***

كان من المفترض أن نظام موقف السيارات بالمجمع السكني غير محدد لسيارات معينة تجاه ساكني المبنى، وبعد أن اعتاد عمرو القيادة بساقه اليسرى، وألف ساقه الجديدة التي يرتدي أسفلها عدة طبقات في ظل درجة حرارة دبي التي تصل إلى الخمسين، كان يذهب لعمله ثم يعود إلى المنزل وهو يتألم من شدة الالتهابات الجلدية والتعرقات التي تحدث له، يكاد جلده ينسلخ من فرط الحرارة، كان يعود يوميا لأضع له الأدوية الملطفة، وأغسل له البطانات الممتلئة بالتعرق، وكان يزيد الأمر سوءًا بحثه عن مكان يصطف به سيارته، ويتصادف أن يجد مكانا بآخر المجمع، فيضطر للمشي مئات المترات كي يصل إلى منزلنا.

شعرت بمعاناته، فذهبت يوما إلى إدارة المجمع السكني، أقدم طلبًا لإتاحة موقف سيارة لذوي الاحتياجات الخاصة..

قوبل الأمر في البداية بالرفض، وعدم الاهتمام أيضًا، ثم صعَّدت الأمر للإدارة العامة، حتى حصلت بالنهاية على الموافقة الرسمية، وتحدد يوما لمجيء العاملين، واختيار مكان السيارة الجديد.

اخترت أكثر الأماكن قربا وراحة له، كنت أتخيله خارجا من سياراته ومشيه عشرات السنتيمترات فقط إلى باب الشقة، وإنهاء معاناته في البحث عن مكان لاصطفاف السيارة.

- كفاية نوم، قوم كده افتح الشباك.

- فيه إيه؟

- قوم بس شوف كده.

وقفت بجواره، وهو يقف بالنافذة ثم أردفت:

- أنا عملتلك باركينج مخصوص عشان تيجي تركن قدام البيت، أنا عارفة إنك تعبت ورجلك وجعتك، إن شاء الله هترتاح بعد كده.

ظلت عيناه معلقة على العلامة الصفراء، ثم رفع يده لتلتف على أعلى ظهري ثم قال:

- أنا بحمد ربنا عليكي، الحمد لله إن ربنا وقعني فيكي، لو كنت عايش مع واحدة غيرك كان زماني مت، إنتي من النعم اللى هفضل أحمد ربنا عليها الباقي من عمري.

طبع قبلة فوق رأسي ثم أردف

- أنا بشوف لُطف ربنا فيكي.

تذكرت حينما كنت أدعو الله أن يزيل الغشاوة من فوق عينيه، لم أكن أتمنى وقتها أن يحدث له مكروه كي يعود لصوابه، أعلم تماما أنه نقي من داخله، كانت مجرد غشاوة، لكنها حكمة الله التي لا يعلمها سواه.

شغف بموضع سيارته الجديد، وخصوصا حبه الخاص لها، كان قديما يتمنى لو يضعها بجوار وسادته، واليوم أصبحت بالقرب من وسادته يفصلهما جدا وعشرات السنتيمترات.

صمم لوحة معدنية مكتوب عليها رقم المبنى والشقة والعلامة الخاصة بذوي الاحتياجات ووضعها بالأعلى لتصبح واضحة على مرأى الجميع، ولازلت حتى اليوم أصطف بمكانه.

"عاليا"

عاد لعمله، وتغيرت خطة العمل، كادت أسابيع الحمل أن تنتهي، وتحدَّد موعد الولادة بالسابع والعشرون من مايو ٢٠١٦.

قررت أن أستقبل والدتي وأخي ليكونا برفقتي، واقترح عمرو استقبال والدته بنفس الفترة تزامنا مع اجازة نهاية العام للمعلمات بمصر.

جميعًا جاءوا دبي ومكثوا ببيتنا، بعد أن توقف عمرو عن تلقي جلسات الكيماوي، وكان قد استعاد صحته، وعاد شعره ينمو ويتعافى جسده نسبيا.

رؤية والدته لحال ساقه كان صادمًا، كان يجلس دون الطرف الصناعي بالمنزل، فتنظر طويلا لموضع ساقه المفقودة، وتتمتم بخفوت،

كانت تفعلها لا إراديا، لكنني كنت أشعر وكأنها تشفق على حاله، وتتحسر على ساقه، وكنت أخاف أن ينتقل له ذلك الشعور.

جاءت لتفعل نقيض ما كنت أفعله وأصدقائه، دائمًا ما كنا نُشعِره أن ما حدث معه شيئا عاديًا، نطمئنه أنه سيشفى وأنه قادر على تخطي تلك المرحلة بكل صعابها، لم نُشعره يوما أنه عاجزًا، كنت أتذكر أصدقائه يقولون:

- إنت كويس وزي الفل، يلا ننزل ونخرج.

فتدب الثقة في روحه ونفسه، فيرتدي بنطالا قصيرا يكشف عن الساق الصناعية، ويمشي بها أمام أعين الناس بلا خجل.

لكنها اليوم جائت لتهدم كل الثقة التي بنيناها شهورًا سابقة، وتتمتم وتدعو وتقرأ القرآن ونظرات الحسرة تملأ عينيها، كنت لا أمانع في دعواتها وصلواتها، لكنني أريد رجائها ألا تفعلها أمامه.

اقترب موعد ولادتي وتم حجزي بقسم النساء والوليد، وكانت المرة الأولى أن تتبدل أدوارنا، مكث معي حتى المساء يلتقط لنا صورًا مختلفة لتظل ذكرى قال:

- المرة دي إنتي اللى ع السرير، بس عشان تجيبيلنا أجمل "عاليا"

فرددت قائلة:

- عاليا عمرو عبد الستار

قبل رأسي، ثم غادر لعدم إمكانيته من المبيت معي بقسم النساء، وجاءني بصباح اليوم التالي استعدادا لدخولي غرفة العمليات.

لم أشعر بخوف كالذي شعرته حينما رأيت عمرو يوما في موضعي، وخرجت بعد قرابة الساعتين أفتح جفوني المتثاقلة قائلة:

- عمرو فين؟

كان واقفا بجواري، فأمسك بيدي قائلا:

- حبيبتي أنا جمبك أهو، حمد الله على سلامتك وسلامة "عاليا"، شفتي جميلة وصغيرة وحلوة زيك إزاي.

كانت سعادته بها تفوق سعادته بطفلتنا الأولى وخاصة أنه لم يحضر طقوسها، أخذ الصغيرة ليؤذن بأذنها، ثم وضع لها مسحة من التمر بفمها، كان يحملها ويلتقط لها صورًا ويتشاركها عبر حسابه مع اصدقائه.

مر قرابة اليومين لمكوثي بغرفة المستشفى، قلت له:

- أنا زهقت وعاوزة أمشي من هنا.

- حببتي إنتي عارفة إنك لازم تخلصي مدة إقامتك لحد ما يتكتبلك خروج.

- خلاص ياعمرو، أنا موافقة أقعد بس تفضل معايا

- دينا حببتي لو عليا والله ما همشي، بس أنا هبات إزاي في قسم النساء، إنتي كان ينفع تباتي في قسم الرجالي لكن أنا مستحيل، هخلي ماما أو طنط يباتو معاكي.

بكيت ثم قلت:

- مش عاوزة حد غيرك معايا، أو روحني البيت.

كانت أعراض اكتئاب ما بعد الولادة تداهمني، وتعبث بهرمونات جسدي المتغير، كنت أعانقه وأبكي بكاءً غير مبرر ثم أعود لأقول:

- روحني عشان خاطري ياعمرو بقى.

- إنتي تعرفي إنهم مشددين، مفيش خروج قبل خمس أيام، في حالة خرجت قبل معادها وحصل تسمم في الجرح وتوفت، لازم نستحمل هانت كلها يومين كمان، وأنا معاكي ليل نهار.

كانت تلح عليَّ رغبتي بالعودة إلى المنزل، القلق عليه ينتابني بشدة، أعلم لن يأكل مما يصنعونه، أنا التي تعلم طقوس طعامه ونومه وحمامه، كنت أشعر أنني أترك طفلي تائهًا بدوني.

حينما كان يعود للمنزل بعد انتهاء مواعيد الزيارة، نظل نتحدث عبر الهاتف والرسائل فيقول لي:

- حببتي نامي وارحمي نفسك، انا كويس متقلقيش.

- حاضر.

أقولها على مضض، وبالي لا يهدأ، ولا راحة تسكن عقلي و جسدي سوى بعودتي للمنزل.

بدأت أسترد عافيتي بعد بضع أيام، أجواء شهر رمضان الكريم، ورائحة غرفتي، وأشيائي الخاصة جعلتني أشعر بالتحسن، وجودي بالمنزل مع ابنتيّ وطفلي الكبير «عمرو» كان من أهم أسباب تحسن حالتي النفسية.

قررت أن أصنع أول سحور، ونجتمع جميعا على المائدة، ثم أعددت دورة المياة لعمرو ليأخذ حماما، و ذهبت لأضع الأطباق فوق الطاولة.

جاءني صوته مفجوعًا:

- دينا

سقط قلبي مع آخر حروف اسمي، وضعت الطبق الأخير الذي أحمله بيدي على الطاولة، وهرولت مسرعة إليه، وأنا أعلم تمامًا أن وراء صوته شيئًا كارثيًا، قلت:

- في إيه ياعمرو؟

- شوفي يه دا؟

وضعت يدي موضع إشارته، بأعلى ساقه، لأجد شيئا يشبه حبة الزيتون، وقتها شعرت وكأنني هبطت من أعلى جبل شاهق، فهوى قلبي أرضًا.

نظرت إلى وجهه، وجدته شاحبًا أصفر مفزوعًا، قلت له بهدوء لأخبئ من خلفه خوفي وفزعي:

- في إيه ياعمرو؟ حاجة عادية يعني مفيش حاجة.

- دينا! ده سرطان، ده ورم تاني!

لا أعلم كيف مر الوقت، كيف ارتدى ملابسه، كل ما أتذكره خروجنا سويًا من الحمام نحو المنتظرين على طاولة الطعام، وكأننا قتلنا شخصا، وخبأناه بحوض الاستحمام.

الذعر والفزع الذي يعتلي وجوهنا يجزم أن هناك شيئا مخيفًا نحاول الفرار منه.

سألت والدتي:

- في إيه؟

- مفيش حاجة تمام، عمروكان بياخد شاور وبساعده يلبس.

ردت والدته قائله:

ـ طيب ما انتي دايما بتساعديه، شكلكم مخطوف في حاجة.

رد عمرو بعصبية قائلًا:

ـ مفيش حاجة يا ماما، قالتلك كانت بتساعدني إيه اللي حصل يعني.

خيَّم الصمت على الطاولة، أجواء السحور الرمضاني أصبحت قاتمة، لا روح فيها، نتناول الطعام على مضض، جاءني صوت بكاء عاليا كإنقاذ للموقف، فقمت مسرعة نحوها.

ذهبت لإرضاعها، تفاجئت بجفاف الحليب من جسدي!

أيعقل أن يكونا الخوف والإضطراب الذي شعرتهما منذ قليل، عبثا بوظائف جسدي الحيوية وإدرار اللبن بالثديين!

نعم لقد حدث! طوال ليلتنا وأنا أتناول عقاقير لإدرار اللبن، أحاول إرضاعها،وهي تبكي ولا تجد ما يشبعها أو يروي ظمأها.

طفلة لم تُكمل الاسبوعين، تتلقى الصدمة الأولى لها بجفاف طعامها.

منذ تلك الليلة، ودَّعت عاليا الرضاعة الطبيعية، واضطررت للجوء إلى الحليب الخارجي، الذي رفَضَته في بادىء الأمر، ثم خضعت له بالنهاية من فرط البكاء والجوع.

أرسلت للدكتور أحمد بمنتصف الليل، أستشيره عما استكشفناه بأعلى ساقه، جائني رده سريعًا وبمنتهى الصراحة القاتلة:

ـ لازم تعملو أشعة في أقرب وقت، ده أكيد ورم جديد.

ردت كلماته بصدري، وصدى صوتي الداخلي يستنكر ما يقوله:

- ورم تاني لأ، مش عشاني طيب، عشانه هو يارب، إزاي هرفع معنوياته تاني؟ هيُحبَط تاني، اقوله إزاي واجيبهاله إزاي؟

في صباح اليوم التالي، ذهبنا سويا إلى قسم الأشعة، وانتظرت رد متخصص الأشعة الذي لم يخبرني منذ يومها خبرًا جيدًا.

قال:

- واضح جدا إنه كانسر وبيهاجم العظم في المنطقة دي.

ربما كانت كلماته قليله، أو أضاف كلمات أخرى، لا أتذكر سوى تلك الكلمات، وجميع الأصوات والصور بخلاف ما قاله تشوشت بعينانا وأذاننا.

جلسنا متثاقلين فوق مقعد مقابل للباب الذي خرجنا منه، نحن بعالم آخر غير العالم الذي يحيا فيه المارة من أمامنا.

وضعت يدي فوق يده، نظرت له طويلًا، ونظر لي بصمت.

ثم قال بهدوء:

- الحمد لله

- الحمد لله

- هاخد كيماوي تاني يا دينا؟

- هتعدي، هتعدي واحنا مع بعض ياعمرو بإذن الله.

عادت زيارتنا للطبيب المختص، أخبرنا انه من الضروري استئصال الورم، وبدء جلسات الكيمو من جديد.

أخبرنا أن الخط الأول منه كان غير مجديًا مع نوع الورم، لذلك قرر الانتقال للخط الثاني.

أخبرني الطبيب سرًا أن ذلك النوع أشرس وأصعب وأخطر، و أعراضه الجانبية أشد حِدَّة مما قبله.

تلقيت الخبر بصمت وألم يعتصر قلبي، وضعته سرًا بداخلي، وظللت أفكر في التراجع الذي يصيبه، في الإحباط الذي تمكّن منه، في سقوط شعره، وانتكاسة جسده، واستسلامه لذلك السُّم الذي يجري بعروقه، في غيابه عن العمل من جديد واقتطاع أجازة، في ضرورة عودتي للعمل لاحتياجنا لدخل شهري، كان عقلي يضج بالزحام، وأُفكر بابنتي الصغيرة، وبضرورة وجودي بجواره.

كنا جالسين نتحدث، قال عمرو:

- بتهيألي لما أقولهم في الشركة إن جالي ورم تاني وهاخد كيماوي تاني هيمشوني؟

ردت والدته عبلة قائلة:

- كان عندنا واحد في المدرسة عنده كانسر، والإدارة كانو عارفين إن المرض ده محدش بيخف منه، فسايبينه في المدرسة يشتغل وبياخد أجازات لأنه مريض وأيامه معدودة، متقلقش مش هيمشوك رأفة بحالك.

الصمت سيد المواقف، قام على عكازيه يستند إليهما دون ساقه التعويضية، وهرول نحو الغرفة، ثم قال بصوت عالي:

- دينا تعالي.

وجدته غارقا في دموعه، يقول بكلمات ثقيلة:

- دينا هو أنا مرضي محدش بيخف منه؟ هو أنا مش هخف؟
- في إيه يا حبيبي، مامتك بس متعرفش حاجة، الطب اتقدم وفي علاج للسرطان، هي معرفتها عنه مسلسلات وأفلام واحنا قرينا كتير وفاهمين، هي مش قصدها أكيد.

◊ "أولى تاني كيماوي"

باليوم التالي حقبنا الأغراض اللازمة، وانطلقنا بالخامسة فجرا برفقة والدته ليتلقى الجلسة الأولى بالخط الثاني بالكيماوي، كنت أشعر أنني أجرجر ساقاي ليحملاني نحو السيارة.

كان الظلام كاحل، لا أشعر برائحة رمضان، وكان الضباب بالجو مرتفعًا بدرجة تفوق الحدود، كنت أجلس خلف مقود السيارة وأمشي بالطريق الغير واضح، كان شاردًا بعالم آخر، ثم صرخ وفزعني بأعلى صوته قائلا:

- ما تركزي كويس، إنتي مش شايفة قدامك؟

حقًا كنت أريد إخباره أنني لا استطيع الرؤية، وأن شخص آخر سواي بالظروف الطبيعية والعادية لن يستطع القيادة لمائة متر بتلك الأجواء الضبابية، وأن أعصابي على حافة الإنهيار، لكنني مجبرة على التماسك، وأنني أعلم سبب انفعاله، لأنه لا يقصد الصراخ بي، ولا يقصد إهانتي، هو يريد العودة للديار، يرفض ذهابه لتلقى الجلسات من جديد، أوردته ترفض الإستسلام للكيمو، الدموع تقف فوق مقلتيه استعدادًا للبكاء.

لا لا.. أقصد النحيب.

والدته كانت تشاهد المشاحنة التي تحدث بيننا، وتنتظر ردة فعل لي مشابهة لما فعله، تعلم أنه بالغ بما قاله، تعلم أنني على حق، وجميعنا غير قادرين على الرؤية، نشعر وكأننا وضعنا داخل صندوقا بوسط سحب بيضاء

لها كل العذر بتعجبها فهي لم تشهد زيارتنا الأولى لمستشفى الأمل، لم تشهد انفعالاته الغير مبررة واللا منطقية، لم تشهد الأكواب التي كان يلقيها أرضًا، وصراخه طوال الوقت، أنا فقط من تعلم الفوضى التي تسيطر على خلاياه، وتعلم الحالة التي يمر بها.

لم يكن لي وقتها أي ردة فعل سوى أنني ألقيت نظرة سريعة على وجهه ثم قلت:

- معلش، معلش حبيبي، هتعدي، وهنخرج منها تاني زي ما خرجنا قبل كده.

صمت هو الآخر ثم قال:

- أنا آسف، أنا مش عارفـ...
- أنا عارفة يا عمرو، متكملش.

أدرت المذياع ليخرج منه صوت القرآن الكريم، كما اعتدنا إلى سماعه كلما ذهبنا إلى المواعيد الصباحية، وكما اعتدنا أيضًا، وضعت يدي فوق يده ونحن نستمع إلى التلاوة.

كنا نتبادل النظرات بين الحين والآخر، نقول ما يعجز اللسان عن قوله، تلتقي الأعين، ونظراته تستجديني الأمان، أعانقه، وأربت على كتفيه بلمسة يعلمها جيدًا، أقول له كل الأشياء المُطمئنة بهدوء،

عيناه تسألاني «هبقى كويس؟» فأنظر له قائلة: "اطمن هتعدي وهتبقى كويس"

يتنهد من أعماقه قائلًا «يارب»، فأرددها سرًا ق ائلة: «يارب»

كل ذلك كان يحدث صمتًا، فقط عبر النظرات.

كانت والدته مشدوهة للحالة التي تبدلنا فيها من الغضب إلى السكون، لكن بعد ذلك، فهمت التحول الذي يطرأ عليه بعد تلقيه الجلسة، تعلم شعوره برغبته أن ينسلخ عن جسده، يكره الأنفاس التي تخرج من رئتيه، يود لو يحطم كل الأشياء من حوله، الغضب يتملك منه، على الرغم أنه لا يمتلك طاقة حتى لرفع معصمه مترًا واحدًا بالهواء، يحتاجني ويتمنى مساعدتي، لكن مقته للأشياء من حوله يدفعه لفعل نقيض الأشياء، يذهب وعيه ثم يدفعني إلى الخلف غاضبًا دون سبب واضح.

(لا زلت حتى اليوم أشفق على شخص شاحب على وجهه علامات الكيميائي، تمر الأحداث أمام عيني سريعًا، أتمنى لو أُقبل يديه وقدميه وأعانقه وأخبره أنني أشعر بمعاناته، اتمنى لو أحمل عنه ثقل شعوره، لقد كنت بهذا العالم يوما من قبل)

كان مقرر له ستة جلسات، حالته كانت تزداد سوءًا، القيء، ارتفاع الضغط المفاجيء، انخفاض المناعة التي يستلزم بعدها مصل لرفعها، فيعمل على عصر النخاع الشوكي لإفراز كرات دم بيضاء أكثر من المعدل الطبيعي، تلك العملية كانت تشبه ضرب الإنسان ضربًا مُبرحا لثلاث أيام، فيسقط طريحًا للفراش، يحتاج إلى المورفين لتسكين آلامه اللا محتملة.

كنت أعلم تمام العلم أن ذلك العلاج يضره أكثر من نفعه، فطلبت ذات مرة من إحدى فتيات التمريض أن تحضر لي الجرعة قبل أن تدسها في عروقه، أخبرتني أنه أمرٌ غير مسموحٍ فرجوتها أن تفعلها، كنت أقرأ آيات سورة يس وأدعو وأتمتم «بسم اللهً الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»

كنت أشعر أن شيئًا ما خاطئًا يحدث، أتمنى لو نتوقف عن تلك الجلسات، لكن كيف سأوقفها وهي الأمل الوحيد!

استِجَابَةُ الورم للجلسات القاسية ضعيفة جدًا، جلست يوما أتسائل: «معقول بعد كل العذاب دا، وفي الآخر ميستجبش! أومال بياخد كيماوي ليه"

تسلل الشك إلى قلبي، لماذا نتبع أحاديث الأطباء بلا تفكير!

يصفون الكيميائي، فنرضخ لأوامرهم، هم أيضًا حفظوه عن ظهر قلب، أشك في علم جميع الأطباء عن طبيعة السرطان، عن فهمهم لطبيعة عمل ذلك العلاج، أصبح الكيميائي هو الوصف الأسهل والقاعدة الثابتة لمرضى السرطان، رغم أن نسب الشفاء منه ضعيفة.

بعد سقوط شعره من جديد، أصبح يعاني نفسيا بقدر ما معاناته جسديًا، قال لي ذات مرة:

- دينا مش عاوز الناس تشوفني مريض سرطان.

فهمت ما يقصده، فكنت أرسم له شعرات لحاجبيه بقلم بني اللون، ثم يرتدي كاب لتغطيه رأسه الفارغ تمامًا من الشعر، رغم ارتفاع حرارة الجو وعدم تحمله لغطاء فوق رأسه، فقلت له ذات يوم وأنا أقود السيارة وهو جالس بجواري:

ـ شيل الكاب يا حبيبي، الجو حر، وبعدين الموضة دلوقتي إن الناس كلها قُرع، محدش يعرف إن كان عندك شعر ووقع، والناس القرع متصالحين مع راسهم وماشيين بيها ومبيغطوهاش

سأل والدته:

ـ ماما، ايه رأيك؟

ـ لأ ماتقلعهوش يا حبيبي، شكلك مريض سرطان وباين عليك، غطي راسك.

نظرت له ثم نظرت لها بالمرآة مستعجبة لما قالته، أتساءل ما الذي قالته!

تحدثت معها وحدنا بهدوء، محاولة اختيار كلماتي لحساسية الموقف بيننا:

ـ معلش يا طنط، بلاش نقول لعمرو إن مرضه محدش بيخف منه، ولا تقوليله شكلك أحسن بالكاب، عاوزين نرفع معنوياته ونديله أمل ويعيش طبيعي من غير ما يتكسف من شكله، إحنا بنحبه ومتقبلينه في كل حالاته لازم يريح باله من نظرات الناس.

امتعضت شفتاها، وأشاحت نظراتها عني، فهمت أنها لم تتقبل كلماتي على الإطلاق.

***

بدأت رحلة القراءة والبحث والاستكشاف عن «تلك الخلايا الخبيثة» مم تتكون؟ وكيف تتكاثر؟ وما طبيعتها؟

بحث حياتي الذي انتزع من نظري درجتان بعدما كان نظري معتدلا.

قلم ونوت بوك أصبحا يلازماني طوال الوقت، أبحث بكل وقت وبكل مكان وبكل زمان، هاتفي متصل دائمًا بالإنترنت، أبحث وأدوِّن المعلومات، أنتهي من قراءة بحثٍ، ليُدخلني إلى جزء فرعي آخر أكثر استفاضة، فتنير المصابيح برأسي.

وبعد أسابيع من القراءة أيقنت تمامًا أن جلسات الكيماوي ما هي إلا سُم، ولم تكن علاجًا على الإطلاق.

قررت العودة إلى عملي، وغادرت والدتي دبي وبقيت معي شقيقتي مي، وقررت والدته المكوث شهرا إضافيًا معنا لرعاية طفلتينا.

أستيقظ في الصباح الباكر للذهاب إلى العمل، ثم أنهي دوام العمل وأذهب لتسوق الأغراض التي يريدها عمرو، أعود الى المنزل لإحضار الطعام، أضع قطع الملابس المتسخة بالغسالة، ثم أذهب إلى عمرو بالمشفى حاملة الطعام وقطع ملابس نظيفه، أظل بجواره، أرجوه أن يأكل، ثم أساعده كي يستبدل ملابسه، ثم أسرق ساعتين من النوم بجواره على مقعد جلدي صغير، يدخل التمريض لقياس النبض والضغط كل ساعتين، فأستيقظ فزعة، ثم تسقط جفوني لا إراديا وأغط بنوم عميق، وجسدي يتألم من عدم الارتياح، أستيقظ منهكة جسديًا أكثر من ذي قبل، وأعود فجرًا للمنزل استبدل ملابسي، وأذهب للعمل.

أسبوعين متتالين نقضيهم بالمستشفى، وفاصلًا أسبوعيا واحدًا نقضيه راحة بالمنزل.

كل ذلك الضغط الجسدي والعصبي والعقلي يحدث وأنا لم أستكمل التعافي من جرح القيصرية، أعتقد أنني كنت أنتحر لا أحيا، جسدي منهكا للحد الذي اعتدت فيه الألم وعدم الارتياح.

بالأسبوع الذي يقضيه عمرو بالمنزل، تفاجأت بتغير حديثه معي الذي لم اعتاده منه لأجده يوما يقول لي:

- أنتي مقصرة مع جوجو في المذاكرة ومش وخدة بالك منها.

ابتسمت بسخرية ورددت:

- ده مش كلامك، اه والله ما كلامك.
- حاولي بس تتابعيها وتشوفيها كده.
- معلش بس، قولي إمتى، عِد معايا ساعات يومي وعرفني أعمل كده إمتى، أنت عايش معايا في نفس الحياة دي ولا حياة تانية؟

عاد للحجز بالمستشفى، وجلست معه ذات يوم أجرجر أذيال إرهاق يوم طويل، كنت بالفعل أحتاج ولو ساعتين فقط يتمدد بهم جسدي على فراش مستوٍ و مخدة قطنية مريحة.

قال عمرو رثاءً لحالي:

- روحي النهارده، كده كده النهارده الجمعة، نامي شوية قبل الممرضين ما ييجو الصبح.
- منا قاعدة معاك وهريح ع الكرسي.

- هتنهاري مني وهتقعي من طولك يا دينا، قولتلك روحي وتعالي الصبح يلا الساعة اتنين، يادوب تروحي وترجعيلي.

قررت العودة وخاصة أن جرح الولادة يزداد ألمًا، ووضع القرفصاء للنوم على المقعد يزيد الألم بفقرات ظهري.

عدت يومها للمنزل وجدت والدته تناولني "عاليا" تصرخ من ارتفاع حرارتها، هرولت إلى الطواريء بمستشفى الأطفال، بكاء وصراخ حتى جاء دوري، وفحصها الطبيب، كنت بحالة لا وعي تامة، أتصرفُ وكأن عقلي ينفصل عن جسدي، وكأنني بحلم لا واقع.

عدت للمنزل وقد قاربت الساعة الخامسة، وقد تبقى القليل على موعدي للذهاب إلى عمرو، وبمجرد أن أدرت المفتاح بالباب، سمعت صوت انغلاق غرفة النوم الإضافية، فعلمت أن عبلة كانت مستيقظة وهرولت للنوم فور وصولي.

جلست على أقرب مقعد وقلبي يكاد ينخلع من موضعه، يزداد هبوطي وسرعة نبضي، أعطيت للصغيرة الدواء وأنا جالسة، وأسندت رأسي للخلف علَّ رأسي يرتاح ما دام جسدي لا يجد متسعًا للراحة.

استيقظت مي شقيقتي فزعه قائلة:

- إنتي منمتيش لغاية دلوقتي؟ هتروحي لعمرو إزاي.

- ..

لم يكن لدي طاقة للرد، فأردفت:

- هاتي علياء ويلا ادخلي ناميلك شوية، أنا هبقى أصحيكي.

ألقيت جسدي الهزيل المتهالك على الفراش، فخرجت عبلة من غرفتها:

- صحيتي يا مي؟ هاتيها أقعد بيها.
- آه يا طنط، مفيش مشكلة يا حببتي، طيب اغسلي وشك وفوقي وأنا شايلاها لحد ما تيجي.

جاءتني مي تمشي بهدوء، نظرت لها، فقالت لي:

- لو لسه منمتيش خللي عليا معاكي هدخل الحمام التاني بسرعة وآجي آخدها منك.

ذهبت وتركت باب غرفتي مفتوحًا خلفها، في لحظتها خرجت عايدة من دورة المياة، ودخلت لغرفتي قائلة:

- هاتيها يا دينا.

كنت أجهل ما حدث بالخارج منذ دقائق فقلت لها بكلمات ثقيلة:

- افطري يا طنط الأول وخليها مع مي لحد ما تاكلي.

جاءني رد فعلها الغير ملائم لعقلي المنغلق وعقلي النصف النائم:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيكي، إنتو بتعملوا إيه؟ بتحرموني من حفيدتي! انتو الاتنين متفقين عليا؟
- بتقولي إيه ياطنط، متفقين على إيه؟
- بتعملو فيا كده ليه؟
- أنا معرفش حضرتك بتتكلمي عن إيه، أنا عاوزاكي تروحي تفطري، فين الاتفاق طيب؟

خرجت من الغرفة تردد كلماتها ويعلو صوت غضبها، تكرر «حسبي الله ونعم الوكيل فيكي»، قمت منتفضة من مكان نومي، وأنا أعلم أنْ لا نصيب لي في النوم في ذلك اليوم على الإطلاق، بغضب تحدثت:

- انتي بتتحسبني عليا؟ بتتحسبني عليا ليه؟ أنا لو شيطان وبتكرهيني، وشوفتيني مفحوتة إزاي وقاعدة خدامة تحت رجل عمرو بكل رضا وحب كنتي تشيلهالي وتغفريلي شيطنتي.
- وأنا مش الخدامة الأندونسية اللي جبهالك عشان تسيبيلي عيالك وتنزلي.
- أنزل! أنزل اروح فين بقى ها؟ بخرج وأسهر مع صحابي مثلًا؟ منا على إيدك بنزل المستشفى وبتطحن في الشغل، لو إنتي شايلة بنتي فأنا شايلة ابنك، واحنا في محنة كبيرة، والمفروض إنك معانا، معقولة مش عارفين نستحمل بعض؟
- إنتي حرباية وبتكذبي على ابني، وبتقوليله إنه هيخف من مرضه، بتخدعيه وبتقوليله إن شكلك كويس، تديني تعليمات أقوله إيه ومقولش إيه، أنا هقوله اللي أنا عايزاه، أنا مديرة ومش هتيجي إنتي تعلميني وتعدلي عليًّا، بتكذبي على ابني اللي دماغه توزن بلد!

تتقطع حروفي، أبحث عن كلمات ردًا عما تقوله، استجمعت كلماتي ثم قلت:

- إنتي بتدمري كل حاجة كويسة بعملها، أنا مش هسمحلك تبوظيلي حياة عمرو، حياته حسَّاسه، وانتي مش فاهمة انتي بتعملي إيه، انا كل حاجة بعملها عشان مصلحته، عمرو في المستشفى بيموت، أنا جاية عشان أريح ساعة عشان أقدر اقف معاه ليوم تاني، ازاي بتتكلمي الكلام ده، إنتي جاية هنا تقفي جنبنا وتساعدينا، اللي بيني وبينك خلص، بس هنفضل قدام عمرو كويسين عشان خاطره بس، عشان تبقى نفسيته

كويسه، عمرو جاي بكرة من المستشفى، أرجوكي بلاش نحسسه بأي حاجة.

- إنتي بردو مش هتعرفيني أقول لابني إيه ومقولولش إيه، وهعرفه كل حاجة حصلت
- بجد هتقوليله؟
- اه هقوله
- طيب تمام يبقى أنا الي هقوله بقى

قررت أن أهاتفه أولًا كي لا يفزع من حالتي التي كنت عليها، كنت أبكي بكاءً هستيريًا فجاءَني صوته:

- دينا! براحة اهدي عشان خاطري، ووقفي عياط ومتقعديش في البيت وتعاليلي دلوقتي.

ألقيت بجسدي فوق مقعد السيارة، وعيناي تنغلق، أكاد ارى الطريق الى المستشفى بصعوبة، اشتريت وجبة طعام لعدم مقدرتي على تحضيره بالمنزل.

حينما شاهد حالتي قال لي:

- بصي بقى تاكلي معايا ونتكلم وتحكيلي في إيه.

كنت أمسك بلقيمات الطعام أضعها في فمي وأنا أنتحب من البكاء كالأطفال.

قصصت عليه ما حدث ثم اختتمته قائله:

- أنا مش زعلانة من الي حصل قد ما أنا حزينة إني بحكيلك وبشتكيلك في الوقت اللي المفروض متسمعش مني الكلام ده.

- متزعليش عشان خطري، حقك عليا، أنا عارف إنتي بتعملي إيه عشاني، وعارف بتموتي نفسك عشاني ازاي، مش مهم حد تاني يعرف.
- أنا ميهمنيش غير إن ربنا شاهد عليا، وإنك راضي عني، بس مش عاوزة حد يدمر كل اللى بعمله عشانك، مش عشان أثبتلك حاجة

لا أتذكر كيف انقضت ساعات النهار يومها، بعينان منتفختان واستيقاظ لمدة يومين متتالين، وجرعة كيماوي، مع عدم اتزان نفسي وصحي، ثم أتاحت لنا إدارة المستشفى خروجًا إلى المنزل مساءً، كانت حالته الصحية يُرثى لها، يستند على جسدي الضئيل المتعب، وأنا أحتاج من أستند عليه كي لا أسقط كورقة شجرٍ هزيلة.

***

قُدت نحو المنزل بصعوبة، ولم أكن أعلم أنني أقود نحو النيران والكوارث الكونية، تحاول عبلة بشتى الطرق تفجير طاقة غضبها ونشرها في أركان المنزل.

امتنَعَت عن الطعام والخروج من غرفتها لأيام متتالية، كانت تشتري من الماركت بعض الحاجيات وتتناولها بغرفتها في عزلة وصمت تام.

يناديها عمرو بصوته المتعب:

- يا ماما تعالي كلي معانا.
- لأ مش عايزة.

ينهض نحوها على عكازيه وأساعده حتى يصل لباب الغرفة ويستكمل باقي الخطوات وحده، يريد إرضائها بشتَّى الطرق، يبذل مجهودًا مضاعفًا رغم احتياجه للراحة الجسدية والعقلية وبعض السلام النفسي بفترة التعافي الاسبوعية في توقيت خروجه من المستشفى.

كانت تنتظر خروجي من المنزل نحو العمل، وبمجرد عودتي تهرول لغرفتها، ويعم أركان المنزل حالة من الكآبة، حتى فقدت الراحة في بيتي.

عدت يومًا من العمل فسمعت باب الغرفة ينغلق بعُنف، جلست أتفقد حالته، ثم قلت:

- بجد معدتتش قادرة، ده ضغط عليّا مش هنفضل عايشين كده أنا مبقتش لاقية راحة في بيتي، ولا لاقية حد يستحملني ومطالب مني طول الوقت أستحمل.
- وأنا مابقتش عارف أعمل إيه أنا تعبان.
- وأخرتها يا عمرو؟
- أنا مخنوق، هنزل بالعربية شوية أفك.
- تنزل فين لوحدك؟ هنزل معاك.
- لأ انا عاوز أنزل لوحدي.

احتد النقاش بيننا، وأنا أحاول منعه أن يذهب نحو الشارع أو القيادة بتلك الحالة التي لاتسمح له حتى الدخول الى دورة المياة بمفرده.

حاول النهوض فجذبته بيدي ليجلس، انفعل قائلًا:

- بتمنعيني عشان مبقتش قادر، خلاص بقيت معاق وبقيتي أقوى مني! بقيتي مستضعفاني؟

ـ أنا خايفة عليك!

أريد أن أقسم عليه ألا يذهب وأن لا شيء مما يقوله صحيح، أريد فقط منعه من الخروج كي لا ينتكس بالشارع وحده.

وجدت دموعه تنهمر على وجنتيه، عمرو يبكي! عمرو يشعر بالعجز، كل الذي فعلته لشهور طويلة، انتهى وتهشم في لحظة خلاف سببها «عبلة»!

بعدت عنه خطوتان للوراء، وتوقفت عن منعه للخروج، اتكأ على عكازه وخرج نحو باب المنزل وأنا أشعر بالشلل في عقلي وكل جوارحي.

اتجهت نحو غرفة عبلة والغضب يستبقني نحوها:

ـ عاجبك اللي بيحصل ده، إلحقيه وإعملي أي حاجة تمنعه يمشي، لو ركب العربية هيعمل حادثه ومش هيرجعلنا.

سمع صوتي بغرفتها، فرجعَ خوفًا من اندلاع حربًا بيننا في غيابه، فازدادت النيران اشتعالًا، أصواتنا كان ترج جدران المنزل، كل مننا يصرخ، كل منا يتحدث بصوت عالٍ، ازداد الأمر سوءًا، خرج عن شعوره، اجتاحه الغضب، حتى أفرغ غضبه بكلتا يديه ودفعني بكل قوته التي استخرجها فارتطمت بالجدار ثم وجدته ملقى على الأرض.

هرولت والدته لترفعه من الأرض، وغِبت عن أنظارهم بجسدي الهزيل المتهالك، وأسرعت نحو غرفتي أنتحب بكاء، وأتساءل بنفسي

ـ "يوم ما تيجي على حد تيجي عليا بعد كل ده؟ "

حاولت عبلة مساعدته للنهوض، فقال لها:

ـ سنديني ودخليني عند دينا.

قال لها:

ـ هاتيلي تلج يا ماما لو سمحتي واقفلي الباب.

أخذ يضع الثلج يضعه فوق يدي، ويقول:

ـ حقك عليا، أنا آسف!

رددت ببكاء:

ـ يلعن أبو الحب اللي يعمل كده في البني آدم، أنا همشي وأسيبكو مع بعض، حرام عليكم! بتعملو فيا كده ليا؟ طب أنا استحمل، ومين يستحملني! أنا بنحت في الصخر يا أخي وميبقاش ده جزاتي فالآخر.

أبكي وأرثى لحالي، لم يعد بوسعي الاحتمال، وهو يبكي ويعتذر، ولا أشعر سوى أن الحياة تضيق بي، أشعر بالرغبة في التلاشي، في الاختفاء من الحياة، أردفت ببكاء قائله:

ـ ممكن تسيبني في حالي؟ مش عاوزة أعيش معاها، وياريت تسيبني

ـ أتعب، أنا من حقي أتعب.

ركضت نحو باب المنزل، وأدرت محرك السيارة ثم انطلقت إلى مكاني المفضل على الكورنيش، جلست أتأمل بالسماء والبحر أناجي الله وأطلب منه العون، أطلب منه أن تنكشف هذه الغمة.

بعد قرابة الساعة وجدته قادما برفقة صديقه وزوجته، جاء الأخيرين وحدهم دونه وقالا:

ـ اسمعيه يا دينا عاوز يقولك كلمتين، حرام عليكي مش قادر يقف!

هززت رأسي بالإيماء، ثم قلت لصديقه:

- حد يجيب له كرسي لو سمحت.

اقترب مني وأنا انظر نحو البحر قائلًا:

- إنتي فوق راسي، أنا حملتك فوق طاقتك بكتير، حقك عليَّا، سيبيني أموت يادينا، إنتي لو سيبتيني ومشيتي أنا حموت، بس.

أعلم تمام العلم أن أتخلى عنه أو أتركه يعني الموت لي و له، أنا التي تقاوم الصعاب معه بصدر رحب، لن أتركه، هي مجرد انتكاسه، شعور بالضعف والهوان، لن أتركه مهما فعل بي، أنا بجواره حتى موته أو موتي أيهما أقرب.

قلت له:

- مقدرش أسيبك، لو اللي بيحصل ده بيحصل في الظروف العادية، والله ما كنت قعدت لحظة وكنت أخدت أول طيارة ونزلت مصر، يلا نروح نرتاح.

عدنا للمنزل، فأخذت رأسه على صدري حتى هدأ وخلد إلى نوم عميق، وأنا أشعر بتأنيب الضمير تجاه فقدان صوابي.

استيقظ صباح اليوم التالي قائلًا بحسم:

- إنتو الاتنين معدش ينفع تقعدو مع بعض.

- هي كانت جاية تقعد فترة طويلة، كده هتعتبرني سبب نزولها، بس أنا عاوزة مصلحتك ونفسيتك تبقى كويسة.

- حبيبتي ده قرار.

دخل إلى غرفتها ثم قال:

ـ ماما مينفعش الوضع ده خلاص، أنا مش هستحمل، لازم نفصلكم عن بعض، وبعد إذنك ترجعي مصرعشان منتعبكيش أكتر من كده عشان عندي رحلة علاج طويلة.

ثم قام نحو باب الغرفة وقال بصوت عال مسموع:

ـ وعلى فكرة، الست دي لولاها ـ يا أمي ـ كنت مت من زمان، إنتي متعرفيش هي بتعمل عشاني إيه، واللي شوفتيه ده كله ولا حاجة، رحلة علاجي مش هتكمل غير بيها وبالطريقة اللي خلتني أستحمل وأكمل كل ده ويبقى عندي يقين في الشفاء، لولا دينا أنا هموت.

أتمم حجز تذكرة الطيران عبر الانترنت، ثم أخذها باليوم التالي نحو المطار، وغادرت عبلة دبي، دون أن نرى بعضنا البعض، ودون أن نتصافح، وبقيت أنا بالمنزل ألملم شظايا الحروب الناتجة من الفترة الماضية.

***

استيقظت باليوم التالي لمغادرتها وأنا اشعر بألم بجسدي، أشعر بالإنهاك والإرهاق كما لو كنت أرتب بيتا جديدًا للتو، وكأني سهرت ليلًا ألملم بعثرته وفوضاه، هدوء ما بعد العاصفة، وكأنها الراحة المنتظرة، والهدوء والسلام النفسي المنتظرين.

نظر إلى وجهي المنتفخ وعيناي الجاحظتين إثر بكاء ليال سابقة:

ـ لولو اخباره إيه النهارده، يللا ننزل شوية نقعد في أي مكان.

ـ لو المكان اللي بفكر فيه ياريت!

- أكيد اللي بتفكري فيه.

قمت لأرتدي بنطالا وتيشرتا، وتركت طفلتينا مع جارتي، وانطلقت بجواره أشعر بالهدوء والحرية، ذهبنا لنجلس على أطراف قهوة بلدي بسيطة تشبه قهاوي حارات اسكندرية، تقع على رمال شاطىء دبي، طاولاتها بسيطة وجلساتها أقل بساطة، أشعر فيها بالارتياح والانتماء، أحب أن أحتسي الكرك (مزيج من الشاي والحليب والهيل) وأنظر إلى البحر في هدوء.

يعرف مدى حبي لها، فأخذني إلى هناك، جلست أتأمل وأفكر فيما حدث، وفيما هو آتٍ، وهو يتأسف لي بنظراته، بعدما تأسف بكل أقواله وأفعاله عن كل ماحدث وعن كل شعور سيئ انتابني منذ جائت والدته وحتى رحلت.

لاحظت نظراته الطويلة فربتّ على كفه قائله:

- ماتقولش حاجة، ومتتأسفش.

ثم استطردت:

- نستعد للي جاي.
- خليكي جمبي، أنا بستقوى بيكي.

"السكر والسرطان معًا"

تجهزنا للدخول إلى جراحة استئصال ورم أعلى الفخذ، وبالفعل تم استئصاله، كان في حجم حبة الزيتون، وبعد أن عدنا إلى المنزل للتعافي، كنت أتولى عملية تنضيف الجرح والغيار بسبب بُعد مكان المشفى عن المنزل، كنت أحاول أن أخفف عنه عبء الطريق يوميا، وهو يحب

أن أفعل أشياءه الصغيرة بيدي، كنت أقتني جميع الأدوات الخاصة بالغيارات والمعقمات والمطهرات وقطع القطن والشاش والبلاستر.

أشاد الطبيب باستكمال جلسات الكيماوي، فتلقى الجلسة بنفس الأعراض ونفس الآلام ونفس المعاناة التي اعتادها، ورغم اعتياده عليها يتألم في كل مرة وكأنه يتلقاها من جديد، وأعود لأجلس على المقعد المجاور لسريره في وضع القرفصاء، ثم نعود للمنزل لراحة مدتها أسبوع.

المشاهد تُعاد، الأيام تتكرر ببطء شديد، يدخل إلى دورة المياة ليأخذ حمامًا دافئًا، ليناديني بصوت مفزوع وأشد فجعة مما سبق، أدخل سريعًا نحوه لأكتشف ورمًا جديدًا يبعد بضع سنتيمترات عن السابق الذي استئصلناه للتو، وجهه أشد اصفرارًا عن المرة السابقة، أشد ذعرًا، وأنا أشعر باستياء وخوف وقبضة قلب أكثر مما مضى.

لا أعلم لماذا تتكرر المشاهد، لماذا لا يجدي الكيماوي نفعًا، لماذا لا نحصل على تقرير الشفاء التام، ونتخلص من الكابوس، لا زلنا نبحر في هذا الطريق بلا اتجاهات واضحة، بلا أمل لاقتراب الشاطىء، فقدان الأمل يزداد أكثر وأكثر.

في كل مرة أشعر أن هذا الشعور الحالي هو الأسوأ على الإطلاق، ثم أكتشف أن هناك ما هو أسوأ وأشد عتمة، الحياة تعتم في وضح النهار، كل الأشياء الكبيرة أصبحت بأعيننا صغيرة وحقيرة، وأدق تفاصيله تملأ عقلي وقلبي وجسدي، لا شيء يبدو جليًا واضحًا سوى عمرو وملامحه وألمه ورحلة علاجه.

أتتبدل الحياة بهذا الشكل وتنقلب رأسًا على عقب بصورة أشعة أو نتيجة تحليل!

دخلنا إلى غرفة الأشعة، وكما نخرج منها كل مرة، تُجزم التقارير على وجود ورم جديد بنفس المنطقة، وضرورة استئصاله.

ذهبت وحدي إلى أحد الأطباء المعالجين والمتابعين لحالة عمرو فأخبرني بضرورة إجراء أشعة على الصدر.

تناول كمية من السكر مع مواد مشعة، لتكشف عن أماكن الأورام بجسده، وأنا غارقة تفكيرًا وتساؤلًا في تناوله للسكر والمواد المشعة سويًا، وينهشني فضولي لمعرفة آلية عمل هذه المواد في استكشاف الأورام.

صحيح أنني لا زلت أبحث وأتعمق عن السرطان وعن أنظمة الغذاء، لكن كثيرًا من الفجوات بعقلي لم املأها بما يناسبها حتى الآن.

علمت أن نظام الاشعة المسمَّاه بالـ«Pet Scan“، تعمل على تجويع الخلايا السرطانية بالصوم لفترة ما قبل إجرائها، ثم تناول محلولًا سُكريًا مُركَّزًا مخلوط بمواد مشعة، بمجرد أن تتلقى الخلايا السرطانية السكريات بعد الجوع، تلتهمها وتقع بفخ الإشعاع أيضًا، فتظهر البؤر والمناطق السرطانية مشعة باللون الأحمر إذا كانت كبيرة الحجم، أو برتقالية وصفراء.

”يعني السرطان بيحب السكر“ هكذا قلت وأنا أحدث نفسي، ”طالما عارفين كده بيحطولنا حلويات في المستشفى ليه وهو مريض سرطان!“

قاطع شرودي تقرير الأشعة حينما أشار الطبيب عن بؤر يُحتمل أن تكون سرطانًا بالرئة، قالوا أنه مجرد احتمال، لكنني على أتم العلم أنه قد تمكن من الرئة أيضًا.

زرت الطبيب وحدي فأخبرني أنه إذا زار السرطان منطقة الرئة، يستحيل أن يجدي معه الكيميائي نفعًا، يتعامل مع جسده بعدوانية وشراسة و ينتشر بسرعة فائقة.

"إذن يسعل عمرو بسبب السرطان»

آخر ما كنت اتوقعه أن السعال الذي يصيبه من وقت للآخر هو نتيجة لأورام على الرئة، كنت أحاول تجاهل ما قاله الطبيب وأستبعده كل البعد، أتم كلماته ثم طلب تحليلًا لتحديد هوية البؤر.

هاتفني الطبيب أحمد ليخبرني نتيجته أنه بالفعل سرطان، ويخبرني أنه زار الرئة فعليا، وأنه بخلال شهر ستتدهور حالته، وينتقل للمستشفى، وتنتهي حياته، أخبرني عن رغبته في أخذ عينة من الرئة، لم يكمل كلماته إلا وقاطعته ورفضت رفضًا تامًا، لعلمي أن سحب العينات يزيد من الأمر سوءًا ويساعد على انتشار الخلايا على نطاق أوسع.

انهرت بالبكاء وهو خارج المنزل، شعرت بالإحباط، شعرت بالعتمة تزداد، وكان علي أن ألملم دموعي وعتمتي وحزني قبل أن يعود من عمله، ليجدني بانتظاره والطعام معدٌ لنتناوله سويا.

سألني عن نتيجة التحليل، فقلت له نصف الحقيقة:

- مفيش أورام غير في المكان اللي جمب العملية، لازم يتشال.

وتأهبنا للمرة الكم! «يبدو أنني فقدت مهارة العد» لدخول غرفة العمليات، ولا زال الجرح السابق مفتوحًا لم يلتئم بعد، الورم كان يشبه عنقود العنب ملتف حول أحد الشرايين، لم يستطع استئصاله كليًا، فقط استأصل ما استطاع الوصول له.

اتمم بعض الجلسات الكيميائية المتبقية بعد ذلك، ثم أخبرني الطبيب التوقف عنها لعدم نفعها وتأثيرها عليه، أعتقد أنه كان يدعوني للتسليم بالواقع وتركه يموت على فراشه، أو انتظار تدهور حالته بالمنزل ثم ينتقل إلى المستشفى وهو عاجز عن التنفس تمامًا.

◊ "حياة اورجانيك"

- أنا قريت عن أنظمة دايت مهمة جدًا، ونظام أكل معين لازم نتبعه ونمشي عليه ساعدني عشان لازم يكون عندك عزيمة، لازم نجوَّع السرطان من السكر أنا قريت كتير وفهمت كويس.
- أنا معاكي قوليلي المطلوب ونبدأ انا جاهز

حصلت على موافقته، وبدأت نقطة تحول جديدة في مسار حياتنا، وفي مسار إعداد الطعام، وكلما تعمقت بالقراءة والبحث عن مشتقات الطعام وما يناسبه صحيًا، يزداد اكتئابي، أصبحت عيناي ترى منتجات الأطعمة بالمحال مركبات ومشتقات كيميائية ضارة، سموم موضوعة على الأرفف، بعدما كنت أراها حديقة رائعة اقتطف منها كل ما نشتهيه.

حتى الخضروات والفواكه التي كنت أظنها طبيعية وصحية اكتشفت أنها غير آمنه وبها الكثير من الكيميائيات، فأصبحت أتسوق وأبحث عن خضروات وفواكة أورجانيك، واستبدلت الزيوت التي كنت استخدمها إلى زيت الجوز الهند الطبيعي، وابتعد عن مستحضرات التجميل الكيميائية جميعها، اقتنيت كتبًا من خلال الانترنت عن تجارب أشخاص تعافوا من السرطان باتباع حمية غذائية صحية.

وكانت من أهم الممنوعات مقاطعة اللحوم الحمراء، والسكريات، والنشويات.

استبدلت الأرز الأبيض بالأرز البني، ثم توصَّلت أن الأرز الأحمر هو الأفضل صحيًا، استبدلت النوتيللا التي يدمنها بالكاكاو الخام والكاجو، وبحثت عن طريقة صنعها منزليا.

لم أعد أشعر بشهية نحو الطعام، ولا تفرز أمعائي عصارات تناديني جوعًا، تأقلمت معدتي الصغيرة على اللا طعام، القليل جدًا يكفيني لاستكمال يومي، فتناقص وزني بشكل ملحوظ جدًا.

ألقيت جميع أواني الطبخ السوداء التي لا يلتصق بها الطعام بالقمامة، وألقيت بغلاية الماء خارج المنزل واستبدلته ببرادات توضع فوق الموقد، اشتريت أنواعا من الأواني منخفضة الضرر من الساتنلس الجيد وملاعق خشبية، لا يهم إن كان سيلتصق بها الطعام أو سأواجه صعوبة في تنظيفها، المهم أن أستبعد كون الأواني سببًا في انتشار السرطان في جسده من جديد، كان ينقصني أن أشتري أوانٍ من الفُخَّار وأعود للعصر البدائي لتصبح كل الاشياء من حولي طبيعية.

حينما عاد إلى عمله كان قد تم نقله من مواقع العمل الشاقة تحت أشعة الشمس والحرارة المرتفعة إلى المكتب الفني والعمل الإدارة نظرًا لحالته الصحية، ورغم عدم خِبرته بطبيعة العمل، واستيائه من ترك المجال الذي اكتسب به خبرات لأعوام طويلة، كنت أشجعه وأقول له:

- هتتعلم ياعمرو زيه زي أي شغل، أنا واثقة فيك، شوف كورسات جديدة هتضيفلك كتير.
- أنا فعلا بفكر أعمل كده.

- مستني إيه يلا ابدأ الكورس علطول.

شعرت أنه يندمج بالعمل والدورات التدريبية، وينخرط بأمور العمل ويتناسى الألم والمرض نسبيًا، وخاصة بعد توقف الجلسات الكيميائية، ارتحت لارتياحه، وشعرنا أن كل المراحل الماضية قد مرت بسلام ولن تعود ابدًا، لازال يسعل، ويسألني عن سبب استمرار السعال، وأنا اطمئنه:

- أكيد من الجيوب الأنفية، طول عمرك بتعاني منها.

يطمئن بكلماتي، وأنا أتفتت إلى مائة شعور مُقلق ومشتت وحائر وخائف، أعلم أن شيئا ما يحدث برئتيه، والطبيب أخبرني أن الكيميائي لن يجدي معه نفعا، لكني لن أستطيع إخباره وتحطيم بصيص الأمل الذي يحيا به.

كل ما أمتلكه هو تغيير نظام حياته وطعامه إلى أشياء صحية وعلاجات بديلة.

قرأت الكثير عن صناعة الوجبات باحترافية، ويتضح لي بعد فترة بحثا آخر ينفي المكونات الصحية، فأعود للبحث عن بدائل أخرى.

قرأت عن فوائد زيت الكانولا، وبعد فترة قرأت بحثا ينفي تصنيفه كزيت صحي، كنت أبحث عن الزيوت التي تصلح للأكل الساخن، وزيوت تصلح للخضروات، حتى الفواكه لها معايير خاصة أخرى، منه مايتناوله صباحًا، ومنه ما يجب لعب بعض التمرينات بعد تناوله، منه يحوي على فركتوز وكنت بحاجة لتفريغ جسده من السكريات.

كنت أعد له يوميًا لترًا من عصير الجزر ممزوجًا بالجنزبيل الطازج والليمون والبرتقال والبنجر، ويتناول العسل وزيت الزيتون وحبة البركة الممزوج بقطعه من زيت جوز الهند ونقطتين من زيت لبان الدكر.

قرأت مقالات عن فوائد لبان الدكر في شفاء السرطان، فكنت أصنع له منقوعًا يحتسيه يوميًا، وأجلب له زيت لبان الدكر لأضعه على أماكن الورم وأصنع منه مساجًا فوق صدره.

كان أصدقاءه يحملون له بالزيارات المنزلية أفخم أنواع الشيكولاته، وقطع الكيك فأقوم بحملها بعيدًا عنه ليلومني الأصدقاء عن الأنظمة الغذائية القاسية التي أتبعها، قالت لي صديقة يومًا:

- حرام عليكي يادينا انتي بتحرميه من الأكل ليه؟

لكنني وعمرو كنا على اقتناع تام بما نفعله، حتى وجبات الإفطار يحملها معه بالعمل، لا شيء يأكله من الخارج اطلاقًا، كل الاشياء التي تدخل إلى جوفه محسوبة بالجرام، كل شيء ضعف ثمنه العادي ويكلفني أيامًا طويلة للبحث عن مصادر الاشياء الطبيعية دون أية مواد حافظة.

"البحث الذي غير مجرى حياتي"

ثلاثة أشهر تبدلت فيهم الحياة، أصبحت أكثر هدوءًا بعيد عن ممرات المستشفى، عمرو عاد لعمله وانخرط به وبمشكلات زملاء العمل، يعود ليخبرني عما يحدث معه، وأخيرًا قد أصبحت له مشكلات أخرى غير التقارير والاشعات، رأسه مشغولًا بتدريبات العمل الجديد، ورأسي أنا يضجُّ بالأبحاث عن أشياء اكتشفها حديثًا، عن ضرورة تعرضه لأشعة الشمس وابتعاد جسده عن إشعاعات الراوتر والواي فاي وأجهزة الموبايل المحمولة، استبدلت ضوء غرفته العادي باضاءة "ملح جبال الهيمالايا" لامتصاص الطاقة السلبية.

أصبحت أعاني من فرط استخدام الهاتف المحمول، من فرط الأبحاث العلمية، من فرط تلقي المعلومات وتدوينها، من فرط الأشياء الطبيعية والأورجانيك، نعتني أصدقائي وقتها "بالجنون"، كنت غارقة بعالم آخر أتعمق فيه ويأخذني إلى أسرار فرعية جديدة استكشفها بشغف ونهم.

اقتنيت حوامل للهاتف حيث أنني أقرأ اثناء العمل، أقرأ أثناء القيادة، أقرأ أثناء صنع الطعام، أقرأ وأتصفح الهاتف في كل وقت وكل زمان، تناقصت درجات نظري تدريجيًا، ولجأت لاستخدام نظارة طبية.

لاحظ عمرو كبر حجم الورم الثاني بأعلى فخذه، كان الباقي من الورم الملتف حول الشريان الذي لم يستئصله الطبيب يزداد حجمه بصورة واضحة، تعجبت حيث أنه كان يستكمل بعض الجلسات بعد الاستئصال.

زرت الطبيب أحمد منير بعد انقطاع خمسة أشهر لم نلتق ولم نتهاتف منذ آخر جراحة اجراها عمرو، فأجرينا تصوير إشعاعي مرة أخرى لنجد أن الورم ملتف حول الشريان بصورة أكبر، وقتها قال:

- الحل للي بيحصل أننا نجري عملية غير آدمية هنشيل رجله كلها من الحوض، عشان نقلل فرصة أن السرطان يرجع.
- تقصد أنك تقلل فرصة أن السرطان يرجع دلوقتي! وبعدين يرجع تاني بعد كام شهر ونلاقيه في مكان تاني؟ وابقى شيلت رجله كلها.
- الرئة كمان لازم نتدخل جراحيا ونشيل البؤر اللي فيها.

- لا يا دكتور مش هنعمل كده، احنا كده هنقطعه ونشرحه وهو عايش، أنا قررت مش هدخله عمليات تاني.

غادرت عيادته وأنا لا أنوي إخبار عمرو بما قاله، لكنه كان يتواصل معي يوميا ويقول لي:

- يابنت الحلال لازم تعرفيه انه وصل للرئة، عمرو مش صغير، عمرو كبير بكفاية وانسان مؤمن بربنا، حالته متأخرة ومن حقه يعرف
- مش عاوزة أقوله يا دكتور هحبطه، أنا لسه عندي أمل في ربنا أنه يخف
- خلينا واضحين السرطان لما بيوصل للرئة بيدهور الحالة الصحية، عرفي عمرولان ايامه في الدنيا معدودة، شوفي أحوالك عشان لو عنده أي حاجة في مصر يكتبهالك باسم بناته أنا زي أبوكي، متزعليش من كلامي لو قاسي بس كلامي حقيقي.

اتسائل كيف سأخبره وأنا التي أعلم حالته التي يحيا بها، كل مساء قبل نومه يسألني:

- دينا، هو أنا هخف؟
- بإذن الله هتخف خلي عندك ثقة في ربنا.
- هو أنا ربنا بيحبني، مش يمكن أخطأت كتير وده عقابي؟
- ربنا رحمته واسعة وده ابتلاء واختبار يا حبيبي اصبر واحتسب
- هو أنا كده صابر صح؟

- أكيد يا عمرو الحمد لله على كل شيء خليك واثق وعندك يقين في ربنا وفي الإجابة، عارف شروط الدعاء المستجاب هو الإيمان بالإجابة، ادعي كتير، عارف سيدنا أيوب ألح بالدعاء لربنا واستجاب له، خليك قوي الإرادة ياعمرو.

يوميا يكرر أسألته، ويوميًا أطمئنه واستشهد من حكايات الأنبياء وابتلائتهم، أبحث عن إجابات بداخلي أكثر إقناعا وطمأنينة، لا أعلم من أين تأتيني تلك الإجابات، من أين يأتي الإلهام لأقول الكلمات التي تمسح على صدره بالصبر والثبات، وكأنني أستمع لأحد المحاضرات من شخص غيري، وكأن الله يعطيني القوة والحكمة ليهدأ، اطمأن أنه خلد للنوم، ثم أستدير لأنفجر في بكاء هستيري صامت دون أن يشعر.

أتحمل فوق طاقتي، أشعر بالعبء فوق صدري وقلبي، ألم بجسدي ومفاصلي وعصف ذهني وعصبي لا يحتمل، أسمع سعاله ليلًا نهارًا وأنا أعلم أن المرض يتسلل رئتيه واقف مكتوفة الأيدي لا أستطيع إيقافه، ولا أقبل العبث بجسده أكثر من ذلك.

يوما قلت أن المرأة التي تغادر زوجًا أصابه السرطان ليست بضعيفة وليست ملامة وليست سيئة، هي طاقة تحمُّل يعطيها الله لمن هو كفء بها، الحياة جحيمًا ويبذل بها مجهودًا مضاعفًا لجعلها سالمة بلا نيران وأعاصير.

فقدت القدرة على التنفس، هاتفت يوما والدتي وأنا أنتظر أحد التقارير لأخبرها:

- ماما قلبي بقى في زوري!

ليس وصفا أو تشبيها مجازيا، ما أقوله حقيقيا، قرأت ذات يوم الآية الكريمة:

"وبلغت القلوب الحناجر" وحينما بحثت عن وصف حالتي وجدت علميا أن الخوف حينما يصيب الانسان، يحدث تضخم هائل بالقلب لطلب كمية أكبر من الأكسجين، وتتضخم الرئتين اليمنى واليسرى أيضا فيبحث القلب عن موضعا أعلاهم ليستقر به، فيشعر للإنسان أن قلبه وصل إلى حنجرته من فرط الاختناق والخوف والرعب.

التقارير دائمًا تخبرني بنتائج سيئة، فأقف أمامها عاجزة، الطبيب أحمد يسألني:

- ها يا دينا هنعمل إيه؟

ماذا سأفعل، ومن أين تأتيني الطاقة لفعل الاشياء، حقًا متعبة، وقلبي يتألم، لا شيء بيدي فعله، لا شيء يمكنني فعله وتكاسلت، ذهبت إلى العمل وخيبة الأمل تملأني، فقابلتني صديقتي بالعمل قائله:

- إنتي عاملة في نفسك كده ليه؟ ده نصيبه وقدره، إنتي لازم تشوفيلك حد تتجوزيه لما عمرو يموت؛ أنا آسفة إني بقولك كده بس كلنا هنموت، إنتي صغيرة، ومحتاجه حد يراعيكي ويساعدك تصرفي على ولادك...

- ...

صمت ولم أرد بكلمة واحدة، لم أوبخها، لم أنفجر بوجهها غضبًا، صمت وأنا أشعر ببكاء العالم يقف على مقلتي عيناي، لكنني لم أفعلها أمامها، اتخذت الطريق من العمل إلى المنزل بكاءً وأنا ألوم صمتي وعدم ردي على كلماتها القاسية.

ذهبت إلى العمل باليوم التالي وأنا اشعر بثقل العالم فوق رأسي، قالت لي مديرتي بالعمل:

- اطلعي برة غيري جو فالحديقة يا دينا، شكلك باين عليه التعب وبعدين تعالي.

خرجت لأتنفس الهواء الطلق بين الخضرة والأشجار، جلست أحدث نفسي وأناجي الله:

- يارب إيه اللى المفروض أعمله دلوقتي؟ يارب أنا خلاص خلصت كل محاولاتي، يارب دلني يارب مش عاوزة أيأس.

لا أتذكر كم مر من الوقت وأنا أتأمل بالسماء، ثم أمسكت بهاتفي أعبث ببعض الأبحاث التي تركتها مفتوحة منذ أمس، صفحة تجول بي إلى صفحة أخرى وهكذا حتى أضاء أمامي مصطلحٌ توقف الزمن أمامه " الماريجوانا الطبية".

◊ "زيت الماريجوانا الطبية"

"Rick simpsom Oil" زيت القضاء على السرطان

حينما فتحت أبحاثا وجدت قصص من واقع الحياة وتجارب لمرضى سرطان تم شفاؤهم بفضل ذلك المستخلص السحري.

فُتح لي بابًا جديدًا، وأملًا جديدًا، كل ما قرأته وقتها بثَّ أملًا مُشرقًا بقلبي، عدت إلى مكتبي وحقبت أشيائي واستأذنت للمغادرة، وانطلقت إلى المنزل والهاتف لا ينفك من بين أناملي.

امتنعت عن الحديث والتواصل مع العالم الخارجي، فقط أتلقى الرسائل والاتصالات من الطبيب أحمد يتسائل بهم إن كان عمرو سيخضع لجراحة أخرى، فأجيبه بالنفي في كل مرة.

وعمرو صامت، يجلس أمام جهاز البلاي ستيشن يقضي أمامه ساعات طويلة، وأنا أقضي ساعات في القراءة عن عالم الماريجوانا.

بعد عدد من الأيام، تكونت لدي عقيدة وقناعة تامة أن الخطوة التالية في علاج خلايا السرطان والقضاء عليها هي استخدام زيت الماريجوانا.

- عمرو، انا بقالي كذا يوم بعمل أبحاث عن علاج للسرطان بعلاج جديد.

اعتدل في جلسته وترك جهاز البلاي ستيشن، ونظر لي ينتظر استطراد حديثي.

- الماريجوانا، زيت مستخلص من نبات الماريجوانا، كمية الناس الى اتعالجت منه مش طبيعية، فيه مادة اسمها THC المادة دي بتدخل عقل الخلية السرطانية اللي حاصل فيها خلل، الخلل اللي بيخلي الخلية تتكاثر بشكل مش مفهوم ومبتتعالجش من الجهاز المناعي، بيصلح الأعطاب والأخطاء اللي فيها، فبتتقفل وترجع خلية طبيعية جدًا، وبتبدأ تتلقى الأوامر من جهاز المناعة.
- فهميني أكتر!
- بص ياعمرو، أي مرض فالجسم بيبدأ بالتهاب، ولما الالتهاب بيطول زي ما حصل في حالة رجلك اتحول لالتهاب مزمن،

وجهاز المناعة عجز عن التعامل مع الالتهاب، ولما يأس بطل يفرز أجسام مضادة تجاهه وبطل يقاومه، فحصل خلل فالخلايا واتقلبت لسرطان.

- يعني زيت الماريجوانا ده قادر يصلح الخلية دي تاني!
- بضبط كده، بمجرد ما الخلية هتشوفه، هتتصلح بسرعة جدا كأنك جايب فيشة ثلاثية وبتحطها في كُبس كهرباء ثلاثي، ال THC هيتطبع على عقل الخلية بسرعة جدا.
- الكلام ده كويس أوي وأنا مقتنع بيه، بس إزاي يا دينا هتعرفي تلاقي ماريجوانا بالسهولة دي! ده يعتبر مخدرات واحنا في بلد صارمة جدا في قرارات المكافحة.
- حقيقي معرفش، بس أنا خدت قرار إن ده يكون العلاج.
- هتعملي إيه؟
- الناس هنا في البلد بتفهم، هتكلم وأصعد الأمر ونشوف رأيهم.

بدأت في طباعة الأبحاث الخاصة بزيت الماريجوانا، وإثبات أن هناك ثلاثة وعشرون ولاية بأمريكا مصرح من حكومتها استخدام زيت الماريجوانا للعلاج، وجميع التقارير الطبية، والحالات التي تمت علاجها به، كل البراهين والتساؤلات إجابتها كانت مجهزة للرد باستفاضة.

جلسنا أولا مع الأطباء المعالجين لحالة عمرو بمستشفى الأمل، بعد أن وضحت لهم جميع التقارير قالت لي الطبيبة:

- أنا متفقة معاكي تمامًا في اللي بتقوليه، وسمعت عنه، ومتحمسه له جدًا، بس أنا مينفعش كدكتورة ارشحهولك على روشتة، لأن ده ممنوع منعا باتا.

شعرت بخيبة أمل من تجاه المستشفى والأطباء،وعلمت أن الأمر يخص أمن الدولة ووزارة الداخلية.

كتبت التماسًا موضح فيه حالة عمرو وعمره وأسباب طلب استخدام زيت الماريجوانا، ثم ذهبت إلى مكتب الوزير مباشرةً، بعد محاولات عديدة للوصول إلى مقر مكتبه، وبعد أخذ موعد، وبعد أن عرضت عليه الأمر، قال لي:

- والله يا أخت الموضوع مو معنا بالوزارة، الأفضل تقدمي برئاسة مكافحة المخدرات ويصير خير.

توجهت إلى المكافحة وعرض عليهم اقتراحين، الأول أن أتسلم الأحراز الخاصة بهم، واستخلص منها الزيت، والاقتراح الثاني أن يسمحوا لي بشراء الزيت من الخارج واستلامه عن طريق مستشفى السرطان، تركت لهم التشاور في الأمر لحين التوصل إلى قرار.

قرأت عن مطالبة حقوق الإنسان بجعل زيت الماريجوانا قانونيًا في كل دول العالم، حيث أن الدول التي لا يُصرح فيها باستخدامه يضطر مرضاها للسفر من قارة لأخرى لتلقى العلاج في الدول المذكورة، ولا يقتصر الأمر على علاج مؤقت، بل أنهم سيحتاجون لكميات وفيرة للعلاج به كمصل مضاد لتكون الخلايا السرطانية من جديد، أي أنه سيصبح علاج مدى الحياة.

حادثت أحد الناشطين يدعى DR.PoP في حقوق الإنسان للمطالبة بتقنين الزيت بالعالم، ثم كتبت له تفاصيل قصة عمرو مع السرطان، وقرأها ثم تلقيت الرد منه بعد ثلاثة أيام، وأخبرني عن رغبته بمحادثتنا بمكالمة فيديو، قال لي:

- قرأت كل ما كتبتيه عن رحلة عمرو مع السرطان، وأنا سعيد بالحب الذي يجمعكما، وفخور بكونك عربية الأصول، وتوصلك للبحث العلمي عن زيت الماريجوانا ـ رغم منعه قانونيًا بالدول العربية ـ أنتم مثال رائع للحب والصبر والتضحية، نادرًا أن نجد علاقات إنسانية بتلك الروعة والترابط، أعدك دينا أن أساعدك بكل ما أملك، تواصلي مع حكومة دولتك وأنا على أتم استعداد أن أرسل لكِ الزيت وأن تستقبليه من خلال دولتك.

شعرت بالأمل، كنت أحاول أن أسبق الزمن والساعات، رغم كم الأعباء والمسؤوليات التي أحملها على عاتقي، تجهيز وجبات عمرو الصحية، وتربية الصغار، والذهاب للعمل.

لا شيء يخيفني، أشعر أنني أخطو نحو الخطر بكل ثقة وتماسك، هل كان جنونًا أن أذهب إلى وزارة الداخلية، ومن ثم إلى قسم المكافحة والمخدرات لأطلب منهم السماح باستخدام زيت الماريجوانا لعلاج زوجي المصاب بالسرطان! لم أشعر بالخوف، كل أصدقائي ومعارفي يتعاملون معي كـ"مختلة" قالوا لي:

- هتتسجني يا دينا بطلي جنان، هتترحلوا من البلد.
- لأ، أنا مقتنعة تمامًا باللي بعمله.

تحدد لي موعدٌ مع هيئة الأدوية والمخدرات، وتحضَّرت جيدًا للمقابلة، ذهبت صباح اليوم المحدد وأنا أحمل أوراقي وأبحاثي، والجديَّة على وجهي وملامحي، أوقن أن الجدية والثقة والأمل الذي أحملهم سيقنعهم بما أقوله.

تقمصت دور الطبيب، وجلست أشرح لهم عن طبيعة عمل الزيت على خلايا المريض، والجميع مشدوهين تمامًا وتركيزهم مع كلماتي وأوراقي، أشرح لهم عدد الدول المصرح بهم استخدامه، وأشرح لهم الحالات المُختلفة المعالجة بواسطته، وأنهيت بعد قرابة الساعة مقابلتي والجميع يبادلونني نظرات الحماس والإعجاب والاقتناع بكل ما طرحته عليهم.

الجميع يتسائلون من هو عمرو؟ أين عمرو؟ أين بطل الحكاية إذن؟

جاء إليهم عمرو كما طلبوا رؤيته، همَّ للصعود إلى غرفة الاجتماعات، لكن الجميع أصروا إلى المجيء إليه في سيارته، تبادلوا السلام والكلمات الطيبة والجميع دعوا له بالشفاء العاجل.

كان الأمر قيد المناقشة والتحليل بالهيئة وأنا أنتظر ردهم، ولكن كعادتي أبحث باتجهات أخرى عن حلول بديلة.

لم أترك الوقت والأيام يمرا عبثًا، كنت أحفر بكل المناجم، أستخرج أثمن المعادن وأزهدها لأصل إلى العلاج، أفعل أشياءً متعددة بنفس التوقيت، أبحث وأطهو وأعمل وأفكر وأنام وأصحو وأهتم بشئونه وسعادته، ولا أعلم من أين تأتيني تلك الطاقة!

لم ينقطع لي أمل، كلما تركت دربًا خلفي، سلكت دربًا آخر جديدًا، وضعت تركيزي على عصير الجزر للتخلص من سموم الجسد والدم والكلى وخاصة بعد كم الجلسات الكيميائية التي تلقاها عبر أوردته.

كما قرأت تماما، بعد انقضاء ستة أشهر على تناول عمرو له بشكل يومي دون انقطاع، استيقظ يوما ليجد لون جسده تحول إلى البرتقالي وتسمى هذه الحالة بـ «كاروتينيميا» تحدث بفعل مادة البيتا كاروتين الموجودة في الجزر، وكان ذلك مؤشرًا على خروج جميع السموم من الجسد وطفحها جلديًا.

لم تنقطع أمالي في انتظار رد جهة المكافحة لتلقى زيت الماريجوانا، هوس الماريجوانا الذي قد أصاب عقلي، مُقرر أن يتلقى عمرو مائة وثمانون مللي جرامًا منه لأنه خضع للجلسات الكيميائية، حيث أن المريض الذي لم يتلقى الكيماوي مقرر له تسعون مللي جراما فقط.

والجدير بالذكر أن الكيلو الواحد من نبات الماريجوانا يستخرج ستة مللي فقط من الزيت، كم كيلو سأحتاج؟ وإن وفرت لي الدولة بعض الأحراز لن تكفي حتى ربع الكمية التي سأحتاجها، لن يزرعوا لي حدائق ماريجوانا لأستخرج منها زيتًا غير قانوني ليُعَالَج به مجرد شخص يعيش على أرضها، قدّرت تعاونهم معي، وبدأت في رحلة البحث عن الزيت من مكان آخر للحصول على الكمية الكافية لعلاجه، كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي المكان الأكثر سهولة في استحضاره حيث أنها تحوي ثلاثة وعشرون ولاية مصرح بهم استخدام الماريجوانا طبيًا.

◊ "مهمة صعبة ومستحيلة"

حياتي تنتقل إلى مرحلة شيقة و صعبة وغريبة، تحدٍ لذاتي في إيجاد العلاج السحري للشفاء.

"هروح أجيب الزيت من أمريكا" كان الحل في خمس كلمات، تنفيذه يحتاج عصفًا ذهنيًا وترتيبًا للأفكار والخطوات، حتى لو بات الأمر مستحيلا، سأحوله إلى حقيقة.

◊ "رحلة أمريكا لاستخراج زيت الماريجوانا"

من أين سأحصل على المال لتوفير تلك الكمية، كيف سأذهب لدولة لا أعلم عنها شيئا سوى رؤيتها عبر شاشات التلفاز، ورؤيتها مساحات ملونة على خريطة العالم؟ كيف سأقابل أشخاصًا لا أعرفهم لأضع بهم الثقة، وأدفع لهم كل ما أملك من أموال يعلم الله وحده كيف سأجمعه؟

أمسكت بورقة وقلم ثم كتبت:

- اقدم اجازة من الشغل عشان اعرف أرتب أفكاري
- أجمع فلوس للسفر وأسيب فلوس لعمرو هنا، وأرتب أكله وطلباته
- أعمل فيزا لأمريكا، وأشوف حد يستقبلني هناك
- لازم أعرف أودي جودي وعلياء فين
- تمن إزازة الزيت الـ ١٨٠ مللي مللي ب سبع آلاف دولار.

اتخذت طريقي باليوم التالي نحو العمل، انتظرت مجيء المدير العام ثم دلفت إلى الطرقة المؤدية لغرفته، طرقت الباب عدة طرقات إلى أن سمح لي بالدخول، وجلست أمامه على المقعد، تنحنحت قليلًا ثم قلت:

- أنا بستأذن حضرتك في أجازة، في علاج اكتشفته في أمريكا وإن شاء الله هسافر أجيبه وأرجع في أسرع وقت.

شرد قليلًا وأخذ نفسًا عميقًا، وأمسك بقلمه، ورتَّب بعض الأوراق الملقاه أمامه، ثم قال:

- إنتي عارفة إننا بنحبك وبنحب عمرو قد إيه، كلنا معاكم بقلوبنا، بس يا أستاذة ده وقت موسم شغل، وحضرتك التيم ليدر يعني قائدة فريق عملك، مش بس كده إحنا محتاجين منك مجهود مضاعف وشغل أكتر الفترة دي، محتاجين منك تركيز، وسفرك وأجازتك ضد مصلحة الشغل، ده مش عمل فردي، ده تيم تحتك هينهار بسبب غيابك، سامحيني لكن أجازتك مرفوضة في الوقت الحالي.

تلقيت كلماته كالرصاصات بقلبي، رغم علمي بصحة حديثه تجاه مصلحة العمل، رددت باقتضاب قائله:

- أوك ممكن استأذنك ورقة وقلم من سيادتك.

كتبت ما أستحضره ذهني سريعًا ثم قمت وقدمت الورقة التي تحملها يدي نحوه قائله:

- اتفضل يافندم دي استقالتي.

- أكيد ده هزار وجنان يا بشمهندسة دينا.

- ده مش هزار ومش جنان، مفيش حاجة ولا حد في الدنيا يتحط في مقارنة مع عمرو أبدًا، حتى لو كانت وظيفة كبيرة.

عدت للمنزل وأنا أشعر بهدوء نفسي وأعباء العمل قد أُزيحت من فوق عاتقي، فكَّرت ان أهاتف "عبلة" والدة عمرو ربما توافق على فكرة المجيء والجلوس مع عمرو وطفلتينا في غيابي، عرضت الفكرة على عمرو ومن ثم قلت له:

- بص ملكش دعوة أنا هكلمها وأكيد لما تعرف إني هجيب علاج عشانك هتيجي عشانك مش عشاني.
- مش هتوافق يا دينا.
- يا عمرو، كده كده مش هنتقابل أنا وهي في مكان واحد، خليني أجرب
- أوك كلميها.

خفق قلبي من الخوف والتردد في محادثتها، رغم رفضي لأي حديث يجمعنا سويًا، إلا أنني أقدمت على فعلها من أجله فقط، من أجله سأفعل كل شيء لم أكن لأفعله يومًا.

- أيوة ياطنط، أنا دينا، أنا توصلت لزيت موجود في أمريكا مفيد جدًا لعلاج عمرو، وإن شاء الله هيكون سبب قوي لعلاجه وهيقضي على السرطان، وأنا لازم أسافر أجيبه بنفسي، فلو ممكن تيجي تقعدي هنا مع عمرو ومع الأولاد ولو مش عاوزة تشوفيني ممكن تيجي يوم ما أمشي وتسافري قبل ما أوصل هنا تاني، عشان عمرو أرجوكي مترفضيش.

- أنا مش هقدر أجي وأسيب شغلي اللي ساندني وبتعكز عليه، أنا كنت زمان بتعكز على ولادي، واحد سافر مع مراته ومستنيين طفل، وعمرو ابني وأهو بيروح مني، أنا بقى لو سيبت شغلي هرجع ملقهوش! مين هينفعني؟

دائمًا ما تفجعني كلماتها، لكنها كل مرة تزداد تألقًا في ردودها المفجعة، صمتْ قليلًا ثُم قلت:

- بجد أنا مش عارفة أقولك إيه، أكيد شغلك أهم وشكرا.

أغلقت الهاتف في هدوء انظر لعمرو الذي كان يستمع للمكالمة منذ بدايتها بذلك الحماس الذي كان يملأ صوتي بالبداية، وخيبة الأمل التي خرجت على ملامحي وانخفاض صوتي بالنهاية مع إغلاق الخط، قال وهو شاردًا:

- عماد سافر ومخبي عليا إن مراته حامل! خلاص هحسدهم؟
- هيفرق معاك في ايه كل واحد ربنا يعينه على حاله
- أنا قلتلك أنها مش هترضى تيجي.
- هتدبر ماتقلقش، أنا سألت ماما تيجي بس أنت عارف أخويا في ثانوية ودروس، بس هنلاقي حل، إحنا بناخد بالأسباب وربنا معانا أحسن من أي حد.

هاتفت والدتي باليوم التالي، أخبرتها أن تساعدني بايجاد أحد الحلول فقالت لي:

- هاتي ولادك يا دينا خليهم معايا في مصر

- مش عارفة يا ماما والله دي فكرة كويسة، ليا صحبتي هنا بنتها مع جوجو في المدرسة وقالتلي اسيبها معاها يروحو المدرسة سوا.عشان كمان عندها امتحانات

- إنتي مبقتيش مركزة مع بناتك يا دينا.

- أعمل إيه يا ماما! أركز معاهم وأسيب عمرو يموت قدامي! مش قادرة أدي كل حاجة حقها غصب عني بقصر.

- ربنا يعينك يا بنتي، شوفي هتعملي إيه كان نفسي أجيلك بس غصب عني.

- هحاول أجيبلك عاليا وأخلي جوجو هنا هارتب أموري وأكلمك، صحيح ياماما فاكرة عمو عصام جارنا اللي حكتيلي إنه راح أمريكا.

- أيوة طبعا، كويس إنك لسة فاكراه.

- أنا عاوزة رقمه ضروري، أو الفيس بوك، أي حاجة، ضروري جدا.

- حاضر هروح ناحية بيتنا القديم وأشوف حد من إخواته يجيبلي رقمه.

حصلت على رقم الهاتف الذي كتَبت أرقامه على شاشة هاتفي وأطلت النظر إليها، وأنا أحاول استجماع كلمات أفتتح بها حديثي، فضغطت زر الاتصال وتركتها تأتي كما يلهمني الله:

- ألو، صباح الخير أو مساء الخير.

- صباح الخير!

- عمو عصام؟

- أيوة.
- مش عارفة هتفتكرني ولا لأ، أنا دينا بنت نجوى جارتكم في البيت القديم في اسكندرية، آخر مرة شوفتي كان عندي تقريبا أربع سنين...

قاطع كلماتي ثم قال:

- ياه يادينا طبعًا طبعًا فاكركم، إزيك عاملة ايه؟
- الحمد لله، أنا عاوزة أجي أمريكا قريب، وبستأذنك لو أقدر آخد عنوانك عشان لما أقدم ع الفيزا أحطه في البيانات.
- أكيد طبعا تنوري جاية سياحة؟
- الحقيقة إن عمرو جوزي عنده سرطان، وسمعت عن الميديكال ماريجوانا ومش عارفة ألاقيه عندي في دبي، وعملت أبحاث كتير وقررت آجي أجيبه من امريكا

شعرت بارتباك كلماته تجاه ما قلته ثم قال:

- على فكرة أنا بشتغل في الشرطة يا دينا، بس الماريجوانا مش قانوني في ولايتنا هنا في نيوجيرسي
- أنا مش هعمل لحضرتك أي مشاكل، أنا هتصرف وأشوف أقرب ولاية مقنن فيها بيعه، بس أنا لازم آجي في أقرب وقت، كل ساعة تأخير فيها خطر على حياة عمرو، الأورام بتزيد والكيماوي معدش جايب معاه نتيجة
- بصي يا دينا، إنتي شكلك جدعة وأنا هساعدك.
- شكرا بجد.

◊ "سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بدبي"

«ما زرع الله في قلبك الوصول لأمر ما، إلا لأنه يعلم أنك تستطيع الوصول إليه»

أقدم على الخطوات تلو الأخرى، إلى أن حان موعد الذهاب للسفارة الأمريكية، كنت أشعر بأطرافي ترتعد، لم يكن عمرو ينوي السفر معي لعجزه عن اقتطاع إجازة للمرة الـ..؟ لا نعلم، كي لا يُنهى عمله بسبب تكرار غيابه، كنا نحتاج إلى مصدر دخل نستطيع الحياة منه، فقررنا التقديم سويًا على تأشيرة السفر حتى وإن قررت السفر وحدي.

دلَفنا إلى الغرفة الخاصة بالمقابلة، وجلسنا بمقابل أحد ممثلي السفارة، نظر بالأوراق ثم وجه إلينا السؤال الذي نعلمه والذي كنا على استعداد للرد عليه:

- ما سبب رغبتكم في السفر لأمريكا؟

أعلم الإجابة القابعة في رأسي التي أرددها منذ أيام:

- "زيارة إلى أحد أقاربنا لقضاء أسبوعٍ ترفيهيٍ"

لكنني سمعت صوتا آخر يخرج من حنجرتي:

- أريد الذهاب لشراء زيت الماريجوانا الطبي لعلاج زوجي المريض بالسرطان.

نظر لي عمرو الجالس بجواري والدماء تصاعدت نحو رأسه، أظنني أراها وهي تحتقن بعيناه، اللوم والدهشة يخرجان من نظراته، مظهري يبدو كطفل حفظ إجابات أحد الامتحانات عن ظهر قلب، ثم كتب نقيضها في ورقة الإجابة.

لم أقل سوى ما شعرته، أشعر في هذا المكان بانفتاح العقول والثقافة والرقي، الولايات المتحدة الأمريكية يعني الوضوح والصراحة، لا أشعر أنني مُقدمة نحو جريمة يعاقب عليها القانون، أنا لن أدخن الماريجوانا، فقط أريدها للعلاج، فلمِ عليَّ أن أقول كذبًا؟

هذا ما يخبرني به عقلي وعِنادي وحدسي، لكن المنطق يخبرني أنني غمدت السيف بالقلب.

خيَّم الصمت على المكان الهادئ، وبدأ الندم يتسلل بقلبي فيما قلته، والبرودة تزداد في أطرافي، وهربت مني الشجاعة التي كانت تتقدمني منذ ثوانٍ.

أطال النظر بالأوراق والصور الموضوعه بالأعلى، ثم كتب شيئًا، وقال بإنجليزيته:

- OK

تسائلت في فضول واندفاع بالانجليزية:

- هعرف الرد إمتى
- أنتو أخدتو الرد دلوقتي، تمام يعني إتوافق على الفيزا، بس متجيبيش الزيت ده هنا.

اتسعت حدقتا عيناي وأنا انظر لعمرو بخيوط فرحة مشرقة على وجهي، وقلت له:

- طبعا مش هجيب الزيت هنا.

ثم قاطعني وقال:

- الصورة اللي في الورق متشبهش عمرو اللي قاعد اودامي، روح اتصور دلوقتي صورة تانية، رحلة علاج موفقة.

كانت الصورة الموضوعة فوق الأوراق قبل أن يصاب عمرو بالسرطان، ملامحه تبدلت تماما، رغم مرارة ما قاله، لم يستطع أن يفسد سعادتنا ونحن في طريقنا للخروج من الغرفة وسعادة النجاح تملأ قلوبنا.

◊ " رحلة إلى أمريكا "

بعد بضع أيام، كنت أحمل بين أناملي تأشيرة السفر إلى أمريكا، وكنت برحلة استكمال المبلغ المطلوب الذي ساعدني فيه أصدقاؤه الذين لم يخذلوني يوما، كنت أخبرهم عن زيت الماريجوانا بكل حماس واندفاع، ويعارضني عمرو في تلقائيتي وجنوني ويخبرني أن حياتي ستتعرض للخطر عما أقوله عبثا:

- يا دينا مينفعش تتكلمي الكلام ده مع أي حد أرجوكي، لو الموضوع اتسمع هتتئذي، في خطر عليكي، إنتي مدركة الى بتقوليه ده مخدرات؟

أعلم أنني أغامر بحياتي من أجل حياة عمرو، أنا مجنونته، وأصبحت مهووسة بالماريجوانا من أجله، وأصبحت أفعل الأشياء التي لم أظن أنني افعلها يوما من أجل شفائه، لم ينسيني انطلاقي واندفاعي القليل من الخوف الذي يتسلل إلى قلبي من فكرة الفشل، أو حدوث خطأ يهدم كل شيء فوق رأسي.

انتهيت من تحضير المنزل كما يحبه، جاءت شقيقتي مي للجلوس برفقته ومساعدته في تحضير أشيائه، تركت جوجو ببيت صديقتي، وحقبت أغراض "عاليا" الصغيرة، وحملتها برحلة من دبي إلى مصر،

مكثت ببيت والدتي عشرون ساعة، استنشقت هواء الإسكندرية ونزلت أجول شوارعها.

جلست فوق مقعدٍ بأحد المواصلات أتأمل السماء والبحر، أتساءل ما هذا الترتيب والقدر الذي يحمل بي إلى أيامٍ تشبه فيلمًا سينمائيًا! يوم واحد سأقضيه هنا وبعد ساعات معدودة سأتَّخِذ طائرة نحو الولايات المتحدة الأمريكية!

أتمتم الدعوات وأدعو الله ألا يخذلني، أدعو الله وآخذ بجميع الأسباب، وأسعى وأطرق جميع الأبواب التي تحمل أملا للشفاء، نظرت ليدي لأجد أحد الفراشات الجميلة تداعبها، ابتسمت وأخرجت بهدوء هاتفي والتقطت صورة، أرسلتها إلى عمرو وكتبت:

- شايف وأنا بدعيلك لاقيت الفراشة دي وقفت على ايدي، انا متفائلة.

كان يحب إشارات القدر، يحب الأشياء الصغيرة المبشرة، وأنا أحب مشاركته أدق التفاصيل الصغيرة.

عدت إلى دبي بعد مضي عشرون ساعة، وحملت حقيبتي الممتلئة بالملابس الشتوية، ودَّعته وطبعت قبله فوق رأسه وصدره، أمسكت بيده بمنتهى القوة ثم قلت:

- خليك واثق في ربنا ثم فيا.

تركته، وصعدت إلى الطائرة المتجهة إلى نيوجيرسي.

- "الآن أنا وحدي بتلك المغامرة، وحدي من سيتحمل النتائج، فعلت كل الجنون من أجل الماريجوانا، التحدي هو أن أحصد النجاح، لاشيء سوى النجاح يادينا «.

وصلت إلى نيويورك العاصمة، كان «عمو عصام» بانتظاري بصالة المطار، كانت الوجوه من حولي جديدة، رائحة الأجواء مختلفة، كنت أشعر وكأنني سُرقت عبر بؤرة زمنية لتحملني من قارة إلى أخرى بغمضة عين.

الطقس كان باردًا جدًا، حينما خرجنا إلى موقف السيارات حيث تقف سيارته، سرَت قشعريرة بجسدي، شعرت بالخوف والإثارة، الانطلاق والتراجع، الأشياء ومضادتها تسري بأوردتي دُفعة واحدة.

"عمو عصام" كلماته رائعة، يتحدث معي بلطف، يخبرني عن نيويورك وعن طقسها، وعيناي معلقة على المارة وبالشوارع واللافتات، قال:

- عيد ميلاد "أمير" ابني انهردة، هنحتفل سوا

ذهبنا لنلتقي عائلته، كانوا من أصدقاء والدتي "نجوى" القدامى الذين ربوا سويًا بحي جدتي القديم حيث كانوا صغارًا، ومن ثم حملتهم الحياة ليعيشو بـ «نيوجيرسي" منذ زمن.

أخذوا يتحدثون عن ذكرياتهم بمصر والبيت القديم، وكأنهم تلقُّوا لَفحة هواء من رائحة الذكريات التي أشعلت توهج حنين الماضي بقلوبهم.

شَعرت بالألفة سريعًا معهم، ورغم ذلك كنت شاردة بعقلي معه بدبي، شاردة فيما جئت من أجله، أطفئنا شموع كيك الاحتفال وانتهى الحفل مساءً.

جلست برفقة «عمو عصام“ وزوجته ”أماني“، أقص عليهم قصة مرض عمرو، ومواجهتنا له، وعن اكتشافي للزيت، وعن طبيعة عمله بالخلايا، عن أهميته وعن مدى فعاليته، كانوا يستمعون لي بشغف واهتمام، قالت ”أماني“:

ـ إنتي عظيمة يا دينا، إحنا معاكي، وإن شاء الله هنجيب الزيت وإن شاء الله هيكون فيه شفاء لعمرو.

ـ ادعولي كتير، أنا مش عاوزة الأمل ده ينقطع إن شاء الله يكون فيه شفاء، أكيد اللي بيحصل ده ليه سبب، أكيد وجودي هنا ووجودكم ليه سبب، إن شاء الله هاخد بالأسباب وعمرو هيخف.

قال «عمو عصام» وعيناه تلمعا:

ـ إن شاء الله يا دينا.

ـ طيب هستأذنكم أنام وارتاح، عشان من بكرة لازم أتحرك، أنا سايبة عمرو لوحده وهو في عرض كل ثانية بتضيع فيها خلايا جسمه.

باليوم التالي تحدثت إلى ”الدكتور بوب“، وتحدث إليه «عمو عصام»، واتفقنا على موعد للقاء أحد من فريقه المساعد.

عقلي لازال معلق بأشياء عمرو الصغيرة، رغم تجهيزي للطعام، وإملاء «مي» جميع تفصيلاته وأدويته، إلا أنه مازال ينقصه وجودي، كنت أهاتفه صوتًا وصورة، وأكتب له جميع ما يحدث معي، بكل خطوة أخطوها، كان العائق الزمني وفارق التوقيت هو أكبر عائق بيننا:

ـ أخبار شغلك ايه يا حبيبي؟

- الحمد لله هانزل الشغل كمان ساعة.
- وأنا لسه هنام تخيل!
- معلش اليوم ملخبط هنعمل إيه.
- طيب مي عملتلك الفطار.
- آه الحمد لله.
- طيب بتعملك اللي إنت عايزه.
- بتعمله والله كتر خيرها، بس محدش هيقدر يفهمني زيك، أنا مش قادرة اطلب منها ولا أعدل عليها حاجة.
- معلش يا حبيبي استحمل كلها أيام وأخلص وأرجعلك.

خلدت للنوم، فشعرت بهاتفي يخرج اهتزازات ويومض، استيقظت فزعة لأجده يتصل بي:

- حبيبي انتو كويسين في حد تعبان.
- أيوة متقلقيش، الحمد لله أنا بس رايح الشغل.
- طيب في ايه خير
- مش لاقي أنا ومي الشراب بتاعي الرصاصي تعرفي هو فين؟

كنت أضحك وأنا ناعسة على سؤاله، أيوقظني بمنتصف الليل وأنا بالجانب الآخر من العالم ليقول: "فين شرابي؟"

قلت له:

- بص ياسيدي، أقعد عند الكمودينو الشمال، وافتح الدرج اللى تحت ومد إيدك من ناحية اليمين شوية لجوه هتلاقي شراب لونه كافيه، شيله وهتلاقي الرصاصي تحته.

صمت قليلا ثم قال:

ـ أهو يابنت اللعيبة، قادرة توصفي مكان الشراب وانتي في قارّة تانية.

ـ روح يا عمرو الله لا يسيئك وسيبني أنام عندي مهمة الصبح.

استيقظت صباح اليوم التالي لأجد عمو عصام وزوجته بانتظاري لتناول الإفطار:

ـ صباح الخير.

ـ صباح النور يا دينا.

ـ النهارده هروح نيويورك أجيب الزيت.

ـ هتروحي لوحدك؟

ـ متقلقوش ياجماعة أنا يبان عليا مخضوضة، بس بعرف اتصرف يعني.

قالت «أماني»:

ـ لأ يا دينا، مش هتروحي لوحدك أنا هاجي معاكي.

أعلم جيدا معنى أن ترافقني سيدة، لا تعلم عني شيئًا سوى اسمي، وبعض الأشياء التي قصصتها عليها منذ يومين أن تحمل ذاتها وتترك شؤونها لتأتي معي لولاية أخرى، لتحضر معي زيت علاجي مصنف تحت بند المخدرات!

رافقتني حيث نيويورك، كان الجو باردًا وعاصفًا، ولم تتزحزح للخلف ولو خطوة واحدة، كان يومًا مثيرًا، مقلقًا، كنت أشعر بالاضطراب، وبالخوف من حصولي على نبات وهمي لقلة خبرتي، أشعر أنني أقترب لاستخراج الماس من باطن الأرض، وأخيرًا حصلت

على نبات الماريجوانا، ومن ثم اشتريتنا الأدوات المعملية لتحضيره واستخراجه، كنت أحمله بحذر وبفرحة، عدنا مساءً إلى المنزل وأنا أشعر بالطاقة والحماس لتحضيره.

كانت العملية صعبة ومعقدة، علمت وقتها فقط معنى أن «لا شيء يحدث عبثا»، لماذا اصطفاني الله ويسر لي أن أدرس قسم الكيمياء بكلية الهندسة!

فقط من أجل هذا اليوم.

العملية كانت تحتاج الى مهارة هندسية ووقتية، مكثت بجوار الموقد وأنا استخدم الأدوات بدقة واسترجع جميع ما حفظته عن ظهر قلب، وجميع مشاهد الفيديو التي شاهدتها، ثم استخرجت كمية الزيت المطلوبة وانتهيت تمامًا من مرحلة التحضير.

امسكت بالزجاجة بين يدي، ها أنا أحمل زيت المعجزة، كأنني أحمل بقبضة يدي إكسير الحياة.

كيف سأنقل تلك الزجاجة عبر تفتيشات المطارات بالـ«X-ray“ وبعد المرور على كلاب مدربة خصيصًا لاستكشاف المواد المخدرة...

“Google Search” هو الحل!

- الكربون نشط يمتص جميع الروائح النفاذة، تذكرت تلك المعلومة بعد قرائتها واسترجعت معلوماتي الكيميائية السابقة.

كيف سأغامر بتلك العبوة التي سأغلفها بتلك المادة، وإن فلت من حاسة الشم القوية للكلاب لن أفلت من التفتيش اليدوي إن اكتشفها أحد أفراد الأمن بالمطار!

على كل حال كان الأمر مجازفة قوية، والله يعلم ما بالنوايا، تلك الزجاجة التي أحملها بها أكبر أمل للقضاء على خلايا السرطان اللعينة..

سينقذني الله..سيشعر بي ويلهمني لأجتاز جميع التفتيشات، لن يخذلني الله لأقع بورطة وبتهريب مادة مخدرة لأسقط في أيدي الشرطة الأمريكية!

اللعنة.. ماذا إن حدث وكُشف أمري، سيقضي عمرو أيامه الأخيرة دوني، ستجلس ابنتاي برفقة أختي أو أمي يبدو أنني حملت نفسي للجنون والهاوية..

- ارجعي يادينا وسيبي الزيت.
- لأ مش هستسلم ياعمرو.. الزيت في ايدي وعاوزني أسيبه وأمشي!

الفرصة الأخيرة لدي لإجتياز أحد تفتيشات الشرطة المدعاة NYPD بشوارع نيويورك العامة التي تمتلأ عن آخرها بتفتيشات الشرطة..

وإن انكشف أمري سأعاقب على جريمة.. أتوقع أنها ستكون أقل عقوبة من حدود المطار الدولية.

أخذت جزء من الزيت المُركَّز والمغلف «بالكربون» لأمر من أمام التفتيش وكأنما ألقي نفسي بالهلاك.

تركت «أماني» التي نعتتني بالجنون على أحد الأرصفة ومررت من التفتيش وأنا أحبس أنفاسي، الزيت بحوزتي في أحد جيوب الجاكيت الذي ارتديه، اقترب مني أحد الكلاب الضخمة، ليتركني أمُر في سلام، شعرت وقتها أنني اجتزت المرحلة الاولى بسلام..

شعرت بالاطمئنان أن رائحة الزيت لن تنفذ.. كانت المرحلة الثانية الا ترى الزجاجة المغلفة بالكربون لأنها حتمًا ستخضع للتفتيش وسينكشف أمري لا محالة..

حقبت أغراضي ما بينهم زجاجة الحياة، وانطلقت نحو المطار وأنا اشعر بموسيقى فيلم "Mission Impossible" تدور برأسي..

- يارب إنت عارف أنا واخدة الزيت دا ليه! لا هو للإدمان ولا لي.. ده عشان عمرو يخف.. ساعدني يارب.

"وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون"

استوقفني أحد الموظفين لمغالطة بترتيب كتابة تاريخ الميلاد، شعرت أن قلبي يسقط بقدمي، ثم أتم الإجراءات، لأقترب من مرحلة الكلاب ثوانٍ مرت كالسنوات ثم مررت بال«X-Ray" ليقول لي الموظف:

- يرجى فتح الحقيبة الصغيرة

ابتلعت السوائل التي بالكاد تبقت بحلقي، ثم فتح الحقيبة ليجد بها زجاجة من المياة المعدنية.. لعنت الحظ الذي يضع بطريقي الموظفين.. أخذها لأمر من بعدها بسلام وأجلس على مقعد الطائرة وأدعو الله أن يمنحني السكينة بالأربعة عشر ساعة القادمة حتى أصل إلى أرض دبي.

وصلت إلى المطار وأنهيت إجراءات المطار جميعها، وسحبت الحقائب من السير المخصص لذلك، رأيت عمرو يقف هناك خلف الزجاج، بيننا بوابة واحدة فاصلة بها إجراء تفتيش أخير.

وضعت الحقائب للمرة الأخيرة لتمر في آخر جهاز تفتيش بدبي، لينطلق صوت صفير، فيقرر الضابط تحويلها بغرفة تفتيش

ـ لا حرام، مش ممكن.. أوصل كل ده عشان اتمسك هنا!

هكذا قلت بصوت غير مسموع..

قالت إحدى الضباط النسائية:

ـ الشنطة دي فيها إيه؟

ـ العاب لأولادي وفيتامينات

ـ افتحي لي الشنطة دي

لماذا أشارت عليها تحديدًا! كاد يصيبني الجنون على سوء الحظ

اللعنة على الإحباط، هل قطعت كل تلك المسافة لينكشف الأمر على مسافة خطوات بيني وبين عمرو؟

ـ يارب، أنت ساعدتني كل ده، ساعدني يارب في آخر لحظة، آخر ثانية يارب.. يارب

أناجي الله بقلبي، وأنا أفتح الحقيبة ببطء شديد، لأستمع لصوت هاتفها المحمول ينطلق وتضغط زر الإجابة ثم تنشغل لمهاتفة الطرف الآخر وتشير لي بغلق الحقيبة والإنصراف.

اتسعت حدقتا عيناي غير مصدقة لما يحدث، سحبت الحقيبة وضعتها فوق العربة وانطلقت نحو البوابة بسرعة الصاروخ، عمرو يحملق فيَّ غير مصدق لوجودي أمامه، والدموع تنساب من عينيه ويعانقني.

ـ عمرو امشي من هنا بسرعة، ونسلم بعدين، طلعني من هنا قلبي هيقف.

أخذ يهرول نحو الخارج فقلت له:

ـ براحة، براحة امشي عادي.

لم أشعر بالهواء ولا الأجواء ولا عدت للواقع سوى بعد خروجي من كل حدود منطقة المطار، وكأنني خرجت من بطن الحوت.

وأخيرًا فعلتها، الزيت السحري بحوزتي.



”كيف يجعلنا الحب أجرأ؟“

كانت حقيبتي ممتلئة عن آخرها بالفيتامينات التي قرأت عنها مسبقا وفشلت في الحصول عليها من دبي، وأحضرت بذور الحشيش اللى تسمى بـ «Hempseeds“ التي توضع على السلطة كبذور صحية.

تأهبت لبدء جرعات زيت القنب (الماريجوانا) ولازلت أسير وفق نظام غذائي ممنهج لا أحيد عنه.

كانت الجرعات الأولى له متناهية الصغر، ليتلقى الجسد تأثيره، وتستوعب الخلايا وجوده، أخذت قسطًا صغيرًا من الراحة، التي شعرتها بمجرد رؤيتي له، ومع بدء أول جرعات علاجه كنت أشعر بالحياة تجري بعروقي وكأنني شربت للتو ترياق الحياة.

اشتقت لصغيرتي ”عاليا“، فانطلقت بالطائرة المتجهة نحو الإسكندرية، أجوب شوارعها بأمل وطاقة وسعادة غير مسبوقين.

وجدت الجوافة قد فاحت رائحتها أمام محال الفواكة، والبائعين يمرون تحت البيوت يبيعون أشجار الجوافة الممتلئة بالأوراق الطازجة.

محرك البحث الذي يعمل برأسي أشار لي أن ”مغلي أوراق الجوافة“ مفيد لعلاج السعال وحساسية الصدر، اشتريت فورًا شجرة جوافة خضراء وقررت أن أضعها بحقيبتي بعد أن ثنيتها إلى نصفين، عدت لدبي سريعًا أحمل مفاجأة من اللون الأخضر، قلت:

ـ عمرو تعالا شوف جايبالك إيه.. مفاجأة!

بمجرد أن فتحت الحقيبة، تمددت الشجرة بأوراقها وظهرت كاملة.

ضحك عمرو منبهرًا وهو يقول:

ـ إنتي بتعملي إيه؟ يا مجنونة إنتي.

ـ مفيدة جدا عشان الكحة، هغليلك حبة تشربهم.

كنت أقطف له الأوراق أولًا بأول وأغسلها بالماء النظيف، ثم تغلى على النار، أحضر له كوبا ساخنًا، يشربه رغمًا عنه مغمضًا عينيه، قلت له:

- معلش حبيبي طعمه وحش؟
- مش أوحش من الكيماوي.
- الله لا يعيده يارب
- يارب، وحشتوني جدا، الحمد لله إنك رجعتيلي بالسلامة.
- الحمد لله، عاوزين نوفي بالندر بتاعنا ونعمل عمرة.
- حاضر، هقدم ع التأشيرة ونروح.

عمرو يسترد عافيته شيئا فشيئًا، وبدأت «عاليا» بالحبو أرضًا، كانت ذات شخصية عنيدة قوية، قال لي ونظرة الحسرة تملأ عينيه:

- عارفة يا دينا، البنت دي هتطلع شخصيتها قوية جدًا، وبكرة أفكرك لو أنا عايش.
- إن شاء الله يا حبيبي، هتكون عايش وهنفكر بعض كمان.
- نفسي أستمتع بتربيتهم، وأعيش معاهم وهما بيكبروا، وأشوف كل مراحلهم، انا خايف على جودي لأنها حساسة ورقيقة ومحتاجاني في حياتها عشان أقويها.

كنت أرى نظرات عينيه وهو يطيل النظر لهم وأعلم تمامًا ما يدور بعقله وقلبه تجاههم، أعلم تمام العلم أن النظرة المُطوَّلة لهم هي حديث نفس طويل، وأنه يحصى الساعات والأيام التي سيعيشها معهم والتي تفصله عن وداعهم.

يحتضر قلبي ويتآكل كلما رأيت تلك النظرات، أريد إخباره أنني أريده معنا أكثر ما يريد هو، نريد بقاءه في سنواتنا القادمة، أريد أن تكبر الفتاتين في ظله وحمايته.

عادت الحياة لروتينها، وعمرو لازال يذهب لعمله، وأنا لا أنفك عن أبحاثي واكتشفاتي للعلاج الذي أصبح جزء من روتين يومي.

عمل عمرو شاق جدًا، والخلايا السرطانية تحتاج لراحة الجسد كي تنهار وتتلف، وكأنها تتغذى على الإجهاد العصبي والتوتر، وهو لا يجد راحة الجسد ولا صفاء الذهن بسبب مشكلات العمل الدائمة، يذهب لعمله من الثامنة صباحًا ليعود السادسة مساءً.

استيقظ ذات صباح ليقول لي:

- دينا أنا حلمت إني بلعب كرة سلة وبنط لفوق جدًا وبسجل أهداف باحترافية ورجلي سليمة تمامًا ولما صحيت بصيت على رجلي لاقيتها مش موجودة اتفزعت، بقيت حاسس إنه كابوس ولا حياتنا هي اللي كابوس يا دينا، أقرصيني يمكن فعلا اللي عايشينه ده هو كابوس جايز أصحى منه.

أصبح الكابوس يتكرر بشكل يومي مفزع، وكأنه يتلقى حقيقة بتر ساقه ومرضه من جديد، أصبح يُخبرني برغبة تعتريه للركض آلاف الكيلومترات دون توقف، عن طاقة الغضب التي تتملكه، ثم ينتهي حديثه باعترافه بعجزه وعدم مقدرته لفعل كل ما يثرثر عنه.



”تقدر تطير من غير جناحات!!»

أصبح يغلق هاتفه ويختفي بعيدًا، فأذهب إلى الميناء بالمكان الذي يجلس به حينما يشعر بالضيق والتعب ومرارة اليأس.

- تعالى ياعمرو، نغير جو.
- هنروح فين يعني؟
- نحجز داي يوز في فندق الحياة بلازا، ونقضي يوم عالبحر مع أصحابنا.
- هنروح نتفرج من بعيد والبنات يشبطو في نزول الماية ومش هعرف انزل معاهم!
- هنقعد بس ياعمرو، كفاية منظر البحر اللي بيخرج الطاقة السلبية.
- اللي تشوفيه يا حبيبي طيب.

هاتفت أصدقاؤنا، وحقبت أغراضنا اللازمة، والتقينا بعطلة نهاية الأسبوع.

كانت لدي خطة مُسبقة لتمكين عمرو من السباحة، أخبرته بهدوء، فرفض قطعًا كما رفض القيادة بقدمه اليسرى من قبل، سحبت شيزلونج على الرمال القريبة تمامًا من الشاطىء، ثم عدت للجلوس بجواره والبدء في مناقشة يجب أن أخرج منها باقناعه، قلت:

- افهمني واسمعني، لو معجبكش اللي بقوله بلاش منه، لو عجبك وجربته يبقى انت هتنزل تعوم واليوم هيبقى حلو جدًا.
- ...

- إنت هتمشي عادي لحد الشيزلونج اللي هناك ده برجلك دي عادي، ثم أشرت لساقه التعويضية، وأردفت:
- اقعد هناك، واقلع الرِّجل دي بمنتهى الهدوء، واقعد عالرملة وانزل الماية بالراحة جدًا، الماية هترفعك عادي وهاتعوم بإيدك.

كان واضعًا يداه فوق بعضها البعض وينظر لي باستنكار ثم قال:

- وبعدين هعوم بإيدي بس؟
- لأ رجل واحدة تقدر تساعدك في العوم، أنا شفت يوتيوب إمبارح لناس بتعوم بدون رجلين، صدقني هتعرف.
- عملتي مباحثاتك وناوياها يعني؟
- أنا عارفة إن الحاجز اللى عندك هو حاجز نفسي بس، لكن إنت هتعرف وهتقدر.
- وهطلع ازاي؟ هبقى مبلول ولازم رجلي تبقى نضيفة وناشفة وأحط كريم وألبس اللاينر.
- ولا تشيل هم الكلام ده، معايا لاينر تاني وهحضرلك ماية نضيفة، انزل بس ومتشيلش هم.

سَكت ليفكر بالأمر، فعلمت أنه اقتنع، فأشرت من خلفه لأصدقائه فجائوا لتشجيعه:

- يلا يا سُتره قوم، إحنا معاك أهو هننزل سوا.

كانت ابتسامة الخجل تعلو ملامحه، نفَّذ الخطوات التي شرحناها سويًا، ثم نزل إلى المياة واستطاع الاتزان سريعًا وبدأ في السباحة، فتغيرت ملامحه سريعًا إلى الفرحة والإستمتاع.

عامين! عامين منذ اليوم المشؤوم بالشواء لم تمس مياه البحر جسده..

بعد دقائق كان منخرطًا بالسباحة مع أصدقائه والأمواج الهادئه تؤرجحه يمينةً ويسرة.

ازداد حماسه ثم حاول الصعود إلى دَرج الألعاب المائية التي تتوسط المياة، وأخذ يقفز من أعلاها بالبحر، يضحك ويخرج ليعيد الصعود من جديد، تحوَّلت ملامحه لطفل صغيره تعلَّم السباحة للتوّ، أشار لي ونادى بصوت مسموع:

ـ دينا تعالي

اقتربت بمنشفة أسأله ان كان يريد الخروج، فأشار بيده:

ـ تعالي انزلي.

استجبت له وقلت:

ـ حاضر جاية.

استبدلت ملابسي سريعًا لأشاركه لحظات البطولة التي شعرها، وتقدَّمت نحوه أسبح بالمياه الباردة، قال:

ـ هشيلك زي ما كنت بشيلك زمان.

ضحكت بصوت عالٍ وبحماس يشبه حماسه تمامًا:

ـ يلا شيلني بس ممكن يكون وزني زاد وتقلت عليك

حملني بين ذراعيه كالريشة، ثم ابتسم نفس ابتسامته الجانبية بفخر وفرحة قائلًا:

ـ شايلك أهو وواقف على رجل واحدة، شفتي بقى!

كنت أحيط عنقه بيدي، وأرى كلمات عيناه لا كلمات شفتاه، أرى ابتسامة الانتصار والبطولة التي تعتلي قسمات وجهه، لو يسمح لي الكون أن أعانقه وأُقبِّله طويلًا دون خجل، لفعلتها.

خرج من البحر مستندًا على أكتاف صديقيه ومشوا بضع الأمتار نحو المسبح بالجهة الأخرى، دون الخجل الذي كان يشعره ببداية اليوم، ممتنة كل الامتنان لأصدقائه الذين كانو يبذلوا قصارى جهدهم لإسعاده.

انتهى اليوم، وارتدى ساقه مرة أخرى، وذهبنا إلى السيارة للعودة إلى المنزل، تبدلت نفسيته تمامًا، ثم أخرج من التابلوه مُعطرًا ليضفي للهواء انعاشًا، أمسكت به لأقرأ محتوياته من الخلف ثم قلت:

- لا يا عمرو أنا نسيته ده، مينفعش تستخدمه خالص، كله مكونات ضارة عليك يا حبيبي.

نظر لي بابتسامة وقال:

- ليه يا بروفيسير
- كلها مشتقات كيماوية ومواد طيارة وهتئذيك وهتئذي صدرك كمان.
- أعمل إيه طيب انتي عارفة بحب ريحة العربية تبقى حلوة شوفيلي بديل.
- ممكن أبخرهالك، ع الأقل البخور مش مضر.
- واحنا بقى هنجيب المبخرة كل يوم هنا؟
- سيبها عليا أنا هتصرف.

انطلقت باليوم التالي أبحث عن مبخرة تعمل بالسيارة، ويوضع بها مسحوق البخور، قدمتها له، تناولها من يدي وهو مغمض أحد عينيه، وهو يشير بإصبعه نحوي:

- إنتي ايه إنتي!
- عجبتك!
- تسلم إيدك، حلوة بجد فكرتها، جبتيها إزاي؟
- أنت تفكر بس، وأنا انفذ.

بعد استعادته الثقة بقدرته على السباحة، تشجع لإستعادة التمرينات الرياضية، أصبح يلعب ساعة يوميًا تمرينات الضغط وتجلس عاليا وجودي فوق ظهره ويتبادلا الضحك واللعب سويًا.

قلت له ذات يوم:

- تعالا نخرج نتمشى برة في الكومباوند نشم هوا.
- اتصدقي فكرة! قومي يلا.

خرجنا نتنزه ونتبادل أطراف الحديث فقال لي:

- بصي أنا همشي خطوتين قدامك هسبقك وشوفيني وأنا ماشي بعرج ولا لأ!
- أوك يلا.
- ها باين إني بعرج أو إن رجلي مبتورة؟
- لا خالص، والله مشيتك طبيعية جدًا، لو معرفكش عمري ما هلاحظ أبدًا.

تنفس بارتياح ومسح فوق صدره وقال:

- طيب كويس

- بقولك إيه تعالا نجيب كراسي من جوه ونقعد عند الزرع كده قدام البيت.

- لا بلاش.

- علطول معارضني كده! وعارف إني هزن وألاقي حجة مقنعة وهتقتنع، ريح دماغك وقول طيب.

ابتسم ثم قال:

- طيب، اللي تشوفيه يا لولو.

دخلت لإحضار مقاعد، فهرولت على صوت سعاله المرتفع:

- إيه الكحة دي بس؟ هعملك النهارده مغلي زيت الكافور والنعناع واستنشقهم.

- طيب تمام.

عدت للداخل لجلب المشروب فلمحت جارتي "فريدة" هندية الجنسية التي تنظر من خلف نافذتها وتراقبنا كما كانت تراقب عمرو أثناء خروجه للركض، أتذكر جيدًا نظرات الكره نفسها، أعلم أنها تحبني! لكنه حب مرضي.

ربما هي من أصابته بالعين!

لم لا!

أخرجت هاتفي بينما كان عمرو منخرطًا باحتساء مشروبه، وجلست اتصفح عن طريقة لإبطال عين الحاسد في السنة النبوية.

قرأت عن قصة عامر بن ربيعة الذي رأى سهل بن حنيفة يغتسل فقال: والله ما رأيت كاليوم، ولا جلد مخبأة (أي فتاة عذارء) فسقط على الارض، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامر وأمره بالوضوء ليغتسل منه سهل بن ربيعة، حتى شفي وذهبت العين منه.

نمت وأنا أفكر بالقصة طوال ليلي، وحينما استيقظت ذهبت لجارتي:

- إيناس، صباح الخير.
- صباح الفل يا دينا.
- أنا عاوزة فريدة تتوضى، وآخدماية وضوئها عمرو يغتسل بيها، ولأني بقالي فترة مقاطعاها مش عارفة أعمل إيه.
- طيب ليه مقاطعاها؟
- كل الناس بتشوفني تسألني عمرو عامل إيه، أخباره إيه، إلا هي تشوفني تقولي ازيك اخبارك، كأنها فرحانة فيه أو متعرفش إنه تعبان أصلا، هي بتكرهه فعلا، بقيت بخاف منها أوي فقاطعتها.
- طيب جتلي فكرة.
- قولي!
- احنا نجيبها في تعب بنتي الدائم، وهنقولها إننا بنوضي كل العمارة والجيران وأصحابنا عشان تخف.
- برافو عليكي صح، لأنها لو عرفت إنها لعمرو هترفض طبعا.
- يلا

ثلاث ساعات ونحن بمحاولات إقناعها بالوضوء، وبالنهاية حصلت على الماء وانطلقت نحو عمرو:

- وأخيرا جبتماية وضوء فريدة.
- إنتي إيه إنتي يا مجنونة؟
- ايوة أنا مجنونة، وباخد بكل الأسباب، أعمل إيه!

توضأت أيضًا وناولته الماء وقلت له:

- خد دول كمان اغتسل بيهم
- إيه اللي بتقوليه ده؟
- اسمع كلامي بس، يمكن اللي صابك عين محب، اللي هي عيني، ودي ماية مقري عليها آيات السحر ومنقوعة بورق سدر استحمى بيهم عشان لو في اي سحر لاقدر الله يبطل.

قبَّل يدي وقال:

- أنا مش عارف من غيرك كنت هبقى عامل ازاي! أنا بشوف لطف ربنا فيكي.
- أنا الي من غيرك مكنتش عارفة هبقى عايشة لمين.

ابتسمت ثم أردفت:

- ربنا يجعلهم بالشفا يارب سمي الله.

شعرت أن رأسي يضج بالوصفات التي أصبحت أنساها، أحضرت مذكرة وقلما وجلست أكتب الروتين اليومي للوصفات التي توصلت اليها لعلها تصبح مرجعا لمرضى السرطان يوما (مرفقة الوصفات بآخر الكتاب)

عاد عمرو من عمله يناديني:

ـ دينا، تعالي!

ـ أيوة حبيبي حمدًا الله على سلامتك!

ـ عاملك مفاجأة

ـ أيوة!

ـ تأشيرات العمرة طلعت.

ـ وأخيرًا هنروح مكة سوا.

تعلقت برقبته أعانقه واقبل وجنته أردفت قائلة:

ـ ياه يا عمرو، أنا في أشد الحاجة للعمرة دي الحمد لله، يا دوب نجهز حاجتنا.



”رحلة الروحانيات والسلام النفسي إلى
الأراضي المقدسة»

في غضون أيام، كنا قد أحضرنا ملابس العمرة، وقرأ عمرو عن المناسك، حزمنا حقائبنا وأغراضنا ووجباته الغذائية الجافة، وتخلينا عن جرعات الماريجوانا لعدم إمكانية اصطحابها معنا بالسفر، تركت الصغيرتين برفقة مي شقيقتي وجاء صديقه أمام المنزل ليصطحبنا إلى المطار، قال لي بصوت عالٍ:

ـ دينا حطي شراب زيادة عشان اللاينر بتاع الطرف الصناعي، وهاتي شنطتك يللا العربية جت.

انطلقنا فرحين نحو المطار، وجلسنا بمقاعدنا بالطائرة المتجهة إلى جدة، والهدوء النفسي يغمرنا سويًا، كنا نحلق فوق البحرين، همَمت للقيام من مجلسي مُتحججة بدخول دورة المياة، فقال لي:

ـ رايحة فين؟ الحمام أهو قصادنا.

ـ طيب هشوف حاجة بس في آخر الممر وأرجعلك.

ـ أنتي عاوزة تعملي إيه؟

ـ نفسي تبطل أسئلتك وعنادك دول.

تركته والتقطت صورة عبر النافذة من فوق البحرين مكتوب بها:

“Happy Birthday Amr From Bahrin”

وخبأتها لحين إشعار آخر.

التفاؤل يختلج صدري، كنت أتنفس بحرية، أشعر الحياة قادمة نحونا وأنا أخطو نحوها وسنلتقي بعناق الأحبة، قاطع شرودي قائلًا:

ـ شفتي السحب يا دينا، سبحان الله!

ـ سبحان الله ياحبيبي!

ـ على فكرة ده قطن مصري طويل التيلة.

انفجرت ضاحكة وأنا أقول:

ـ إنت مفيش حاجة تعديها من غير ما تعلق عليها!

ربما كانت كلماته مضحكة! وربما لا، لكنني أريد أن أنفث من صدري كل المخاوف والقلق والحزن، واستبدلهم بالضحك والحياة والتفاؤل، أملي بربي كبير، سيُشفى وستنقشع الغمة التي غيمت فوق رؤوسنا.

***

وصلنا إلى مطار جدة وأخذنا طريقنا نحو مكة، صعدنا إلى الفندق ووضعنا حقائبنا، جلست فوق السرير أتأهب للنوم بملابسي قائلة:

ـ تعالى نرتاح من المشوار شوية عشان رجلك وبعدين ننزل؟

ـ لأ، الأحسن إننا ننزل العمرة علطول واحنا عاقدين النية، إنتي تعبانة؟

اعتدلت فورا قائلة:

ـ لأ خالص، يلا ننزل حالا.

شعور النظرة الأولى للكعبة، رهبة وعظمة وخشوع وطمأنينة، قشعريرة سرَت بجسدي، لهفة تجتاحني إلى الركض في دائرة الطواف وبدء المناسك، شعرت بروحي تطفو فوق جسدي، وتتسلل من أطرافي جميع المخاوف وتتساقط الأثقال من فوق كاهلي، نسيت جميع الأمور الدنيوية، نسيت خوفي وقلقي على ابنتاي، لا تشتهي نفسي سوى البقاء

هنا والنظر صوب الكعبة، أشعر وكأنني الأسعد والأطهر قلبًا وروحًا على وجه الأرض.

نظرت لعمرو الذي كان مُحملقًا بعيناه اللامعتين نحو الكعبة، التي تشع سعادة وفرحة لا يوصفان، قال:

- دينا، الكعبة أهي، احنا شايفين الكعبة.
- الحمد لله ياعمرو، الحمد لله.
- أجبلك كرسي تقعد عليه؟
- لا أنا هعمل العمرة على رجلي، أنا ربنا مديني قوة متتخيلهاش، لازم أحس بالمشقة دي، السيدة هاجر كانت هنا في الحر مش تكييف وسيراميك زي اللى احنا فيهم، ولا كان قدامهاماية في كل خطوة زي اللي قدامنا، يلا يادينا.

كان يستشعر روحانية المناسك ويؤديها بجوارحه، تقدمنا خطوات نحو موضع الصلاة، قلت له:

- يلا نصلي ركعتين ياعمرو.

أطلت السجود وبكيت وأنا أشعر برائحة المسك تفوح من الأرض الطاهرة، أبكي ولا أعلم سبب بكائي.

أأأنهينا مناسك العمرة الأولى، جلس عمرو فوق مقعد صغير يقرأ القرآن ويدعو، وجالسة بجواره أرضاً، كان إحرامه يكشف عن ساقه وطرفه الصناعي، كانت ترمقه عينا أحد عمال النظافة، يتبع ساقه ويطيل النظر إليه، لم يلحظ عمرو نظراته بل كان مستغرقًا بالتلاوة، وأنا أتبع العامل الذي يتصنَّع التنظيف أمامنا ليقترب من عمرو ويشبع فضوله تجاه ساقه.

شعر بالإجهاد والتعب وأخبرني أن موضع الطرف الصناعي يؤلمه كثيرا.

صعدنا إلى الغرفة بالفندق، كشف عن ساقه لأجد جروحًا قطعية وتجلطات دموية نتيجة التعرُّق والإحتكاك، بمجرد أن خلع الطرف، تألم بصوتٍ عالٍ وشعر بخلايا جلده تنسلخ من فرط الوجع.

- لازم تريح رجلك ياعمرو، قلتلك ترتاح النهارده من السفر، أو تقعد على كرسي، أجهدت نفسك، عشان تقدر تعمل عمرة لباباك، مش هننزل إلا لما تتحسن.
- حاضر.

كنت أقطع مئات المترات ما بين الفندق والسوبر ماركت لإحضار متطلباته الخاصة بالطعام وتحضير وجباته بالغرفة.

تورمت قدماي مساءً نتيجة للإجهاد المتراكم الذي تعرضت له منذ وجودي بنيويورك والإسكندرية مرتين متتاليتين، ربطتها بأحد الأربطة الطبية ورقدت بجواره أتألم أنا الأخرى.

بعد أن أخذنا قسطا من الراحة، عزمنا باليوم الرابع على أداء عمرة أخرى، كانت عمرتي الثانية أكثر خشوعًا وهدوءًا لفقداني الكثير من تفاصيل المناسك التي كان يؤديها عمرو، ويغفل عن شرحها لي باستفاضة، وأدى عمرته الثانية لوالده، كان يؤدي تلك العمرة وكأنما يعتذر له عن الأيام التي قضاها بعيدًا عنه.

أتذكر أن جميع دعواتي بالعمرتين كانت له، كنت أتضرع إلى الله أن يشفيه ويبقيه بجواري، وأن يجعلنا الله سبباً ذات يوم لشفاء مرضى السرطان.

- تعرفي يا دينا، نفسي أصلِّي في حِجر إسماعيل، بس صعب جدًا شايفة الدنيا زحمت إزاي اكتر من امبارح.

صمَتْ، لكن لصمتي أغراض أخرى، لقد تمنى عمرو وجب عليَّ التنفيذ.

هممت للذهاب فقال لي:

- رايحة فين؟

- هروح أشوف ضابط يدخلنا حجر إسماعيل.

- أنا بقولك نفسي، وعارف إنه مستحيل.

- طيب هجرب بس.

- دينا مكنتش كلمة قلتها، إنا لو بصحتي مش هعرف أدخل في الزحمة دي، وخصوصا بعد الفوج اللي جه ده.

كنا جالسين بصحن الطواف بالأعلى، بعد أن انتهيت من الصلاة قلت له:

هروح أشوف الضابط طيب، مجرد محاولة

- لو نزلتي يا دينا روّحِي لوحدك ع الفندق.

- طيب.

حادثت نفسي بخفوت:

- هصالحه بعدين.

ذهبت لأُحُدِّث أحد الضُباط، كان مُعلَّقًا فوق قميصه بطاقة تحمل اسمه (عبد الله العريشي)، قال لي:

- تعالي يا أختي قبل صلاة الفجر وإن شاء الله بدخلكم.

عدت إلى عمرو الغاضب لأخبره عما قاله العريشي، فجاءني رده المعتاد:

- استحالة نعرف ندخل بتحلمي!

ألا يعلم أنني لا أعرف للمستحيل طريقًا؟

قبيل الفجر كنا بالحرم، عمرو لا يهتم بما أفكر به لاعتقده باستحالة تنفيذه، وأنا أبحث بعيني عن العريشي.

- بتدوري على إيه؟ مش شايفة الزحمة؟

كان العريشي يقف بِجوار الكعبة، حاولت الوصول إليه، فدخلت بين الطواف، كنت أَعلق معهم في مسارهم الإجباري ولا أستطيع قطع الخط المستقيم لأصل له، فاضطر الخروج بنهاية الطواف من الجهة الأخرى.

تذكرت المشهد الذي تابعته الأيام الماضية من صحن الطواف بالأعلى، حينما يدخل عمال النضيف يوميًا متشابكو الأيدي، ليدخلو بوسط الجموع في خط مستقيم، فيفسح لهم المعتمرين الطريق نحو حجر إسماعيل.

رأيتهم بتلك اللحظة قادمين من بعيد، فانطلقت نحو عمرو وأمسكت بيده:

- يلا ياعمرو

- هتعملي ايه؟

- بابا مرة قالي لما تشوفي عربية إسعاف في الزحمة الزقي فيها عشان هي اللي هتعديكي وتخرجك

ثم أشرت نحو عمال النضافة الذين أصبحو على مرأى البصر أمامنا، وأردفت قائلة:

- أمسك فيهم ياعمرو متسيبهمش، دول اللي هيدخلونا لجوه.

في خلال ثوانٍ تُحسب كغمضة عين، انفرج الزحام ومررنا من خلاله سريعًا، ثم عاد وانغلق كما كان!

أتممنا الجزء الأول من المهمة، وأصبحنا مقابل باب حِجر اسماعيل الذي سيصعب علينا تخطيه دون الضابط، كان موقعه بالجهة الأخرى من وجودنا، ظللت أفكر لدقائق، كيف سأناديه ليأتي إلينا!

كان علي التصرُّف سريعًا، لاقتراب موعد صلاة الفجر، كان العمال قد بدأو في تنضيف ساحة حجر إسماعيل، رأيت عامل النظافة الذي يحملق بساق عمرو بالأيام الماضية، ابتسمت وكأنني حققت انتصارًا قلت له:

- عمرو شاور للعامل ده هيجي بسرعة

نظر لي عمرو متعجبا لما أفعله، فأردفت قائلة:

- هو ده اللي هيجبلنا العريشي اسمع كلامي.

أشار له، فجاء مهرولًا نحونا، فقلت له:

- لو سمحت روح نادي على عبد الله العريشي من هناك.

نظر لي عمرو بابتسامة وقال:

- ازاي فكرتي كده!

- مركِّز معاك من ساعة ما جينا، اتأكد انك أول ما هتناديه هيجي فورًا

اختفى العامل عن أنظارنا بضع دقائق، ثم عاد وبرفقته الضابط، قال:

ـ اتفضلوا ادخلوا.

قلت له باستغراب:

ـ أنا كمان؟

ـ أيوة يا أختي، بس بسرعة لأن الفجر هيأذن.

كانت الأرض ما زالت باردة موضع التنظيف، لم يكن بحسباني أن أدخل وأُصلي بجواره، كان أقصى أمنياتي أن أحقق أمنيته فقط!

سخَّر الله لنا هذا العامل، لتَعلق عيناه بساق عمرو ويحفظ وجهة لأجده بهذا التوقيت ليجلب لنا العريشي ويكون سببا أن نصلي سويا في حجر إسماعيل!

لا شيء يحدث عبثا!

جميعنا نلتقي بسبب ولسبب.

كنا نقف وحدنا، صليت ركعتين قبل أذان الفجر، ووجدت عمرو ساجدًا سجودًا طويلًا، شعرت جسده يرتجف من هول الموقف غير مُصدقًا لوجوده بتلك البقعة الطاهرة التي تمنى أن يصلي بها.

كان شعورا ومذاقا آخر لصلاة الفجر في تلك البقعة، انتهينا من الصلاة، فذهبت نحو الضابط الذي كان لا يزال واقفًا عند الباب وقلت له:

ـ ممكن آخر طلب؟

ـ أتفضلي.

ـ ممكن نروح عند الحجر الأسود

ـ تعالوا!

سرنا خلفه، مُلتصقين بالكعبة تمامًا، ويدينا تَمُر على ستار الكعبة وعمرو يقول:

ـ دينا إحنا لامسين الكعبة شفتي!

وانا أبتسم وأنظر تجاه يدي وأقول:

ـ أيوة ياعمرو شايفة.

أصبحنا مواجهين للحجر الأسود تمامًا، وضعنا وجوهنا فوقه، ومسح بسبحته التي لازالت تحمل رائحة الحجر حتى اليوم، دعونا الله بما تحمله قلوبنا، خرجنا من الحرم ونحن نشعر أنه لا شيء على وجه الأرض يمكن تمنيه بعد الآن.

لاشعور يضاهي سلام النفس والروح، والصفاء الذي نشعره، لاشيء نتمناه من تلك الحياة بعد الآن.

وما زرع الله في قلبك رغبة إلى الوصول لأمر معين، إلا لأنه يعلم أنك سوف تصل بمشيئته.

(حمدًا لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا).

نظرت له نظرة ثاقبة وقلت له:

ـ ها؟

ضحك وهو يشيح بوجهة قائلًا:

ـ عارف، هسكت أهو، إنتي كان عندك حق

ـ طيب متتكلمش معايا تاني لما أقولك على حاجة وأكون متأكدة منها، متبقاش تقاوحني.

ـ حاضر.

قالها وهو يضحك من قلبه بسعادة، قلت له:

- ها خلاص صالحتني؟

أمسك بيدي وضغط عليهما بخفة قائلًا:

- صالحتك.

في اليوم التالي ذهبت إلى أبراج الساعة، وحصلت على وقف لتحفيظ القرآن بإسم «عمرو عبد الستار» وخبأته لأقدمه له بعيد ميلاده.

عدنا من مكة إلى بيتنا بدبي، لنستعيد حياتنا من جديد، عملت بأوقات جزئية لإضافة دخل شهري ولو صغير ليكفي احتياجاتنا وأغراضنا.

اقترب مارس على الإنقضاء، وانا أفكر كيف سأصنع له حفلا ممتلئًا بالكيك والسكر والحلوى!

بعد أن فكرت كثيرًا، هُديت لأن أصنع له تورتة من الفواكة، وقررت تجهيز حفل صغير بالمنزل ودعوت أصدقاؤنا المقربين.

قدمت له صباح يوم ميلاده وقف تحفيظ القرآن.

دمعت عيناه، وأمسك بيدي وقبلهما وعانقني وهو يقبل رأسي قائلًا:

- دي أحلى هدية جاتلي في حياتي، أوعديني دائما تعمليلي كده.

- أوعدك.

أحضرت له الفيديو الذي أخرجته له، كان عبارة عن صور من مختلف أنحاء العالم لأصدقاؤنا، يحملوا لافتات وأوراقاً مدون بها عبارة:

"Happy Birthday Amr" من مدينة (....) جمعت له ما يقارب الخمسين صورة من مختلف دول العالم، واختتمت الفيديو بموسيقى أغنية عمرو دياب «ومالو"، لنستعيد ذكريات لقاءاتنا الأولى منذ كنا نتصارح بالحب.

كيف مرت سبعة أشهر! والحياة تسير بنمطية وهدوء بلا اضطرابات استعاد بهم عمرو صحته نسبيًا، الطعام الصحي الذي يتناوله قد ظهر نتائجه على وجهه وجسده، الجميع يشهد أن عمرو أصبح أجمل مما كان سابقًا، كنت أظن أن حلم الشِّفاء قد تحقق وتخلصنا من شبح السرطان والأشاعات، حتى اكتشفت وجود ورم بأعلى الفخد بعد انقضاء هواجس ظهور الأورام، هرولت إلى الأشعة وكانت المرة الوحيدة التي أخرج منها مطمئنة، لم يُحسم الأمر عن تصنيفه كـ "ورم"، النتائج تخبرنا أنه من المُحتمل أن يكون تليف نتاج إجراء عدة جراحات استئصال بتلك المنطقة، القلق يساورني، والخوف يفتك بي أن يعود السرطان مجددًا، كل ما نتبعه من أنظمة علاجية ما هي إلا وقاية، حمية غذائية وزيوت طبيعية، وزيت الماريجوانا قد انتهت جرعاته، قررت أن أبحث عن نظام علاجي أشد قوة لعلنا نتخلص من الهواجس وظهور التورمات.

خرجت بتلك الأبحاث:

- Coley's Toxins

طبيب يدعى coley، كانت تتعالج لديه طفلة ذات الثلاثة عشر عامًا، كانت فائقة الجمال، أصيبت بسرطان العظام بالذراع وتم بتر الذراع بالكامل، شعر الطبيب بالانهزام فقرر توجيه طاقته لاكتشاف شيء غير طبيعي لهزم سرطان العظام بوجه التحديد، اكتشف أحد انواع

البكتيريا، يُحقن به الورم في جسد المريض، فيُنذر الجهاز المناعي بوجود خلل ما بالجسد، فيبدأ بتكوين أجسام مضادة ورفع المناعة تجاه الجزء المحقون وبدوره يقوم بمهاجمة السرطان المتواجد بالورم، كانت أعراض الحقن ارتفاع بدرجة الحرارة المفاجىء والرعشة والتشنجات.

بعد أن أجرى تلك التجربة، تفاجىء بوفاة المرضى من تأثير البكتيريا وأعراضها، قبل أن يقتلهم السرطان.

تم تطوير الأمر، وقتل البكتيريا قبل الحقن، ثم أعاد حقن الأورام بها، ظهرت الأعراض كرد فعل تلقائي لوجود أجسام غريبة بالخلايا، ونجح الأمر، المرضى لم يتعرضوا للموت، وتم تنشيط الجهاز المناعي، وشُفيت معظم حالات السرطان بتقنية البكتيريا، لم يستمر طويلًا وتعرض الطبيب للاغتيال.

منعت تقنية العلاج من الممارسة بأمريكا، وانتقلت إلى المكسيك بأحدى المراكز الطبية الكبيرة تحت إشراف طاقم أطباء ضخم.

Gerson Diet: نظرية جيرسون تخبرنا أن العالم الذي نعيشه مسرطن حتى الهواء الذي نتنفسه، يتبع جيرسون حمية غذائية صحية دون ملح أو سكر، ومناخ صحي تماما، حتى الماء الذي نغتسل به لا بد وأن يكون صحيًا.

Blood Therapy: كان النظام يعود لطبيب من أصول عربية لبنانية، يتم العلاج بسحب عينة من الدم، تدرس جيّدًا وتعالج كحالة خاصة لأن لكل جسد خواص مختلفة عن الآخر، ثم يتم مضاعفة كرات الدم الحمراء وتعويض ما ينقص الخلية.

راسلت كل مركز على حدة، وأرفقت بالإيميل تقارير عمرو الطبية، والعلاجات التي خضع لها، والجراحات التي أجراها، قوبلت بالرفض.

كل الأنظمة تتعامل مع السرطان النقي، قبل أن يتم التدخل جراحيًا أو يتم استئصاله، المنظمات ترفض الكيميائي لاعتباره سموم وترفض التدخل جراحيا للأورام لأن تلك التقنيات تزيد من ذكاء عقل الخلية فتطور من نفسها وأجزائها بشكل أعقد.

راسلت مركز Northern baja healthing center والذي يقع بحدود المكسيك، تم قبول حالة عمرو وكنت بانتظار التفاصيل والتكاليف.

كان المركز يتبع جزءا من نظام Gerson الغذائي، ويعالج المريض ب B١٧، ويعالج أيضًا بوضع المريض بكبسولة أكسجين لتشبيع الخلايا بالأكسجين حيث ان الخلايا السرطانية تموت في وجود الأكسجين كما شرحت بالسابق «استخدام ماء الأكسجين يوميا»، العلاج بالحرارة والساونا كانت من الأنظمة التي تقضي على السرطان أيضا، الحقن بفيتامين C، واتباع الحقن ببكتيريا Coley's Toxis، وفي النهاية استخدام تقنية Immuno Therapy لمضاعفة كرات الدم البيضاء بالدم.

شعرت وقتها أنني أصبت الاختيار وأوجزت جميع الاختيارات بمكان واحد، الآن شعرت أنني سأحصل على جائزة نوبل لعلاج السرطان، كل الأنظمة التي أتبعها صحيحة ويعالج بها مراكز متخصصة بالمكسيك ويذهب إليها المرضى من شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها لاتباع تلك الأنظمة.

كان الورم بساقه يزداد حجمًا، والألم أصبح مضاعفًا، قررت إعادة الأشعة مرة أخرى، لتُخبرني تلك المرة عن الحقيقة التي أحاول الهرب منها، نعم خلية سرطانية جديدة!

اللعنة على السرطان، اللعنة عليه كيف أحاربه أكثر مما أفعل!

هاتفت دكتور أحمد لأخبره عن قرارنا لسفر المكسيك، أخبرني أن أزوره بالمستشفى، ذهبت على مضض، رغم أنه يخبرني الحقيقة، إلا أنني أشعر بمرارتها دومًا، وأنا في أشد الإحتياج لجرعات مكثفة وريدية من الأمل والتفاؤل، قال لي كعادته وبإسلوبه الصريح:

- يا بنت الحلال، إنتي جمعتي تلاتين ألف دولار عشان تروحي بيهم المكسيك! خليهم لعيالك لأنك هتحتاجي الفلوس دي، مفيش حاجة بتحوق في سرطان العظم، عمرو مش هيستحمل سفر وطيران وضغط جوي، السرطان دخل الرئة وقايلك الكلام ده من زمان، سبحان الله إنه جسمه بيقاومه لحد دلوقتي، لو ـ لا قدر الله ـ تعب في الطيارة هتدخلي في قصة تانية خالص إنتي في غنى عنها.

ألا يشعر الدكتور أحمد أنه يلقيني من مبنى شاهق من الطابق المائة! أنا أنهار وقلبي يسقط أسفل قدمي من حديثه، لماذا يخبرني أنه لا أمل من الشفاء، وإن كان صحيحًا، فلقد أخبرني قبل سبعة أشهر أن السرطان قد استعمر الرئة وأنه لن يتبقى له أكثر من شهر وستسوء حالته، حمدا لله لا زال على قيد الحياة وحالته أفضل مما سبق، ما أتبعه صحيحًا، قلت له وأنا أتماسك رغم أنني انهزم داخليًا:

- يادكتور أحمد أنا لو معايا أكتر من المبلغ ده تلات مرات مش هقصر مع عمرو حتى لو هافشل، مش هسامح نفسي لو فضَّلت الفلوس على إني أجرب حاجة تنفع معاه وتشفيه حتى لو رحت جبتها من أخر مكان في العالم، كل الفرص وكل الأسباب هاخد بيها.

يعلم عِنْدي وصلابة رأسي، أعتقد أنه تركني وشأني لتوفير حديث لا جدوى من إقناعي.

عمرو هو الآخر متردد بشأن السفر، ويبدو أنه قد شعر بسبب زيارتي للمشفى وجدته يقول حينما عدت من الخارج ونحن جالسين على الطاولة نتناول العشاء -حيث أنني أتناول من نفس وجباته التي لا طعم لها:

- دينا، بقولك إيه أنا مش هخف، أنا عارف، سيبك من السفرية دي بقى، الورم عمال بيكبر ومفيش فايدة، سيبي الفلوس دي حرام تتصرف عالفاضي.

ثم أردف:

- إنتي جمعتي كل الفلوس دي من الناس بأعجوبة، معتقدش حد هيرضى يساعدنا تاني، احنا تقلنا عليهم، خلي الفلوس لولادنا ياعالم بكرة فيه إيه، احنا نختفي إسبوعين ونقول للناس إننا سافرنا، وكأننا اتعالجنا والعلاج منفعش معايا.

- لا ياعمرو، لو الفلوس دي مكنش موجودة، كنت هشوف حل حتى لو هبيع شعر راسي، ولا حتى أبيع كليتي، هانروح وهتتعالج.

ظل شاردًا ثم قال:

- طيب يادينا أنا لما أموت إنتي هتوعديني تعملي كام حاجة وهقولهملك بالترتيب.

التقط يدي ليُمسك بها، وأخذ يعد على أصابعي:

- قدامك شهر تزعلي عليا فيه، مش أكتر من شهر، شهر كفاية أوي، هسيبلك فلوس التأمين بتاع الشقة ده يتاخد منه أول شهر بعد ما أموت، وهدفع إيجار شهر كمان مقدم، ده الشهر التاني بعد موتي وبعد ما تخلصي زعل عليا، لازم فالشهر ده تدوري على شغل، عاوزك تحاربي عشان تفضلي هنا في دبي.

قاطعته قائلة:

- بس ياعمرو

- اسمعي يا دينا بس متقاطعنيش، كدة شهرين اتدفعوا، أكيد أصحابي والناس في الأول هيكونوا متعاطفين معاكي، هيساعدوكي تلاقي شغل، ومش بعيد شركتي توظفك عندهم.

نظراتي كانت تائهة في عيناه، وبين الأشياء التي يمليها لي ويحصاها على أصابعي، ماهذا الجنون الذي يخبرني به؟ أيخطط لحياة ليس موجود بها؟

أردف ليقول:

- العربية بتاعتي متبيعهاش، عربيتك هي اللي هتتباع وهتخلي عبد الله صاحبي هو اللي يبيعها بيفهم في الأمور دي وهيعرف يتصرف

ثم أمسك بهاتفه ودخل إلى تطبيق عبر الموبايل، ثم أتم إجراءات نقل ملكية السيارات من خلاله.

ثم قال:

ـ كلمي حد بتثقي فيه في مصر ينقل شقة اسكندرية بإسمك وماتقوليش لحد دلوقتي خالص يا ديناأأ.

لازالت أنظر له بعدم استيعاب ليدخل إلى تطبيق البنك وبياناته ويقول:

ـ ده حساب البنك بتاعي....

ـ عمرو إنت هتخف و...

ـ ششش، يلا قولي ورايا اللى أنا قولته عشان متنسيش..

أصبح هاجسه بالفترة الأخيرة أن أردد وصاياه بالترتيب الصحيح كما ذكرهم تمامًا وكأنه منهج مقرر.

كان جالسًا يلعب بالبلاي ستيشن وأنا أفكر، أين سأترك عليا وجودي؟ كيف سأحتفظ بأطعمته الطازجة عشرين ساعة في رحلة من دبي إلى نيويورك ومن ثم سان ديجو ومنها إلى المكسيك.

ـ دينا سمعي اللي قولتهولك.

هداك الله يا حبيبي، لو تصمت عمَّا تقوله وتدخل برأسي وتسمع الضجيج الذي يحدث به، لكني سأضطر للرد عليك كي لا تدخل معي بنقاشات حادة أنا في غنى عنها.

ذكرت له وصاياه التي حفظتها عن ظهر قلب، قال:

ـ تمام

ثم أضاف:

ـ وماما يا دينا متعمليش معاها مشاكل.

ـ أنا أوعدك مش هعمل مشاكل معاها ياحبيبي، بس يارب متجيش تنكشني عشان مقدرش أوعدك إني هقدر أسكت.

ـ يعني أنا هموت من هنا وهتمسكو في خناق بعض!

ـ أنا مش هاجي جنبها، بس هي تسيبني في حالي، ويارب ما يجي يوم وأقول فيه «أديك شوفت ياعمرو»، بس اللي أوعدك بيه عمري ما هفتعل مشاكل معاها

ـ يا دينا أفهمي، أمي هتبقى زعلانة عليا، وهيبقى كل همها البنات، صدقيني هتتغير معاكي.

ـ إن شاء الله هتبقى كويس وهتخف ولا هيحصل كل حاجة من اللى بتقوله ده، وكفاية طاقة سلبية عاوزين نفكر في ترتيبات الرحلة.



أحب صلاة الإستخارة، فهي منارة حياتي، توضأت وصليت ركعتين لأطلب من الله أن يدلني الخير بخصوص السفر إلى المكسيك، ثم خلدت للنوم.

في المنام، كنت أرتدي معطفًا أبيض اللون وأعمل بمكان كل تفاصيله باللون الأبيض حتى الأرضيات، يعمل تحت إشرافي فريق عمل كبير، المكان كان فوضوي بشكل مثيرًا للإستفزاز النفسي، وأنا الوحيدة التي تعلم طريقة تنظيمه، وأعلم أنه يحتاج وقت وجهد وصبر، أركض حول نفسي وكأنني أطوف بدائرة، أعطيهم الأوامر كي نتمكن من سرعة الإنجاز، تقدمت لخطوات لأرى السور الذي يتوسط الدائرة التي أمشي بها، وجدت انني بالطابق العاشر تقريبا ومن تحتي طوابق عديدة بنفس الشكل الدائري، وبالأسفل بحيرة صغيرة تتوسطها الكعبة!!

ثم أنجبت طفلة صغيرة شديدة الجمال، لاتشبه طفلتينا، طلبت من عمرو الذهاب لإحضار حليب، شاهدته يذهب، لكنه دخل أمامي لمدينة أخرى غاية في الجمال، حاولت إرضاع الطفلة حتى يعود، فشاهدت شلال من الحليب يتدفق من جبل كما لو كان بالتصوير البطىء يشبه نافورة الشيكولاتة، كان المنظر مريح جدًا للأعصاب، ثم اختفت الطفلة، فشاهدت عمرو يقف أمامي بمكان واسع والأرض بها ماء يكاد يغطي كعوب أقدامنا، وأرى من بعيد خيال أقدام ثنائية، أقدام عديدة، والراحة تكسو وجه عمرو، معافى تماما ولا يرتدي ملابس، يمد يده وينتظر ذهابي له، عبرت نحوه ثم وقفت على ساقيه، قال:

بصي رجلي الإثنين سليمة، بصي مفيش أورام أهو

ـ مشيرًا نحو فخذه

استيقظت من النوم وقصصت عليه المنام فقال:

دينا أنا مش هخف، اللي إنتي شوفتيه ده بإذن الله الجنة، بس انا مش هخف.

***

بحثت عن تفسير الحلم فوجدت أن بقديم الزمان قبل بناء الكعبة، كانت بالفعل صخرة تخرج من تحتها الماء، وشاهدت أيضًا صورًا تاريخية أن الكعبة اصيبت منذ زمن بفيضان وسيول بنفس الصورة التي شاهدتها بالحلم.

رحلة المكسيك - نوفمبر 2016

كان عمرو يشعر أن تلك الرحلة غير مجدية على الإطلاق، ومجرد سبب قررنا اتخاذه، وإرضاء لرغبتي في المحاولة، كان يصفها لي أنها أموال تُنفق هباءً.

أحد عشر ساعة بالجو حتى وصلنا إلى نيويورك، أحضرت علبة لحفظ الأغذية تحوي أطعمته التي يستطيع تناولها على مدار اليوم، ونتحدث طوال الطريق دون أن نشعر بالوقت، حقًا أصبحت أحب السفر برفقته، ولا أمل من حديثه مهما طالت المدة:

- دينا تفتكري هخف؟

يسألني نفس الأسئلة، وأرد بنفس الردود دون ملل وأحدثه عن ضرورة الإيمان بالله، والأخذ بالأسباب.

وصلنا إلى نيويورك ومنها إلى سان دييجو، وصلنا للمركز الطبي بالمساء، ثم صعدنا للغرفة.

المكان رائع ويعتمد على الراحة النفسية للمريض، وقف عمرو بالشرفة ثم قال:

ـ كان نفسي نسافر مكان زي ده، ونروَّق بالنا بعد اللي حصل، شايفين الجمال ده كل بس للأسف دماغنا مشغولة ومش قادرين نستمتع بيه.

صمت ليأخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

ـ أوعدك لو خفيت في يوم من الأيام هاوديكي المالديفز.

ثم أمسك بيدي يقبلها ويقول:

ـ أنا عارف انتي تعبتي معايا قد ايه.

خلدنا للنوم إثر إجهاد السفر، طُرق باب الغرفة بالسادسة صباحًا، ودعونا للإفطار الجماعي.

كان نظام المركز الطبي يعتمد على المشاركة الجماعية بكل الأشياء وأدق تفاصيلها، الوجبات جماعية، تناول العقاقير والأدوية بنفس الغرفة،الحديث بينهم به عامل مشترك وهو الإصابة السرطان، يشعرون بالألفة والتشابه، ويتناولون عصائر طازجة بعبوات زجاجية مُدون على كل منها إسم المريض، يتناولون أغذية صحية تتبع نظام جيرسون، يصبحون كعائلة، يحكي كل منهم قصته، كل مريض يرافق شخصًا قريب منه، الجميع بداخلهم الحزن والخوف من الفقد، ينبض بهم أمل ضعيف للشفاء، دموعهم محتبسة وصراخهم يدوي صامتًا، لكن

الجميع يُظهر عكس ذلك، يُظهر المرح والتفائل والحديث والمزاح، نخلق أجواءً يحتاجونها، نصنع الإبتسامات التي تدعم حطامهم وآلامهم لتتقبل أجسادهم العلاج بنجاح.

كل يسير تبع نظام دقيق، ومعايير ومواعيد محسوبة بدقة وعناية شديدين، الأطعمة تطهى بالبخار، والفيتامينات يتناولها بالدقيقة، العصائر طازجة مُضاف لها زيوت علاجية، ويتم تفريغ السموم من أجسادهم بحقن شرجية من القهوة العضوية ومكونات أخرى كما كنت أفعلها من قبل.

جلسنا مع المجموعة المتعالجة، نتبادل أطراف الحديث، كل يحكي قصته كما نشاهدهم في الأفلام، جاء دور عمرو ليقص عليهم قصة مرضه، ثم أهداني بالحديث دور البطولة، تحدث عني وعما أفعله من أجل شفائه، كانت تنساب دموعهم متأثرين بالقصة، قالوا لنا إن قصتنا صادقة وتحمل معاني الإنسانية والحب الصادق والوفاء.

جاء موعد دخوله كبسولة الأكسجين، شعرت أنه وضع في تابوت، شعرت أنه اُنتزع مني وذهب للموت، كنت أنظر له من خلف الزجاج ورغبة تجتاحني في فتح هذا الصندوق وجذبه لي بقوة، ينظر لي وأنا أعلم انها يقرأ ما يدور برأسي المعقد المتشابك.

"ياحبيبتي، قد رأيتك تأخذين صورة لي وأنا داخل كبسولة الأكسجين، أعرفك جيدًا وأفكر فيما تفكرين به وأشعر مثلك، آسف أني لا أسمح لكِ أن تبكي أمامي، فأنا أفضل ألم الأورام في جسدي عن رؤيتك حزينة، ووالله أنني أستمد قوتي منكِ.

نعم ستقفين يومًا على قبري هكذا ولكن لن تريني..

دينا.. يا عمري القصير-شايفك بتضحكي - يارفيقة دربي وأمي وأختي وصديقتي، يانعمة ربي أنا أرى لطفه بي فيكِ، كوني قوية كما عهدتك واعلمي أنني بخير وإنني إن كنت وقتها مخيرًا أين سأكون، فسأختار أن أكون بجانبك دومًا، وسأناجي ربي أن يحفظك ويلهمك الصبر والقوة، لاتخافي، سأقول له لا أريد حور عين بل أريد دينا!

سأنتظرك هناك حيث بشَّرك الله حيث رأيتِ الأنهار تجري من تحت أقدامنا، اصبري يادينا كي نلتقي بالجنة سويًا»

(أحد رسائله لي التي كتبها بعد أن خرج من الكبسولة)

دقائق كانت تمر علينا بطيئة مميتة، حمدت الله حينما خرج لي ورحت أعانقه بشدة، ثم ابتعدت عن انفاسه حينما تذكرت الضيق الذي كان يشعره قبل قليل.

تم سحب عينة دم من جسده، ثم جاء موعد حقنه بالبكتيريا، وبعد مرور عشرة دقائق من الحقن، أصابته رعشة وتشنجات قوية كانت تهز فراشه بقوة وكأنما زلزال بقوة ٨ ريختر قد ضرب جسده، ارتفعت درجة حرارته بسرعة، والعرق يتصبب منه، كان جميع المرضى قد تلقوا نفس البكتيريا بنفس الغرفة، ردة فعل جسده كانت أقوى من الجميع، أخبرني طاقم التمريض أن الأعراض التي تحدث طبيعية، ورغم أنني على علم مسبق بها، إلا أنني شعرت بالندم عما فعلته به.

الغريب أن ردة فعله على جميع الأدوية تختلف عن الجميع، حتى على مصل الفيتامين سي، أصيب تقرحات بالفم وطفح جلدي.

شعر بانعدام الرغبة في تناول الأطعمة المقدمة له، لا تحتوي على زيوت ولا ملح بخلاف البدائل الصحية التي كنت أستخدمها له.

ازدادت حالته النفسية سوءًا وتقوقع حول نفسه، رفض الخروج للمجموعة، رفض تناول الوجبات، أصبح يلازم غرفته وزهد جميع الأشياء، وكل ما حُقنت الأورام بالبكتيريا، تتورم ويزداد حجمها فتضغط على الأعصاب ويزداد الألم.



"الرغبة في التراجع عن كل شيء بعد أن
فعلت كل شيء هو الهدم"

- أنا جبتلك العشا ياعمرو، رغم إنهم مش راضيين يدخلو الأكل.ومصممين تطلع تاكل برة معاهم.
- دينا، أنا عاوز آكل بطاطس ولحمة محمرة.
- إنت بتقول إيه؟
- إنتي مش هتحاربي مكاني، وأنا حقيقي مابقتش قادر، اسمعي الكلام وبصيلي كويس هتعرفي إني خلاص تعبت.

لا جدوى من الجدال والحديث معه عن قرار قد اتخذه، خارت قواه وأنا أقدر ما يعانيه، لن أرغمه على الخوض بمعركة منتهى القسوة والصعوبة ولا يوجد قوة تحمل إضافية ولو بنسبة واحد بالمائة.

شعرت أن مجهودي ومعاناتي لما يقارب العامين تتبعثر وتندثر أرضًا.

ذهبت أبحث بشوارع تلك البلدة التي تقع بالحدود مساءً عن مطعم به لحم وأصابع بطاطس مقلية، أحضرتهم ثم صعدت للغرفة وأنا أخبئهم داخل ملابسي، حجم الكارثة غير طبيعي أن أحضر طعامًا كهذا بمركز طبي مقنن به كل جرامًا من الطعام.

كان عمرو على حق، الطعام لا مذاق له ولا رائحة.

مُحق! تلك معركته وحده، لن أحارب موضعه، شعرت أنه كان يتمنى أمنية ما قبل الموت وكأنه قال لي بكلماته:

- أكليني اللي نفسي فيه

يُشعرني أن النهاية تقترب.

أغلقت الباب والستائر وكأننا ننفذ جريمة ما، لم يأبه لما أفعله من احتياطات أمنية، فقط كان يضع تركيزه في الطعام الذي أحضرته، أكل وكأنه لم يأكل لحم من قبل.

قرابة العامين وهو لا يتناول الأطعمة التي يحبها، كان يأكل فقط ليسد جوعه، يأكل ليقوم جسده بوظائفه، كنت أنظر له وهو يأكل:

- كنت حاسس إني هموت قبل ما آكل أكلة زي ده.

على قدر سعادتي بأنه يأكل ما يشتهيه، كنت أشعر بالتحطم، إخفاقًا لكل الطرق التي سلكناها طويلًا، قال:

- بصي بقى لما نرجع مصر نجيب "عاليا"، قولي لممتك تعملي زر برام وملوخية وأرانب

ابتسمت ثم قلت له:

- حاضر ياحبيبي

الورم كان يزداد ألمه، وينغلق أكثر على نفسه، رفض استكمال العلاج، رفض مقابلة الأطباء، انخفض وزنه إلى النصف تقريبًا في خلال أسبوع، اتذكر أنني يومًا استيقظت لأجد وجهه وجسده عظاما يكاد يكسوها اللحم!

حتى الآن لا أعلم كيف حدث ذلك وما تفسيره، لكنني كنت أعلم أن أحواله النفسية تأخذ منزلقًا عميقًا، قلت له:

- تعالى ننزل ناخد جولة في المكسيك وشوارعها ونغير جو.
- رجلي وجعاني.
- مش هنبعد بعيد طيب.
- وافقني على مضض، ثم ذهبنا الى مطعم يقع على إطلالة رائعة.

قلت:

- بيقولوا فيلم تايتانيك اتصور هنا.

كان شاردا ينظر إلى اللا شيء، فأردفت:

- المنظر حلو أوي ياعمرو

كانت ساقه تؤلمه، يمشي بصعوبة ويتكيء على جسدي المنهك، تناولنا الغداء والتقطنا بعض الصور بالهاتف وصعدنا إلى الغرفة.

بالمساء ازدادت آلامه، قال:

- مش عاوز أكمل، عاوز أمشي

أخبرت المركز عن رغبتنا بالمغادرة، رغم عدم انقضاء المدة المحددة التي تبقى عليها أربعة أيام.

جلسنا ليلة ما قبل المغادرة مع المجموعة بعدما أقنعته أن نشاهد سويًا نتيجة الانتخابات الرئاسية للولايات المتحدة ما بين دونالد ترامب و هيلاري كلينتون ليفوز ترامب بالرئاسة ويسجل لدينا يومًا مميز لن ننساه بحياتنا.

دخل لغرفته بعدما انتهينا من المشاهدة، أوصلته وعدت لأتحدث مع أحد المرافقات التي ألفتها، وبينما نتحدث وجدت فراشة تقف على يدي، حاولت إزاحتها، لكنها واقفه متمسكة بي ترفض الطيران!

يا لإشارات القدر! ما الخطب معي ومع الفراشات!

تذكرت يوم كنت بالإسكندرية وجائتني فراشة لتقف على يدي، التقطت صديقتي لي صورة، ثم سلكت الممر المؤدي لغرفة عمرو ليشاهدها.

أخذت الباقي من العقاقير التي تكفي لعلاجه لستة أشهر، حيث أن ثمنها مدفوعًا بالكامل مقدم مع كورس العلاج.

عدنا إلى أمريكا حيث بيت "عمو عصام" و"أماني" اللذين اشتقتهم، وكنت أريد لعمرو زيارتهم والتعرف بهم، أتذكر ما قاله لي عمو عصام لاحقًا:

- يارتني ماشوفته وعرفته وحبيته بالطريقة دي يادينا.

كانت المرة الأولى التي يراهم، أحبوه بكل ود وصدق، كل ما يتمناه أو يطلبه عمرو يأتي على الفور، مكثنا قرابة الأسبوع، الألم يزداد ويضغط على الأعصاب، زرنا أطباء متخصصين بجراحة الأورام رغبةً في استئصال الورم لعل الآلام تنتهي، كان موقعه حساس بالقرب من شريان رئيسي، المغامرة يعني احتمال قطع الشريان والوفاة فورًا، رفضوا التدخل جراحيًا، حتى وإن وافقوا وخضنا المغامرة بالجراحة، سنتحمل تكاليف باهظة الثمن لم نقدر على سدادها.

كنا نلزم الغرفة ببيت عمو عصام، قلت له:

- يا عمرو، تعالا ننزل ونخرج، نروح نتصور عند تمثال الحرية سوا
- مش قادر يا دينا.
- الجو جميل أوي، وحاطين زينة الكريسمس تعالا نروح مول قريب

كنا نجلس بالطائرة المتجهة نحو الإسكندرية ليقول:

- دينا مش عاوز مشاكل مع ماما، ممكن؟

- أعتبر إن مفيش أي حاجة طبعا، إحنا في إيه ولا إيه ياحبيبي بس.

استقبلنا الأهل استقبالًا حافلًا، لم يروا عمرو منذ فترة طويلة جدا، لم يُخيَّل لهم أن تصل حالته لما هو عليه الآن! هل هو هذا عمرو ذو القوام الرياضي الممشوق؟

نعم..

الاستماع شيء والواقع شيء آخر..

كيف أوقف نظرات الشفقة! كيف أُعنِّفهم على الكآبة التي تكسو وجوههم، وعن الخطوط التعبيرية التي ترسم الأسى والحسرة والحزن فوق جبينهم.

أعلم كل ما يشعرونه، أعلم إنها ردود فعل لا إرادية، الجميع يحبونه، لم يُخيل لهم أن يرونه على هذا الحال وخاصة مع انخفاض وزنه المفاجىء، رؤيته يتعامل مع الطرف الصناعي كجزء منه، لن استطيع منعهم ولن يتفهموا معنى كلماتي، حاولت كسر لحظات الصمت فقلت بصوت مرح:

- فين أكل عمرو يا ماما، ده مجوع نفسه من أسبوع عشانك.

قالت:

- يلا يا حبايبي، حالا تكون السفرة جاهزة.

جلسنا نأكل سويًا في جو أسري كنا افتقدناه منذ فترة طويلة، يأكل الطعام الذي يحوي الزيوت والسمن والأرز والنشويات وأنا أتفتت و أتمزق إلى ألف قطعة كالطعام الذي يتفتت بين أسنانه، لأنني أعلم أن كل ملعقة يتناولها تُضاعف حجم الورم أضعافًا مُضاعفة.

نعم، نحن بالعد التنازلي.

ـ طنط أنا نفسي آكل قرص بالعجوة سُخنة.

ـ عيون طنط ياحبيبي، ده إنت تؤمر يا قمر، ياللي أمرك ماشي.

تحبه أمي كما لو أنجبته، ترى حنانه ومعاملته الطيبة معي، لم يخذلني يومًا، بل تعرف أن سعادتي وروحي معلقة بوجودي معه، أصبحنا كيانًا واحدًا، عمرو ودينا شيء واحد لا يتجزأ.

التقط علياء وجلس بغرفته يلاعبها، رغم آلآمه غير المتحتملة، كان يحاول أن يشتت شعوره بالألم باللعب معها.

التقي بأصدقاء الجامعة وكرة السلة، يرغبون في نزهة معه بشوارع الاسكندرية، لم يسعه التحرك باللاينر وارتداء الساق، وصل التورم أقصاه حتى أنه يجلس بدونه طيلة الوقت.

ـ بابا قالي ننزل شوية يا عمرو نتمشى فالعربية نشم هواء وتغير جو يا حبيبي.

ـ أنا كويس طالما إحنا في البيت، وكفاية شكل البحر من البلكونة.

ـ أنا عارفة إن رجلك واجعاك مش هتقل عليك، بس إنت مش كويس يا حبيبي.

ـ طيب ناكل آيس كريم ورز بلبن من صابر؟

ـ ماشي ياسيدي اتفقنا.

كان الجو باردًا بأوآخر ديسمبر، ينظر من الزجاج وأجلس بجواره اتحسس برودة يده، أتفحص ملامحه التي تعبر عن الألم المحتبس بداخله، انتفضت حينما أخذ شهيقا مرتفعا ثم قال:

ـ دينا مش عارف أخد نفسي

تغيرت وجهتنا من طريق الكورنيش، نحو أقرب مشفى، بعد إصرار وتصميم حملت أنبوبة أكسجين معنا للمنزل، أصبح ممددًا يتنفس عبر انابيب خضراء رفيعه تتصل بأنفه.

ـ حاسس بإيه بقيت أحسن؟

ـ حاسس إني بغرق، نفسي بيتقطع، حاسس بماية بتمشي في رئتي

ـ ماتخفش بس يمكن إجهاد من السفر

ـ دينا عاوز أشوف جوجو جيبهالي

كلماته تمر فوق عنقي كسكين حاد، حجزت لجودي تذكرة سفر سريعًا وجائت المطار برفقة أحد مضيفات الطيران باليوم التالي صباحًا.

كانت المرة الأولى لنا أن نجتمع جميعًا بمصر، يجلسون ثلاثتهم بفراش واحد، يحتضنهم ويُقبلهم طوال الوقت، وكانت والدته تأتي ببيتنا تجلس معنا منذ الصباح وحتى المساء.

قالت لي أمي:

ـ خدي يا دينا قشري يوسفي لعمرو وللبنات.

ـ حاضر يا ماما.

مرت دقائق، وتحول جسدي إلى بالون ينتفخ، وضاق صدري عن آخره، لا أعلم ما يحدث لي، هل يتشابه مصيرنا أنا وعمرو إلى هذا الحد!

ـ الحقيني يا ماما مش عارفة أتنفس

حُمِلْت إلى المستشفى، وتم إسعافي سريعا، تذكرت يوم زفافي وحساسية البينسلين التي تعرضت لها بنفس الأعراض سابقًا، يبدو أن الفواكه تحمل سمادًا كيميائيا من مشتقات البينسلين.

ماهذه الأيام التي تحمل أعباءً فوق قلوبنا، عدت لآخذ قسطًا من الراحة وعمرو يتعجب مما يحدث ويردد من أسفل قناع الأكسجين:

- لاحول ولا قوة إلا بالله

كنت أحاول ان استمد عافيتي سريعًا كي أهاتف دكتور أحمد لعلنا نجد حلًا، لم يعد يستطيع الاستغناء عن الأكسجين.

كنت قد تدربت بالأيام التي قضيتها بمصر على إعطاء الحقن الوريدية لأتمكن من أعطاؤه الفيتامينات التي جلبتها معنا من المكسيك، كان يأتي لنا ممرض يوميًا ليضعها له وأشاهده بدقة، باليوم الأخير جلست تحت إشراف الممرض أضع له الإبرة والمحلول وريديًا بنفسي.

كانت الليلة الأخيرة من ديسمبر، وقفت ببداية شرفة منزلنا استند على الزجاج حيث الأجواء الرعدية الممطرة أتأمل السماء، وأدعو الله أن يلهمني الصبر والقوة فيما سيخبرني به الطبيب، هاتفته وشرحت له ما يحدث سريعًا فقال:

- قلت لك يادينا الوضع سيئ والرئة خلاص بتدمر، عمرو مش هيكمل، إنتي عاوزاه يتدفن فين؟ حالته هتدهور منك مرة واحدة وفي خلال أسبوع أو أقل، لو عاوزاه يتدفن في الإمارات يبقى بكرة تيجي وتكوني هنا.

تقف بجواري والدته تستمع لما يخبرني به الطبيب، وكلما سمعت كلماته اقتربت من السور الحديدي، ملامحي أصبحت مقروئة بسهولة لمن يراني، لم أعد أفرق بين البلل الذي أصاب وجهي وملابسي وهاتفي والدموع الساخنة فوق وجنتاي.

عمرو يحتضر!

النهاية حقًّا

ساعدني يا الله، ماذا أفعل!

رغبة القفز من فوق هذا السور تغزو رأسي، لن أستطع تحمل رحيله..

سامحني يا الله، أنا ضعيفة ويائسة..

رضيت بحكمك وقدرك يارب، ألهمني الصبر، ألهمني الرضا

- إنا لله وإنا إليه راجعون!

الآن أختار مكان دفنه! أعود للدوحة معه لأنفذ وصيته وأستكمل حياتي بجواره هناك! أم أظل هما بجوار عائلتنا ليساعدوننا بتلك المحنة، لكن! ليس لدينا تأمين طبي هنا! سيحتاج حتمًا للرعاية إن تدهورت حالته، الأمر هنا معقد بنسبة لي، سنوات لا أعلم كيف تسير الأمور، سأعود من أجل تقاريره ومشفاه وأطبائه الذين يعرفون حالته جيدًا، ألا يحق أن يموت ونحاول إسعافه!

خرجت لي أمي لتقول:

- دينا في إيه، إنتي مبلولة كدة ليه؟ عمرو بيسأل عليكي تعالي

نظرت لوالدته بأسى وقلت:

ـ ادخليله يا طنط وأنا ههدا. وآجي مش هينفع يشوفني كده.

كنت أسمعه ينادي:

ـ دينا مبتجيش ليه في إيه اللي بيحصل؟

لا زال صوته يدوي بالممرات وهو ينادي:

ـ دينا، هاتولي دينا دلوقتي.

جاء والدي ليقول:

ـ متتعبيهوش يابنتي، وادخليله لايقوم ويجيلك.

نبرة صوته تُخبرني أنه سيقوم من فراشه ويجرجر إسطوانة الأكسجين من خلفه، ليأتي ويرى سبب تأخري عن الذهاب له.

دخلت له وملابسي غارقة بالماء، فقط شاهدني ليقول:

ـ استغفر الله العظيم يارب، استغفر الله وأتوب إليه.

يقولها ويضرب بيده في السرير والوسادة والحائط الذي يقع بجواره، ويقول:

ـ متعمليش كده في نفسك كده، قوليلي في إيه؟

كنت أشعر بالتجمد والبرودة في قلبي أكثر مما أشعرها بجسدي، قلت:

ـ لازم يبقى في مصدر أكسجين دائم الفترة دي ليك، تحب نقعد هنا ولا نسافر؟ دكتور أحمد بيرجح نرجع نعمل فحوصات ضروري عشان الرئة و...

ـ احجزيلنا فورًا!

فهم ما أقصده، فقلت:

- متأكد؟

- أنا هحجز حالًا من الموبايل

بداية عام جديد باردة وممطرة ومرعبة على الأقل بالنسبة لي، دقَّت الساعة الثانية عشر، وأعراض الخوف تداهمني رغمًا عني، الخوف من القادم، الخوف من المجهول، الصلابة التي تتطلب مني أن أكونها، كيف سأواجه الموت! على الأقل من يموتون يذهبون للبرزخ بعيدًا عن الحياة، ينعمون بالجنة إن شاء الله، من يحبونهم هُم من يصابون بلعنة الحب والتعلق، العام الجديد مخيف كدخول كهف مظلم مجهول طرقاته، مجهول بوابة خروجه، مجهول يملؤه العتمة والبرد القارص.

نفضت أفكاري السوداء التي تشبه الهالات التي استعمرت محيط عيني مؤخرًا، وحقبت أغراضنا سريعًا دون أي ترتيب للاستعداد لركوب طائرة الواحدة ظهرًا. تملكت من فتات روحي المتهالكة وقلت لوالدته:

- طنط عمرو خلاص بيموت زي ما سمعتي وأنا بكلم الدكتور، لازم تكوني جنبه، هيحتاجك عشان..

- مش جاية يادينا أنا حلفت مدخلش بيتكم ده تاني

لو صعقني البرق لن يفعل بي كما صعقتني كلماتها! بماذا تفكر هي! أي كبرياء وكرامة تتحدث عنهما في حضرة موت نجلها الأكبر، أنا لا أدعوها للإحتفال بعيد ميلاده، بل أدعوها لتحضر طقوس احتضاره! ألا تعلم أنه الوداع الأخير؟!

لم ينجبك أحد سواي ياعمرو، لن تحبك أنثى بقلب الأم مثلما أحببتك، لقد ربيت بين ذراعي وستموت بين ذراعي.

كان يودعهم الوداع الأخير، والسلام الخير، والعناق الأخير.

عدنا إلى منزلنا، ووزنه يتناقص، ويزداد استهلاكه لاسطوانات الأكسجين يوميًا، فأحتاج إلى استبدالها من مرتين إلى ثلاث مرات يوميًأ من المستشفى التي تبعد عن المنزل قرابة النصف ساعة بدون زحام.

فقد القدرة على التمدد مستويا للنوم، يحتاج أن ينام نصف جالسًا، حمدًا لله أنني قد عدت لأغراضنا وحاجيتنا التي اعتدت على أماكنها، كنت أصنع له موضعا مريحًا للنوم قدر المستطاع.

الفحوصات الطبية تخبرنا عن وجود مياة تحتاج للبذل، الورم تمكن من الفص الأيمن من الرئة بالكامل.

كانت يستخرج من رئته ما يقارب اللترين مياه يوميًا، لم تُخطىء حينما قلت أنك تشعر بالغرق، لم يتوقف الأمر على استخراج الماء، بل تزداد، كلما أُزيلت تكون نفس الكمية وأكثر.

سمعت عن فتاة مغربية تُحضر خليطًا لعلاج سرطان الثدي والكبد، وترغب في الحصول على براءة اختراع له، هاتفتها لأطلب منها خليطًا لعلاج عمرو لكنها قابلت طلبي بالرفض قلت لها:

- طيب طالما خلطة طبيعية، رافضة ليه تعملهالي؟
- لأني بس جربت للثدي والكبد وعملت أبحاثي بمستشفى حمد والحمد لله نتيجتها فعالة.
- بصي، أنا هساعدك وهصعدلك الأمور لأعلى الدرجات، أنا أشطر واحدة تعمل كده، بس أدي لعمرو عشان خطري، حاله متدهورة ومتأخرة، مفيش حاجة أخسرها.

- طيب، لازم أعملها فريش وتتاخد فريش مرتين باليوم.
- جهزي أول خلطة حالا وجيالك في الطريق، ابعتي العنوان.

مرتين يوميًا ذهابًا وإيابا أحضر له المشروب مهما كان موعد تناوله، وطلبت منها أن تحضر خليط يُدهن موضعيا على ورم الفخذ.

مستسلم تمامًا لايشعر سوى بألم ساقه وألم رئته، أخبرني أنه حادث والدته منذ أيام يخبرها أن تأتي لهم لكنها رفضت، صمت وكأنني لم أسمع شيئًا.

كان جالسًا يتصفح الفيس بوك كعادته، ليجد والدته تشارك موقعها للتواجد بدولة البحرين بأحد المستشفيات، جلس يتصفح التعليقات أسفل المنشور، ليجد تعليقات:

ألف سلامة على عمرو، ربنا يشفيه، فترد: يارب دعواتكم

ثم يسألها آخرون: إنتي فين؟، فترد بتعليق آخر: عند ابني تعبان.

خرج عن صمته وعلا صوته قائلا:

- ما تقومي تشوفي ماما لاتكون قاعدة جوه وأنا مش واخد بالي! هي إزاي مفهمة الناس انها جتلي تشوفني، وهي أصلا عند أخوها في البحرين عشان جرح صغير في رجله، ده بيننا وبينهم ساعة ونص مهنش عليها تيجي تشوف ابنها.

صوته كان يشير للثوران والغضب والإنفجار، أرى عروق يديه ورقبته تبرز من شدة الغضب والإنفعال، قلت له:

- إهدا ياحبيبي عشان خاطري.

- أهدا ايه؟ ادخل اكتبلها في التعليقات، اكتبلها خالي عامل إيه يا ماما وازاي البحرين؟ اكتبلها؟ ماتيجي تزورينا يا ماما في الإمارات
- لأ ياعمرو متكتبش حاجة.
- مهو لازم الناس تفهم إنها مش عندي، مش عايزة تيجي ياستي متجيش.
- حبيبي خلاص إهدا بقى أرجوك شايف نفسك عامل ازاي، انت بتتنفس بالعافية اقعد وريح ظهرك
- هي بتعمل كده ليه عاوز أفهم؟
- اكسب رضاها، إنت عمرك ما زعلت منها، ياعالم يمكن عندها أسبابها، خليها تدعيلك لعل ربنا يستجيب منها.
- وأنا مين يراضيـ...

لم يكمل كلمته حتى انفجر الورم بساقه، واندفعت منه نافورة دموية تتناثر بكل الأرجاء، التصق الى الوراء بالوسادة، قمت مهرولة لأحضر عبوة القهوة لأسد بها موضع الدم، وأسحب منادیلًا ورقية وأحاول تكميم فوهة الجرح، كنت أعتقد وقتها إن لم أسيطر على النزيف ستنزف دماؤه جميعها بالصالة.

لا أعلم كيف حضر بعقلي أن أهاتف الإسعاف، وأحضرت أقرب حقيبة لأضع بها بعض الاشياء الصغيرة، نظر إلى الحوائط نظرة أسى، ثم انطلقنا بسيارة الإسعاف نحو المستشفى.

تم تضميد الجرح وتنظيفه، ليكتشفو وجود كرات صغيرة يُعتقد انها أورام، أشار لي عمرو ثم قال:

- بصي يا دينا، أورام تاني، ورمين أهو، عمالين يكترو، أقولك حاجة، مش مهم ومش فارقة!

ثم أشاح بيده ليعبر عن عدم الاكتراث واليأس، جسده اُستعمر بالأورام منه ما ظهر ونراه بالعين، ومنه ما خفى:

- نام شوية ياحبيبي وارتاح وبكرة نشوف الإشاعات.

- طيب تعالي امسكي ايدي، خليكي جنبي.

- حاضر.

ربت على يديه، ونمت بجواره ممسكة بيده، استيقظت بالسابعة صباحا ولازالت أيدينا متشابكة، قمت لأعتدل فأصدر ظهري وكتفي صوت طقطقة خفيفة:

- صباح الخير ياحبيبي، هقوم أجيبلك فطار وآجي.

كان يحرك شفتاه، لكني لا أستمع إلى صوت يصدر من خلالهما، فركت عيني لأستفيق، أو ربما أذني! لعل أصابهما عطبًا ما..

لازال يُحرك شفتيه، أسمع إلى صوت التكييف وأقدام التمريض من الخارج! لكن صوته لا يخرج لي، بدأ في الإشارة لي ورفع يديه..

لا..لا

لا تخبروني أنه لا يستطيع الكلام

ماذا يحدث؟ رُبَّما متعبًا من صراخه بالأمس!

لازال يحاول التحدث ويشير لي، يحاول كعصفور فقد جناحيه ولا يزال يحاول الطيران.

- عمرو أرجوك اتكلم، مالك ياحبيبي؟

فتَحت الباب لألتقي بأحد التمريض، أخبرتها أن تنادي الطبيب فورًا.

ـ الأحبال الصوتية واصلة لحد القلب، والورم اللي في الرئة حجمه زاد وضغط على أحد الأحبال الصوتية القريبة من القلب، غالبا صعب إنه يتكلم تاني.

الأشياء تحدث تباعًا كانفراط حبات عقد لؤلؤ، لم تعد روحي تحتمل أدخنة النهايات وهي تتصاعد، روحي تنفصل عن جسدي تدريجيًّا وأحيا في مرحلة اللاوعي.

لقد أصبح عمرو صامتًا، لا شيء يعوض يمكنني شراؤه ليسترد صوته!

أصبح بلا صوت بين عشية وضحاها، مرغمًا على الصمت، صامت من داخله أكثر من صمت صوته، على أي شيء سيبذل مجهودًا للحديث؟ يعتقد أن لا أحد سيفهم ما سيقوله، لكنني أفهمه من إشارة عينه ويداه.

تناولت الهاتف لأهاتف صديقه عاطف كي يأتي ليفعل شيئًا معي، خرجت من الغرفة ومشيت قليلا نحو الردهة باتجاه الدرج الذي لم أصعده بالأمس حيث صعدنا من خلال المصعد، وقفت أستند على أسوار الدرج ليجمدني ما رأيته!

نفس ما رأيته بالحلم الذي حلمته قبل السفر!

إنها الطوابق الدائرية نفسها تتكرر حتى الأسفل وبالنهاية على الأرض مزهرية خضراء، نعم أتذكرها كانت بالأسفل هناك الكعبة يتخللها الماء!

الحُلم، يجب أن أجد له تفسيرًا، سأهاتف الشيخ ليفسر لي الحلم.

كانت تفسير للآيات المبشرَّات:

"تجري من تحتهم الأنهار" "وأنهار من لبن لم يتغير طعمه" "هم وأزواجهم" "لايسمعون فيها لغوًا" "لاخوف عليهم ولا هم يحزنون" "وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم".

اتضحت لي صورة الحلم بالكامل، الحليب المتدفق، والماء الذي يجري تحت قدميه، شعوره بالارتياح والصحة، الأرجل المزدوجة التي شاهدتها، إنها الجنة، وتلك هي المستشفى التي كنت أعمل بها.

توافد أصدقاؤه للزيارات تزداد، وألمه يزداد، لا شيء يفعله الأطباء سوى مضاعفة المسكنات، وسحب السوائل من الرئة، ومضاعفة كميات الأكسجين.

زاره أصدقاء عمله القدامى والحاليين، الجميع جاؤوا، من يعرفه حق المعرفة، ومن يعرفه بالسمع فقط، عجزت عن تمييز الوجوه، لا زلت أرتدي ملابسه وأحملق بوجوههم بعينان يكسوهما الضباب، لم أعد أعلم شيئًا عن المنزل ولا عن طفلتاي، كل ما أنتبه له أن أطلب من عاطف إحضار المزيد من أكواب القهوة لتزيد من تنبيهي والتركيز مع عمرو فقط.

أنا فقط من أستطيع فك رموز الأشياء التي يريدها.

دخلت إلى صفحته على الفيس بوك وكتبت:

- اللي عاوز يسلم على عمرو يجي المستشفى.

امتلأت ممرات المستشفى بالوافدين والزائرين حتى ظن الأطباء أن أحد الشيوخ أو الأمراء متواجدين بالمشفى.

كانت كلمات الحسرة والمواساة تعلو صوت سلامهم، أخبرهم أن عمرو لا يستطيع الرد والتحدث فيقولون:

ـ إزيك يا عمرو!

ويقول آخر:

ـ عامل إيه دلوقتي ياعمرو؟

ثم يتمتمون:

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله.

فأرى تبدل ملامح وجهه ليقول آخر:

ـ الله يشفيك

ويهمس آخر بصوت مسموع

ـ يا الله معقول ده عمرو!

علام كل هذا التعجب، أنا أريد مجيء الجميع ليشعروه بوجودهم بجواره، لا لتحطيم حالته النفسية بفأس الشفقة والحسرة!

ازداد عدد المتواجدين وضاق تنفسه، بدأ يسعل ويحتاج إلى المزيد من الأكسجين، كنت أعلم أن سعلة واحدة غير منتظمة قد تؤول إلى امتناع تنفسه ووفاته في الحال.

منعت الزيارة منذ ذلك اليوم، وقررت المكوث ما بقي من أيام في هدوء وعزلة أنا وهو وعاطف.

وضعت بيده قلم ونوت صغيرة ليكتب لي متى شاء، ثم جلست أكتب أدعية مختلفة وألصق بها بحوائط الغرفة، وهو لازال يمسك بهاتفه ليرى تعليقات أصدقائه وحديثهم عنه، وبعض الأحيان يكتب لي ما يريده عبر الرسائل رغم تواجدنا بنفس الغرفة.

قال لي عاطف:

- شغلي موسيقى هادية عشان عندنا جلسة مساج لعمرو

كنت أتولى مساج رأسه ورقبته وكتفيه، وعاطف يتولى مساج ساقه وظهره، كان يحاول البحث عن طريقة لتخفيف آلام روحه لا جسده، فلندع المورفين يسكن الآلام المبرحة.

قال له:

- بكرة هجيبلك حلاق لأن شعرك طول كتير

أخذت خصلات شعره ووضعتها بأحد القفازات الجلدية واحتفظت بها، لعلها الحلاقة الأخيرة.

الأيام قاتمة، ننتظر، والأصعب من الإنتظار هو ألا تنتظر شيئًا، ليس لي أمل سوى الدعاء والصلاة والإستغفار.

باليوم التالي جائنا هشام صديقه وزوجته، وبينما نتحدث سعل بقوة لم يستطع بعدها تنظيم أنفاسه، كان يشهق ويستجدي أي ذرة أكسجين بنفسه، برزت عيناه وارتفع صوت شهيقه.

التصق صديقه وزوجته بالحائط من شدة الهلع، ينظر لي عمرو ويشير بيده قاصدًا:

- ادعي مكاني استغفري

كنت أفهم ما يقصده، أفهم أنه يخاف الموت دون أن يردد لسانه بذكر الله، وقفت امسك يده ويدي ترتجف، وأردد دعوات وآيات أستحضرها سريعًا وأقول:

- لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

أشعر أن الله يناديني وكأنني المختارة أن أذهب له، انتظمت أنفاسه في اللحظات الأخيرة وتنفس باعتدال، فسقطت ركبتاي على الأرض رغمًا عني.

جذبتني زوجة هشام للخارج وأنا أنتحب بكاءً:

- مش قادرة، مش قادرة أشوفه بيموت قدامي.

ثم صرخت بأعلى صوت:

- يااااارب.

تم نقله لقسم الرعاية «العناية المركزة»، أشار لي عن رغبته برؤية جودي وعاليا.

حينما رآهم ظل يتمتم بلا صوت:

- الحمد لله

وعيناه تترقرقان بالدموع والحسرة والفقد، ثم يرفع قناع الأكسجين سريعًا ويقبلهما، أحاول أن أزيحهما عن ساقه التي تؤلمه ليشير لي بالنفي ويخبرني بيده:

- سيبيهم

أعلم يا عمرو أنك تعشقهما حتى النخاع، أعلم أنك تتحسر وداعهما رغمًا عنك، أعلم أنك تتمنى أن يُربوا تحت ظلك وحنانك وأمانك، فوالله ياعمرو أننا لا نريد فراقك كما أنت.

ما أثقل تلك الأيام على قلبي!

كيف خرجت من هذا الحطام حية؟

التقطت صديقتي لنا صورًا ومقاطع فيديو سيخلدوا للأبد وللذكرى الخالدة، ثم أشار ليه بعينيه، فهمت ما يعنيه:

- خرجي البنات برة.

دخلت أحد الطبيبات برفقة أربعة أطباء وقالت بإنجليزيتها بلا مقدمات:

- عمرو، تبقى لك أقل من ربع الرئة، بخلال يومين أو ثلاث على الأكثر ستموت، لديك احتمالين أن يتوقف قلبك أولًا وتفارق الحياة، أو تتوقف رئتك قبل قلبك، في تلك الحالة لن نستطع إنقاذك حتى لو تم إنعاش قلبك سيتوقف في خلال دقائق، الرجاء أن تمضي على هذا التقرير أنك لن تخضع لعمل إنعاش قلبي.

ثم أضافت:

- لا تستدعي حالتك المكوث بالرعاية وأخذ المزيد من العقاقير وسحب المزيد من عينات الدم، من الأفضل أن تتلقى الراحة في جو عائلي هادىء بغرفة عادية بالأسفل.

لو أستطيع وقتها القفز فوق حنجرتها لأمنعها من الحديث ما تبقى من عمرها أو تكميم أنفاسها لتصمت عمَّا تقوله لفعلت بلا تردد، لكنها قالت كل ما تريده، وسمع عمرو كل ما قالته.

تركتنا على حافة الهاوية وخرجت من الغرفة بكل برود.

انتقل عمرو لغرفة عادية، أقصى ما بوسعهم فعله هو إعطاؤه مسكنات للآلام، كان احتياجه للمورفين يزداد، ولأننا بمستشفى لا تقتصر على مرضى السرطان، فكان مخزون المورفين لديهم مُحدد بالجرعات، ولا يقتصر على مريض واحد فقط، وعمرو يحتاج منفذ لا نهائي كي يواجه آلامه المبرحة.

قال لي مدير المستشفى:

- الأفضل يرجع مستشفى السرطان لأن مخزونهم من المورفين عشرين ضعف المخزون هنا، وهو هيحتاج كتير الفترة الجاية.

حقبت أغراض عمرو الخاصة، وانتقلنا بعربة الإسعاف، وأنهيت إجراءات الدخول الورقية، صُعقت حينما واجهونا بالحقيقة أن عمرو سيمكث بقسم الـ"Palliative care" الرعاية التلطيفية، وهو قسم مخصص للحالات المتأخرة التي لم تعد تستجيب للعقاقير، يضعونهم فقط تحت إشراف الأطباء والفحص الدوري، ومسكنات الآلام القوية والمنومات التي أخبروني لاحقًا أنها تؤدي لفشل الجسد سريعًا وتعجل من الموت!

أي أنه سيمكث بغرفة انتظار موته، بانتظار أن ينهش السرطان بقية الخلايا التي لم يتوصل لها بعد.

كنت سابقًا أتلاشى النظر إلى تلك اللوحة المكتوب عليها «Palliative Care»، أتذكر أن أبشع المشاهد التي شاهدتها بحياتي من قبل كانت لمذبحة وقتها لم أستطع النوم لأيام متواصلة، لكن تلك اللوحة كانت بمثابة المشهد الأكثر ترويعًا بحياتي، والآن نُسيَّر إليه عبر المررات إجبارًا، وحتى لو كان بإرادتنا فما الفارق إذًا!

عمرو صامت وعيناه ثابتتان كالدمية، لكن الضجيج والألم والصراخ الذين ينفجرون من داخله أعلى من صوت سكوته، يشير لي ويطالبني بوضع سورة الروم بأذنيه بصوت الشيخ مشاري راشد، أنظر بعيناه ونتبادل الحديث عبر النظرات التي لا يعرف رموزها وشفراتها سوانا.

أيعقل أن يكون هذا القسم منبوذًا إلى هذا الحد؟

لربما يسحبون صلاحيات المرضى من التعلق بالحياة؟

فلا إطلالة لغرفهم على شجرة أو سحاب أو سماء، لا شيء سوى الفراغ، مجرد نافذة تهوية صغيرة..

أين المناظر الطبيعية المرسومة على أسقف الغرف التي تضيء ليلًا والتي اعتدنا رؤيتها بجميع الغرف التي سكناها من قبل؟

يكفينا ذلك السرير والمقعد والأريكة التي تسع فردين، والخزانة الكئيبة وجهاز التلفزيون والنافذة الفقيرة

كان عبد الله وعاطف وأحمد يوسف أصدقاؤه يتناوبون ساعات اليوم فيما بينهم، يمكثون معنا بالغرفة، كي لا يغفل أحد مننا عنه ولو لثانية واحدة، عبد الله يبيت بالغرفة معنا، ويستقيظ باكرًا للذهاب لعمله ثم يستبدل ملابسه بالمنزل ويعود إلينا، كنت أنتظر فناجين القهوة من كل

منهم، أقتات على الكافيين بكميات كبيرة حتى سببت لي قرحًا بالمعدة، أحارب جفوني وعقلي ورغبتي في النوم بالقهوة، لاشيء آخر تأخذني شهيتي عليه سواها،

لا أعلم متى تستسلم جفوني الثقيلة!

ربما وأنا واقفة؟

أعتقد.

رغم صمته وعجزه عن النطق، إلا أنه يجعلنا نعمل وفق نظام محدد تبعًا لرغبته وراحته، كل التفاصيل تشغله، نخاف أن يشعر بالعجز، نستجيب سريعًا لما يطلبه، أتذكر ذات مرة كتب لي:

"نادي على الممرضة عشان تحضر جرعة المورفين، في خلال ربع ساعة الألم هيزيد، يادوب على ما تيجي».

كنت أحادث خاله الذي انتقل للعمل بالسعودية، فأخبرني عن رغبته للمجيء لزيارة عمرو بدبي، فأخبرت عمرو عن موعد قدومه، كتب لي:

"احجزي له فندق قريب من المستشفى".

وأخذ يشير لي عن أقرب أماكن تواجد الفنادق الفاخرة، فأقول له:

- ماتشغلش بالك يا حبيبي هو قاللي إنه هيمشي نفس اليوم مش مستاهلة فندق غالي.

قطب جبينه ثم كتب:

- "لما تعملي حاجة لحد إعمليها كأنك بتعمليها لنفسك»

أخذت نفسًا عميقا وقلت:

ـ ماتتعبش نفسك وسيب كل الترتيبات عليا، وأنا هعمله اللي انت عاوزه.

المثير للشفقة أن عمرو رغم مرضه وآلامه لا يزال بكامل قواه العقلية، والجميع يتعاملون معه كما لو كان طفلًا صغيرًا، لماذا يغيرون لهجتهم ومخارج حروفهم ويبسطون الكلمات مع المرضى والمصابي بالشلل والعجز كما لو أن المرض أصاب عقولهم لا أجسادهم وأطرافهم!

كلما حدثه أحدهم بنهج معاملة الأطفال ينظر لهم بشفقة كما لو يقول: «إنت أهبل؟»

أعرف نظرته وما يدور برأسه، كتب لي على الورقة:

ـ "اتكلموا كويس أنا فاهم وواعي بكل حاجة، بلاش الطريقة دي».

كنت أجلس على المقعد ملتصقة بفراشه، ونصف جسدي مائلا نحو الأمام واضعةً يدي بجواره ورأسي تستلقي فوقهما، دقائق أخلد بها للنوم فيوقظني بيديه التي تسكن بجوار رأسي.

وكنت في بعض الأحيان أتكور كقط صغير وأنام أسفل قدمه، لكنني أصبح أكثر حذرًا أن أقترب من أحد أورامه فأعود للنوم على المقعد.

كان يبتكر وسائل للتواصل بيننا عبر العبث بأحد الأكياس البلاستيكية القريبة منه، ثم عن طريق أحد تطبيقات الموبايل الذي يسمى «Bell" والذي يعمل كأجراس الفنادق، ثم يكتب لي:

ـ "روحي ارتاحي على الكنبة وأنا هرنلك لو تعبت، عشان خطري اسمعي كلامي ريحي شوية»

كان يتصل إصبعه بجهاز لقياس نسبة الأكسجين، احتياجه للأكسجين يزداد، فتزيد الممرضة من ضخ الأكسجين بالأنابيب حتى جُرح حلقه وشعر بالجفاف الحاد، فاضطروا لوضع جهاز مُلطف ومرطب ليضخ رذاذ الماء بمعدل منتظم لتقليل ألم حلقه.

كان يئن من الألم ويطلب المزيد من المنوم، وأنا أمنعه، لا أريد موته سريعًا، فكان يكتب لي:

- "سيبيني أرتاح، عاوز أنام وأموت»

وكأنه يطلب مني إفلات يده ليسقط بالهاوية، يعلم أنني أشد على يده وأمسك به ونحن سويا معلقان بالهواء، متشبثين بالفراغ، يخبرني أنه على أتم الإستعداد للموت، ولا يعلم أنني لا أستعد لفقدانه ووداعه.

جاء يوم الجمعة وزارنا خاله بضع ساعات نهارًا، ثم غادر بالمساء، أحضرت أوراقًا بيضاء من غرفة المريض وقلم عريض ملون، وجلست أكتب له:

"أنا بحبك"

«...»

"الحمد لله"

"لا إله إلا الله"

أخاف أن تأتيه لحظة الموت فيتوقف عقله عن الذكر، وضعتهم على الحائط خلال فترة نومه، حينما استيقظ ابتسم وأشار لي يتساءل:

- عملتي كده امتى؟

ثم أشار معبرًا:

- انتي👈

- إيه 🖐

- انتي 👆

فابتسمت وأنا أرددها مع إشاراته:

- إنتي.. إيه.. إنتي

وأكملت قائلة:

- عملتهم وانت نايم

ربت على كتفي، فأخفضت رأسي ليضع يده فوقها، كما اعتاد فعل تلك الحركة التي أحبها بجنون ويتمتم بلا صوت كما أحب: ربنا يفرح قلبك، فأردد: يارب يفرح قلبي بشفائك ياحبيبي.

شاهدت منشورًا على الفيس بوك لوالدته تضع به صورًا عن حدث عظيم لزيارة أحد المسؤولين المهمين للمدرسة التي تعمل بها، غير آبهة لتدهور حالة عمرو وساعاته المعدودة الأخيرة، فكتبت لها رسالة حادة بكل الغضب الذي يجتاحني:

- عمرو طول اليوم بيشوف الفيس بوك بتاعه، وأنا مش هسمح لحد مهما كان يحرق دمه، إنتي بيعتي ابنك وعايشة حياتك ولا كأنه موجود، يبقى بلاش توضحي ده علنا وتحطي صور تقهره على نفسه، ممكن تأجلي إنجازاتك كرئيسة جمهورية المدرسة شوية، شوية بس متستعجليش، لو حصل ده تاني أنا همنعه يشوفه بطريقتي، بلاش تحرقي دمه، كفاية إنه يوم ما دخل المستشفى جاله نزيف من قهرته إنك رحتي لأخوكي وفهمتي الناس إنك بتزوريه، ابعدي عننا وأسفة مش هقدر أقولك يا أم عمرو!

تذكرت أن لعمرو عم وأبناؤه انقطع الاتصال معهم منذ زمن طويل، عزمت أن يصل رحمه، لئلا يكون سببًا في شفاؤه، لعلها المنجية، لعل انقطاع الرحم سيكون حائلًا بينه وبين الجنة.

بحثت عن وسيلة للتواصل معهم فكان ابن عمه يعيش بالبحرين وعمه بمصر وابنة عمه بالسعودية، راسلت ابن عمه وأخبرته أنني زوجة عمرو عبد الستار، وأنه مريض على فراش الموت، كان سعيد جدًا بتواصلي معه، وحزين جدًا على ما آل إليه حال عمرو، كانوا مقربين بالماضي، عبلة هي سبب انقطاع العلاقات، أرسلت له بعض الصور وقصصت لهم سريعًا ما حدث له، أخبرتهم عن رغبته بالحديث معهم لكنني سأملي عليهم ما يقوله، كانت المكالمة فقيرة بالكلمات وغنية بالمشاعر والأشواق، كما يقال «الدم بيحن»، أخبره ابن عمه أنه سيأتي قريبا لزيارتنا وتداخل معنا بالمكالمة والده وشقيقته بالسعودية، كان عمرو يبتسم من أسفل قناع التنفس من فرط السعادة، يخبرني أن ابنة عمه أقصر طولًا مني، وكنت أنا اشعر بالارتياح ورضا النفس أنني وصلت رحمه المنقطع.

أصبحت حياتي ليلا نهارًا بالحجاب منذ شهرين تقريبا، حتى بالمساء لا استطيع خلعه بسبب مبيت أحد أصدقائه معنا.

كان اليوم الثالث لي دون نوم، فخلدت للنوم على حافة المقعد الكبير، وكان احمد يوسف نائمًا على الأرض بجواره ليراقب تنفسه، تفاقمت آلامه حدود تأثير المورفين، أوقظني عبر جرس الموبايل، فقمت فزعة فكتب لي عبر الواتساب:

- أنا سيبتك تنامي ساعتين بس مش قادر أتحمل أكتر من كدة أنا تعبان.

أحضرت له عصير ليتناوله من أسفل القناع، لكنه لم يستطع البلع.

اليوم!

قمت أترنح نحو دورة المياة، نظرت بالمرآة نحو شحوب وجهي وآثار الكافيين التي تنتشر حول عيناي، شعرت بانقباضة بصدري تخبرني بشيء واحد فقط!

"سيموت عمرو اليوم"

توضأت وقمت لأصلي ركعتي «عمرو» كما كنت أسميهم قضاء الحاجة بنية شفاؤه، ثم عزمت على صلاة الاستخارة وانهيت منها وجلست أدعو الله:

- يارب أنا عملت كل حاجة ومفيش طريق إنت فتحتهولي وممشيتش فيه، دلوقتي سبتلك الحكم في إيدك، أنا كل يوم بطلب منك تشفيه، بس دلوقتي بطلب منك تُحكم، أنا عملت اللي أقدر عليه وهو اتحمل اللي قدر عليه، يارب احكم وأنا راضية بحكمك.

الأحد 26-6-2017

مستشفى الأمل لعلاج السرطان

استيقظت فزعة على صوت «تطبيق الجرس»

"صباح الفل ياحب، نعمين؟" أشار " لا تنامي إبقي معي»

مددت يدي لقهوتي الباردة كي تساعدني ألا أسقط مغشية.. ماذا بعد!

دخلت لأغسل وجهي.. وأنا منحنية على الحوض قُبض صدري فنظرت في المرآة «أمعقول أن يكون اليوم؟"

نعم إنه اليوم! ياويلي.. اليوم يموت عمرو!

نظرت له:

- اليوم سأجلس بجوارك على السرير، طوال اليوم حتى وان تضايقت لن أتحرك..

فكتب لي آخر جملة «أتا تعبان أوي حبيبي، سيبيهم يدوني المنوم، سيبيني أموت يا دينا عشان خاطري»

كنت أرفض المنوم لأنه يقرب النهاية ولكن كيف أرفض الطلب لهاتين العينين العسليتين!

نام عمرو الثانية والنصف ورحل الجميع وبقيت أنا أهمس في أذنه ما يفيض به القلب له وكم أعشقه، وبأن جزاء صبره جنات عرضها السماوات والأرض لساعات كان فيها غائب عن عالمنا يتصبب عرقًا

غريب الرائحة «بللتني ياعمور» قد بلل ملابسه والسرير، متى تفيق ياعمرو..

لماذا لا تفيق هذه المرة؟

لا أدري لماذا اسأل أسئلة أعرف إجابتها؟ إنه في سكرات الموت.

حادثت عبد الله صديقه «ارجع ياعبد الله» ولم يكذب خبر

كان صباح ذلك اليوم مختلف، استيقظت وأنا أشعر كأنني بمهمة رسمية، رائحة الموت تنبعث من أركان الغرفة، هاتفت شقيقتي مي وقلت لها:

- ابعتي لي العباية بتاعتي دلوقتي مع أي حد.

ثم هاتفت رحاب زوجة عبد الله وهي من أصدقائي المقربين، تلك التي كنت أمنعها يوميًا عن المجيء إلينا لتبقى مع طفلها بالمنزل، لكني أخبرتها بذلك اليوم أن تترك طفلها وتأتي سريعًا.

جاء عاطف وجلس بجوار عمرو واطمئن على حاله فقال:

- عمرو إنت كويس؟

أومأ برأسه بالنفي ثم أشار:

- عاوز منوم.

قلت له:

- عشان خاطري بلاش منوم، ياعمرو إنت بتنام وعينك مفتحة شوية بس مبتردش عليا ومبعرفش أوصلك ولا أصحيك بحس إنك مش معايا فالدنيا.

فكتب لي:

- إنتي عاوزاني صاحي وأتعذب؟ ولا أنام وارتاح؟ أنا والله مبتدلعش، أنا تعبت أووي، يااارب.

جاء الدكتور أحمد للمرة الأولى لزيارتنا بعد تدهور حالته وعودتنا من مصر، ألقى عليه نظرة وتحدث معه قبل أن يتلقى جرعة المنوم الأخيرة، ثم خرج من الغرفة وقال لي:

شدي حيلك، ربنا يعينك على اللي هيحصل

سقطت دموعي دون أن أشعر، فوجدت باب الغرفة مفتوحًا، كفكفت ما تبقى من دموع وقلت له:

- عمرو شايفنا، أنا هدخله بعد إذنك.

بمجرد أن تسرب المنوم بوريده، ذهب إلى عالم النوم البعيد بلا آلام.

دفعته برفق من منتصف السرير إلى الحافة الداخلية، ثم تقوقعت بجواره على ما تبقى من فراغ، من الثانية ظهرًا وحتى العاشرة مساءًا تقريبا.

خلالهم نهضت فقط لأشغل حلقة مصطفى حسني «لحظة فراق» وكأنه الإلهام ليستكين قلبي وأتأهب لما سيحدث بذلك اليوم، فتحت كاميرا الموبايل لألتقط فيديو للغرفة ولعمرو وهو نائمًا، ثم عدت لأنام بجواره، كتبت لعبد الله:

- ماتطلعش ع البيت وتعالى على هنا علاطول يا عبد الله.

عدت لأحدثه بأذنه، وأمرر أصابعي بين خصلات شعره القصير، انتظر استيقاظه بعد الساعتين كما اعتدت فلا يستيقظ، طال نومه، وأصبح

تعرق جسده يغمر ملابسه وفراش السرير، رائحته كانت مختلفة عن التي أعرفها، جسده يتصبب عرقًا رغم برودة الهواء من جهاز التكيييف.

قلبي يخبرني أنها سكرات الموت، وأنا أتجاهل تلميحات وإشارات قلبي المُقبضة.

- عمرو فوق، أنا متأكدة إنك سامعني، المنوم راح مفعوله من زمان، إنت ليه مبتفوقش ياحبيبي.

عيناه نصف مفتوحتان، ولا شيء به يتحرك على الإطلاق، عدت لأقول له:

عمرو لو سامعني ومش عارف تتحرك، حرك أي حاجة فيك وأنا هفهم.

انتظرت الإشارة، فتحرك جفن عيناه السفلي للحظة واحدة ثم سكن.

علمت أنه مستيقظ، تلك الحالة التي يشعر بها ليس نوم عميق، عمرو مشلول عن الحركة شلل كامل، عمرو مسجون بداخل جسده، أتخيل أنه يشعر بي ويستمع لي وفاقد القدرة على التجاوب معي، نام وهو يتحرك بكل اجزائه واستيقظ وهو مشلول شلل تام، اتوقع أنه سيصاب بالجنون حيال ذلك الشعور اللعين!

كانت رحاب تنتقل بين الغرفة والممر والزائرين من أصدقاؤه، وتنادي لي الممرضات والأطباء كما أطلب منها، وأسأل الجميع:

- عمرو مبيصحاش ليه؟ مبيردش عليا ليه؟

الصمت يحدث ضجيج وتوتر بداخلي، قال لي أحد الأطباء بوجع ممتعض:

ـ مسألة وقت يادينا ربنا يهون عليه.

أيعقل أن شعوري صادق لهذا الحد، عمرو يحتضر؟ حتى الجهاز الموصل لقياس الأكسجين لم يعد يقرأ!

الروح تنسحب من الأطراف وقت الموت، أعلم ذلك جيدًا وها أصابعه تميل إلى الزرقة.

ـ رحاب شغلي القرآن على قناة الحرم، بعد لحظات تحرك يداه فقلت:

ـ رحاب حرك إيده صح!

عدت لأحدثه بلهفة:

ـ عمرو انت حركت إيدك، يلا قوم ياحبيبي فوق، قوم ياعمرو شوف الكعبة، فاكر احنا زي الأيام دي كنا بنعمل عمرة، فاكر كنت فرحان قد إيه؟

كنت أسند رأسه على ذراعي وأنا أحدثه، فحرك رأسه يمينا نحوي، وفتح عيناه ونظر بداخل عيني، فنزلت دمعة من زاوية عينه الداخلية ومرت بوجنته حتى تلاشت عند شفاه، ونظر أمامه وكأنه ينظر لشخص آخر واقف أمامه، شهق عاليا بصوت مفزع يزمجر، صرخت به وأنا أقول:

ـ عمرو اتشاهد، أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمد رسول الله

وظللت أرددها:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

شهق للمرة الثانية بصوت أعلى، وأنا أردد الشهادة وأنظر بداخل عينه، فوجدت بؤبؤ عيناه الأسود الصغير الذي يتوسط عيناه العسليات تمدد واختفى لون عيناه العسلي وأصبحت قاتمة سوداء لا حياة فيها!

***

ذهب عمرو، غادرت روحه جسده العليل، مات وهو بين ذراعي، تركني ورحل، تركني بالدنيا التي عرفتها معه وعشتها معه وكبرت بها معه، آه ياعمرو، كنت أستيقظ من أجلك أنت، وأدعو الله وأتضرع له من أجلك، أجاهد نفسي كل يوم في تلك الحياة لأجلك، فمن أجل من سأعيش؟

ظللت أردد:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا اليه راجعون!

يدي ترتجف، فأنا في حضرة موت حبيبي، وملك الموت يقبض روحه من حولنا، وروحه تصعد إلى السماء.

أزلت القناع من فوق وجهة، وقلت لرحاب:

- روحي نادي عبد الله بسرعة ومتحسسيش حد بحاجة ودخليه واقفلي الباب براحة.

كنت أتحرك بخطوات محسوبة وكأنني أنفذ تعليمات عمرو قد أملاها عليَّ، دخل عبد الله وأغلق الباب وقال صائحًا:

- أنت يعني مستنيني أطلع برة عشان تموت ياعمرو، ليه كده ياعمرو.

وهو يبكي بهستيرية ونار الفراق ولوعته تلتهب من بين كلماته وتخرج من صدره وهو يردد نفس جملته، قلت له:

- عبد الله عشان خاطري بس، وطي صوتك لو حد حس إنه مات هايخدوه عالمشرحة، مش هيدفنوه دلوقتي وهيدفنوه بكره، سيبوهولي مش عاوزاهم يخدوه مني.

كان الهلع الذي يعلو ملامح رحاب حينما خرجت لتنادي عبد الله توحي بحدوث شيء مريب بالداخل، فبدأ رفاقه يدخلون واحدًا تلو الآخر، وكلما يدخل شخصًا أقول نفس كلماتي:

اقفل الباب، اقفل الستارة، مش عاوزة حد من التمريض يحس، أطفو النور هياخدوه مني.

انهار أحمد من البكاء وهو يضرب على الوسادة ويجذبه من يده ويقول:

- ياعمرو، سيبتنا ليه ياعمرو.
- أرجوك وطي صوتك عشان خطري، وبلاش تعمل كده عمرو مبيحبش كده براحة عليه.

عدلت من وضع السرير ليصبح مستقيمًا، بعدما كان بوضعية نصف جلوس وجعلت ظهره مستويًا، وقلت:

- نام ياعمرو بقى، نام ياحبيبي وافرد جسمك بقالك شهور قاعد

كنت أنظر له، وأقبله وأقبل رأسه ووجنتيه ويديه وشفاه وعيناه وأنفه، هكذا قصُّوا عليّ ما كنت أفعله، وما كنت أقوله، ثم أقول:

- دلوقتي هترتاح ياحبيبي خلاص، نام ياحبيبي وارتاح من غير ألم ومسكنات.

دخلت إحدى الممرضات وشاهدت ما يحدث، فاقتربت مني لتعانقني وتبكي وتنحب كما لو كان عمرو أخاها أو زوجها أو حبيبها، وأنا أشاطرها البكاء والنحيب، آه ياعمرو فقد اكتوت القلوب بفراقك، أعلم ياحبيبي أن الذي يعاشرك ولو ساعة واحدة سينحب أعوامًا لموتك.

تلك التي تشاهد مئات الحالات والوفيات يوميًا كانت تبكي رثاءا لحبنا، تبكي حزنًا على وجعي لفقده، قلت لها ودموعي تترجاها بكل ما أوتيت من ضعف لم أكشفه من قبل:

- طلب واحد بس ماتقوليش للدكتور إنه مات، هياخدوه المشرحة وأنا عايزاه أرجوكي

قالت وهي تبكي:

- مش هقدر، لازم كل ربع ساعه بدخل أقيس الضغط والحرارة، كده هتأذي في شغلي، اللي هقدر أعملهولك إني هخلي الدكتور يشوفه ويكتب تقرير الوفاة، وهسيبهولك ساعتين.

جاء الطبيب بأجهزة قياس النبض، وأنا أنتظر أن تخرج نبضة واحدة تحيي بي الأمل، فخرج الخط مستقيمًا بلا روح.

خرج الجميع من الغرفة، قلت لهم:

- اكتبوا على كل الجروبات والصفحات إني عاوزة آخر رزق عمرو من الدنيا الناس الي هتصلي عليه بكرة، عاوزة أكبر عدد يصلي عليه ويدعي له.

أمسكت هاتفي بيدي المرتجفتين، وجلست أكتب:

- لا عزاء في عمرو، قد عزاني الله أن أراني مقعده من الجنة، أخر ما رأى كانت الكعبة، فهو مات على عبادة، الحمد لله

الذي رزقني رضاه ودعائه، اللي عااوز يعمل الواجب يروح يصلي عليه وادعولي أن يربط الله على قلبي لحين لقاه.

تركت الهاتف وأغلقت المصباح الكهربائي، وقفت لأصلي ركعتين بين يدي الله.

هكذا أخبروني أنني فعلتها، ولا أعلم كيف فعلتها بمنتهى الهدوء والسكينة، قلت بسجودي:

- يارب مش هوصيك عليه، هو دلوقتي عندك وأنت أحن عليه مني، يارب انت عارف أنا كنت حنينة عليه ازاي، يارب ريحه في الجنة.

أخذت رأسه على صدري وسكنت بجواره، فدخل عبد الله ورحاب خوفًا أن أصيب نفسي مكروهًا بلا وعي ثم قال:

- يللا يادينا لازم نغسِّل عمرو هنا في المستشفى قبل ما يتغسل برة، ده بروتوكول المستشفى.

- طيب عمرو مبيحبش يتكشف على حد، اللي هقول عليهم هما بس هما اللي عمرو بيحبهم وهيساعدوني، أنا اللي هغسله بنفسي، ساعدوني أقلبه بس.

أخذت أشق ملابسه بمقص -التي أصلحتها بالخيط بعد ذلك-، كانت ملابسه لا تزال مبلله بعرقه ورائحته، ثم أحضرت مناديل مبللة وقطن وماء دافيء كي لا يشعر بالبرد!

كان أصدقاؤه يقلبون لي جسده ويغطون ما أنتهي من تنظيفه، ثم قصصت له أظافره بهدوء دون أجرح جلده الملتصق بها وأقول:

- متخفش يا حبيبي بعملهم براحة أهو.

سوَّكت أسنانه، وصففت شعره، ولففت الملاءات من حوله، وأغلقت فمه، وجاء الوقت لتغطية وجهه فقبلته قبلات كثيرة عشوائية بكل مكان بوجهه ثم أغطيه، وأعود لفتحه وأقبله.

كان قد مرت الساعتين بسرعة البرق وجاؤوا لأخذه، كنت أعلم أنني لو ظللت واقفة لوداعه وتقبيله لمائة عام لن أتركه، وأنا لا أريد أن يأخذوه عنوة من بين يديَّ، قبلته للمرة الأخيرة وأغلقت وجهه وقلت:

ـ أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

جاءتني صديقتي عزة المقربة لي تبكي، وتدعو الله أن يرحمه وتقبل يدي وركبتي، وأنا أبكي معها كل البكاء الذي خبأته لسنوات، فقد رحل الذي كنت أخاف أن يرى ضعفي ودموعي، الذي كان يستمد القوة من قوتي وصمودي، الجميع يبكي من حولي وعاطف يقول:

ـ متخافيش يا دينا مش هنسيبك، عمرو استريح اتعذب كتير، ربنا رحيم بيه

ـ أيوة، تعب كتير أوي..

أقولها وأنا أبكي بمرارة.

ثم قلت:

ـ مشوني من هنا حالًا، الأوضة من غيره صعبة

تركتهم يحقبون أغراضنا بالغرفة، لم أجرؤ على دخولها دون وجوده، وكنت لا أطيق العودة للمنزل، فذهبت بصحبة رحاب وعبد الله للمبيت معهم، قلت:

ـ عبد الله أقف عند أي ATM، جودي كانت شارية لعبة من الكريدت بتاعه الاسبوع اللي فات، هو كده عليه فلوس.

- كام يادينا؟
- حوالي ٥٠ ريال، مش مهم قد ايه المهم أسددهم قبل ما يتدفن
- حاضر يا دينا حالا.
- وعايزة اللاب توب بتاعي.
- ليه طيب؟
- هاتوه وخلاص.
- حاضر.

دخلت إلى ملفات الكمبيوتر الشخصي الممتلئة بملفات فوضوية، ثم أخرجت الفيديو الذي كان يتلو فيه آيات قرآنية والتي كنت أصورها له وأنا أعلم ان تلك الدقائق ستكون هي الصدقة الجارية التي سأضعها على صفحتي بالفيس بوك حينما توافيه المنية.

رفعت الفيديو على صفحتي لأنني أعلم أن الجميع سيتشاركه وسيستمع له وسيدعون له، سيزداد رصيد حسناته وهو الآن في أشد الحاجة لجنيها.

أغلقت الحاسوب واستكملت الدموع على الأريكة، بعد أن رفضت دعوة رحاب للنوم بالغرفة، ونمت كما أنام منذ سنوات بوضع القرفصاء، وسقطت في نوم عميق بلا شعور، ورحاب تنام على الأرض بجواري، وأنا أنادي:

- ياعمرو، ياعمرو!

جاء شقيقه عماد ليحضر مراسم الدفن، الجميع يتعجبون لذلك الشخص الذي يشبه عمرو إلى هذا الحد، الجميع يردد:

- إيه ده عمرو ليه أخ؟

استجابوا لدعواتي للحضور بجوار ذويهم، بعد شهور طويلة، وجاء بمشهد النهاية، ليودعه تحت الثرى!

قال:

- حد يقول لدينا إني عاوز شهادة الوفاة.

اللعنة على الشعور، اللعنة على صلة الدم، الآن يفكر بشهادة الوفاة وإجراءات لا أعلم عنها شيئًا! يبدو أنها الحرب قد بدأت.

بعد انتهاء مراسم الدفن التي كنت أشاهدها معهم عبر اتصال فيديو لمنع دخول النساء المدافن وكنت لا أزال ببيت رحاب، فأخبرني عماد برغبته لزيارتي بالبيت والاطمئنان على جودي وعليا.

ذهبت بصباح اليوم التالي أنتظر قدومه، فوجدت رسالة منه:

- إزيك يادينا عاملة إيه؟ أنا آسف، راحت عليا نومة ومعاد الطيارة جه ولازم أمشي دلوقتي، ربنا يصبرك ويلهمك القوة، كان نفسي أشوف البنات بس مش هلحق، إن شاء الله هضبط أموري في الكويت وأجيلهم قريب.

***

"مهما نزفت عيوني دمعًا، لن ينطفأ حزني عليك، أنا لا أعتبرك غائبًا، أنت حاضرًا بقلبي، أنت تسكن أوردتي، سأُحيي ذكراك يا حبيبي ما دُمت حية وبي قلب ينبض لأجلك»

رتَّب لي عمرو حياتي بعد مماته، وكان عليَّ أن أرفع له قدره في الجنة التي بشرنا بها الله بعد مماته.

"أفضل الصدقات سُقيا الماء"

أعلنت على صفحة التواصل الإجتماعي عن (حفر بئر بجنوب أفريقيا) ليصل ثوابه إلى المرحوم عمرو عبد الستار، من يريد التبرع ولو بجنيهًا.

تم حفر بئر صدقة جارية عن المرحوم «عمرو عبد الستار»

تم صنع جهاز مخصص لعلاج الأجزاء المصابة بالسرطان لتجميد الورم ووضعه بالمشفى باسم «جهاز عمرو»

جاري البحث في عقد مؤتمر تحت إشراف منظمة حقوق الإنسان لتقنين استخدام زيت الماريجوانا في علاج الأورام السرطانية.

***

- مكنتش متخيلة إني هبقى فاكرة كل التفاصيل دي، كان دايمًا عندي هاجس إني في يوم هفقد الذاكرة وهايفكرني «كتاب»
- قوليلي حاسة بإيه؟ تعبتي كتير أوي ومشي وسابك...
- مش ندمانة لحظة واحدة، ولو اتعاد عمري من جديد هبذل كل المجهود ده ويمكن أكتر، وراضية جدا بقضاء ربنا، يمكن وصلت لعلاج واكتشافات متأخر ومحصدتش نتيجتهم في شفاؤه، بس ربنا شايلنا الجزاء والنتيجة، انا وعمرو لسه هنتقابل تاني وهنعيش مع بعض، ربنا بشرنا بالجنة وأنا مستنياها..

◊ الوصفات الطبيعية التي أعددتها لعلاج عمرو:

(١)

الكابوريا

يرجع تسمية الاورام الخبيثة بالسرطان، لأن الخلية السرطانيه تشبه الكابوريا، ممتد منها زيادات كالارجل والأذرع لتمتص غذاء الجسد، لأنها تحتاج الى غذاء اكبر من العادي باضعاف المرات.

تحضر الكابوريا وتحمص عظامها فقط بالفرن، ثم تطحن على شكل بودرة وتصفى جيدا وتعبأ بكبسولات فارغة مخصصة لذلك، او تؤخذ منه ملعقة يوميا.

(٢)

جبنة Cottage cheese

نوع من أنواع الجبن النادر وجودها، تعمل على تغيير التركيب الأيوني للخلية السرطانية، مما يجعلها تدمر نفسها وتقوم بالإنتحار ذاتيا.

يضرب الجبن بخلاط على درجة منخفضة مع مراعاة عدم رفع درجة حرارة الجب ويضاف زيت بذر الكتان العضوي حتى يتم الامتزاج تماما ثم يخلط المزيج بملعقة بذر كتان مطحونة فالحال طازجة (لعدم فقد قيمتها الغذائية) وتؤكل بخلال ربع ساعة فقط.

(٣)

علاج السرطات بفيتامين B١٧ + فيتامين C عبر الوريد

يتواجد فيتامين B١٧ بصورة طبيعية باللوز المر المتواجد في بذور المشمش وبذور التفاح مع مراعاة ان تكون الفاكهة أورجانيك لا تحوي كيماويات لأنها تختزن بالبذور.

ويتواجد كمكمل غذلئي بالمستشفيات والأماكن الطبية المخصصة.

يحقن فيتامين C بالوريد مع تناول فيتامين B١٧ ليهاجما الخلايا السرطانية ويقضيا عليه تماما.

(٤)

قلوية الجسد

نظرية لأحد الأطباء، يجب أن يكون الجسد قلويا كي لا يحوي أمراضا، لأن الأمراض جميعها يستحيل أن تعيش بوسط قلوي.

ولكي يجعل الجسد قلويا، يذاب بيكنج صودا في الماء، ويؤخذ بعد الوجبة بساعتين، أو قبل الوجبة بساعة، ويقاس قلوية البول يوميا.

- نجح الأمر مع مريض سرطان بالعمود الفقري، والذي لم يستطع استئصال الجزء المصاب لحساسية وجوده، ولم يخضع للجلسات الكيميائية، فقط تعافى كليا وحصل الطبيب على جائزة تكريما لاكتشافه.

(٥)

ماء الأكسجين

توضع قطرتين من ماء الأكسجين على الماء المقطر، لتعمل على تشبع الخلايا الخبيثة بالاكسجين، وعلى أساسه لا تستطع الخلايا السرطانية إن تعيش بوسط ممتلىء ومتشبع بالاكسجين، فتنتهي وتتلاشى.

(٦)

فاكهة القشطة

مفيدة جدا لقتل السرطان ومهاجمته، وفاكهة (الجرافيولا) الفاكهة الأم للقشطة والتي تزرع في أفريقيا وتتواجد كمكمل غذائي بكبسولات مضادة للسرطان.

(٧)

القمح المنبت

"الحب ذو العصف "

اثبتت الدراسات ان انبات الحبوب يعزز من فوائدها وطاقتها بمجرد ظهور النبت الأخضر بها.

لذلك، يزرع القمح وحينما ينبت بمقدار طول العشرون سنتيمترا، يقص الأخضر ويوضع بالخلاط حتى تمام الفرم، ثم يصفى منه كمية قليلة تسمى عصير عشب قمح، مفيدة جدا لطرد السموم من الجسد.

(٨)

خلطة طبيعية مضادة للالتهاب

يعتبر الالتهاب المزمن من أحد مسببات السرطان المباشرة.

يؤخذ مغلي شرائح من الجنزبيل الطازج والكركم الطازج، ويضاف لهم عصير ليمونه ونقطتين من الفلفل الأسود الذي يعزز من امتصاص الكبد للكركم، ونقطة من زيت جوز الهند، ويشرب دافئا.

(٩)

الفطر الصيني

يوضع بكوب من الحليب بالثلاجة فيتضاعف حجمه، ثم يصفى و يشرب.

(١٠)

اللبان الذكر

زيت لبان الذكر مفيد جدا لعلاج السرطان لإضافته بأحد الوصفات ويمكن أخذه خام، ويمكن استخدام لبان الذكر بديلا من العلك المضاف له مواد حافظة.

(١١)

Essiac Tea

اخترعت تلك التوليفة أحد الممرضات الهنود التي كانت تعمل بمشفى تمتلأ بالأمراض المستعصية، فكانت تصنع لهم الشاي على طريقة الهنود الحمر، كان يعمل على طرد السموم من الجسد ومن تكوين خلايا سرطانية، وكانت قد استجابت بعض الحالات وتماثلت للشفاء.

يُحضّر مغلي الشاي، ويوضع بزجاجة في الثلاجة، ويؤخذ منه نصف كوب صباحا كلي يوم، ويضاف له ماء مغلي جديد.



تشكيل للنشر والتوزيع